من نظرة عين
وقصص أخرى

الكتاب : من نظرة عين وقصص أخرى

ترجمة وإعداد : د/ هاني حجاج

تصميم الغلاف : د/ هاني حجاج

تنسيق داخلي : يوسف الفرماوي

مراجعة لغوية : د/ هاني حجاج

الطبعة : الأولى ٢٠٢٠

رقم الإيداع: 2020/3922

الترقيم الدولي : 978-977-6783-47-8

الناشر : السعيد للنشر والتوزيع

المدير العام : لمياء السعيد

برج الهادي – الدور الأول - 36 ش عبد الحميد الديب – شبرا مصر

0222017260 – 01550096215

elsaidpublisher@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

من نظرة عين
وقصص أخرى

ترجمة وإعداد:

د. هاني حجاج

قصص من جابرييل جارثيا ماركيز

***

أشباح منتصف النهار

قبل منتصف النهار بقليل وصلنا إلي أريزو، وقضينا ما يربو على الساعتين في البحث عن القصر الذي يدل كل شيء فيه على عصر النهضة، وهو موجود في منطقة شاعرية من القرية البدائية. اشتراه الكاتب الفنزويلي ميجيل أوتيرو سيلفا. كان يوم أحد من أول أسبوع من شهر أغسطس، ساخنا ومهيجا للأعصاب، ولم يكن من السهل مصادفة شخص يعرف شيئا عن القصر في الشوارع التي تعج بالسائحين. وبعد عدة محاولات للبحث بدون جدوى عدنا إلي السيارة وغادرنا البلدة عبر طريق صغير تحفه أشجار السرو دون هدف محدد.

لكن امرأة عجوزا كانت ترعي دواجنها دلتنا في النهاية علي مكان القصر بوصف تفصيلي، وقبل أن تودعنا سألتنا إن كنا سنقضي الليلة هناك، فأجبناها، وفقا لما كان مقررا في الدعوة، بأننا ذاهبون فقط للغذاء، فقالت:

- هذا لحسن الحظ، لأن المكان مرعب فعلا.

وبما أننا، زوجتي وأنا، لم نكن نؤمن بأشباح منتصف النهار، فلم نهتم بكلامها بل وسخرنا من تحذيرها، إلا أن طفلينا، البالغين من العمر تسعا وست سنوات، انتابهما الفرح لكونهما سوف يريان أشباحا حقيقية.

وجدنا السيد ميجيل أوتيرو سيلفا، الذي كان بالإضافة إلى كونه كاتبا جيدا مضيافا واسع الصدر، ينتظرنا بطعام غذاء شهي جدا، لا يمكن نسيانه أبدا. وبما أننا وصلنا متأخرين فلم يكن لدينا وقت لكي نتجول في أرجاء القصر قبل الجلوس إلي مائدة الطعام، ولكن منظره من الخارج لم يكن مما يثير الخوف، بل إن مشهد المدينة التي كانت تبدو لنا من المكان المرتفع الذي نتناول فيه الغداء كان كافيا لتبديد أي شعور بالضجر.

كان من العسير على المرء أن يتخيّل كيف يمكن أن يولد في هذه البيوت المتكاتفة فيما بينها فوق هذه الهضبة، حيث يعيش حوالي عشرة آلاف شخص متزاحمين، أشخاص ذوو عبقرية فذة، لكن ميجيل أوتيرو سيلفا قال لنا بمزاجه الكاريبي أن أيا من هؤلاء الأشخاص الممتازين ليس أفضل ما في أريزو:

- إن أفضلهم كان هو لودفيجو. فقط (لودفيجو)، مع حفظ الألقاب، أحسن رجال الفن والسيف، الذي شيّد هذا القصر الحزين.

واسرف ميجيل أوتيرو سيلفا في الحديث عنه طيلة وقت الغذاء. عن قوته التي لا تُقهر ومغامراته الغرامية البائسة وموته المأساوي، وكيف أنه في لحظة جنون قاسية قتل عشيقته علي السرير الذي مارسا فيه الحب ثم أثار عليه بعد ذلك كلاب الحرب الذين قطعوه إربا. وأكد لنا، بلهجة يقينية بحتة، أن شبح لودفيجو يخرج بعد منتصف الليل ويبدأ في التسكع

في جنبات القصر وسط الظلمة محاولا إعادة السكينة إلي منبع هواه.

لقد كان القصر في الحقيقة واسعا جدا وشبه مُظلم، غير أن قصة ميجيل لم تبد لنا في واضحة النهار مع امتلاء المعدة وانشراح الصدر إلا مجرد مزحة شبيهة بدعاباته المعروفة التي يحاول الترويح بها علي ضيوفه. وخلال تجوالنا بعد راحة القيلولة من دون أدنى شعور بالخوف بدت لنا الغرف الاثنتان والثمانون التي يتكون منها القصر وكأنها خضعت لتغييرات كثيرة من طرف أصحابه المتعاقبين.

قام ميجيل بإصلاح الطابق الأسفل كاملا وصمم غرفة نومه بطريقة حديثة وجعل أرضيتها من الرخام، وحماما بخاريا علي الطريقة الإسكندنافية، وشرفة زودها بورود فاقعة حيث تناولنا طعام الغذاء.

أما الطابق الثاني فقد تُرك بلا عناية وكان قد خضع للاستعمال كثيرا خلال القرون الماضية فقد كان عبارة عن سلسلة من الغرف التي لا تحمل سمات معينة خاصة بها، فيها أثاث ينتمي إلي طائفة مختلفة من العصور. لكن في الطابق العلوي كانت هناك غرفة لم تمس في السابق يبدو أن الزمن لم يتمكن من الوصول إليها فبقيت كما كانت. إنها غرفة نوم لودفيجو. كانت لحظة ساحرة. فهناك كان السرير المحاط بالستائر الموشاة بخيوط من الذهب، والأغطية الحريرية العجيبة المتغضنة التي لا يزال بها أثر دم العشيقة المقتولة المسفوك، والمدفئة الرمادية المتجمدة التي تحول فيها الحطب الأخير إلي حجر بارد، والخزانة التي لا تزال بها الأسلحة الفتاكة، والبورتريه الزيتي في إطار من الذهب للفارس وهو يتأمل، مرسومة بيد واحد من كبار فناني فلورنسا.

لكن الذي أثار دهشتنا هو وجود رائحة لفراولة ما تزال نفاذة في غرفة النوم دون تفسير واضح!

الأيام في الصيف في توسكانا طويلة وبطيئة، حيث يبقي الأفق مستقرا في مكانه حتى التاسعة ليلا. وعندما انتهينا من التجول داخل القصر كانت الساعة تشير إلي الخامسة من بعد الظهر، ولكن ميجيل أصر علينا بأن يأخذنا لنرى اللوحات الجدارية لبييرو ديلا فرانسيس في كنيسة سان فرانسيسكو، وبعد ذلك جلسنا لتناول القهوة وتجاذب أطراف الحديث تحت قوس من النباتات المتسلقة، وحينما عدنا إلي القصر لحمل حقائبنا وجدنا أنهم أعدوا طعام العشاء، وهكذا اضطررنا للبقاء.

وفيما كنا نتناول طعام العشاء تحت سماء بنفسجية اللون لا توجد بها سوى نجمة يتيمة، أخذ الولدان المشاغل من المطبخ وراحا يستكشفان غرف الطابق العلوي وسط الظلمة. ومن مكاننا في الأسفل سمعنا أصوات ركضهم الذي كانا يقلدان به الخيول علي السلم، وأنين الأبواب، والأصوات الناعمة السعيدة التي تنادي لودفيجو في الغرف المظلمة.

وخطرت للولدين تلك الفكرة المريعة بأن نقضي الليلة ها هنا، وساندهم ميجيل أوتيرو سيلفا سعيدا بها، فلم نجد في أنفسنا الشجاعة الأدبية لنرفض الدعوة. بعكس ما كنت أتخوف، نمنا تلك الليلة جيدا، زوجتي وأنا، في غرفة نوم بالطابق السفلي بينما نام الولدان في الغرفة المجاورة. كانت الغرفتان معا قد أدخلت عليهما إصلاحات بشكل جعلهما حديثتين، لذلك لم تكونا معتمتين تماما.

وفي انتظار أن يأخذني النوم بدأت أتسلى بعدّ الضربات الإثنتي عشرة للساعة الجدارية الكبيرة، فتذكرت تحذير راعية الدواجن، لكننا كنا متعبين جيدا فنمنا نوما ثقيلا مليئا بالأحلام، وصحوت بعد الساعة السابعة صباحا بقليل علي نور الشمس المتسلل عبر فتحات النوافذ، وكانت زوجتي إلي جانبي ما تزال نائمة، فقلت في نفسي:

- يا لها من حماقة، أن يؤمن المرء في هذا الزمن وهذا العُمر بالأشباح!

اجتاحتني رائحة الفراولة التي كأنها قطفت للتو، وفي تلك اللحظة بالذات، وصورة المدفئة الرمادية المتجمدة التي تحول فيها الحطب الأخير إلي حجر، والبورتريه الزيتي للفارس الحزين في الإطار المذهب وهو ينظر إلينا من وراء ثلاثة قرون. واكتشفت بأننا لم نكن في الحقيقة نائمين في نفس الغرفة التي نمنا فيها ليلة أمس بالطابق السفلي، بل في غرفة نوم لودفيجو، تحت الستائر التي علق بها الغبار والأغطية الملطخة بالدم الذي لا يزال طريا علي السرير الفاحش الملعون!

عينا كلب أزرق

ثـمَّ أنهـا نظـرتْ إليّ. في البدايـة ظننـتُ أنهـا تـراني لأول مـرة، إلا أنهـا عندمـا اسـتدارت خلـف المدفـأة، وعندمـا بـدأتُ أشـعر بنظرتهـا المراوغـة تنزلـق عـلى ظهـري، وتعـبر مـا بـين كتفـي، عندهـا أدركـتُ أننـي مـن يراهـا لأول مـرة! أشـعلتُ سـيجاراً، وسـحبتُ نفسـاً عميقـاً وثقيـلاً مـن الدخـان قبـل أن أديـر المقعـد لأجعلـه يتـزن عـلى سـاقيه الخلفيتـين فقـط. حينهـا صـار بمقـدوري أن أشـاهدها بالفعـل، كـما كانـت تقـف بجانـب المدفـأة وتحـدّق فيّ، كل ليلـة. لدقائـق معـدودات كان ذلـك كلّ مـا فعلنـاه: تبـادل النظـرات. أنـا رمقتُهـا مـن مقعـدي المتـزّن عـلى سـاقيه الخلفيتـين، فيـما هـي تقـف ويدهـا الطويلـة السـاكنة فـوق المدفـأة، ترمقنـي بدورهـا. شـاهدت الألـق الـذي انفـرج عنـه جفناهـا، كـما في كل ليلـة؛ فتذكـرتُ عـادتي في أن أقـول لهـا:

- عينا كلبٍ أزرق.

وبدون أن ترفع يدها عن المدفأة تمتمت:

- تلك العبارة التي لن ننساها أبداً

ثم غادرت مكانها وتابعت متنهدة:

- عينا كلبٍ أزرق. لقد كتبتُها في كل مكان بالعالم.

راقبتهـا تسـير متجهـة إلى التسريحـة، وشـاهدتُ صورتهـا تظهـر في المـرآة المسـتديرة ترمقنـي كلـما وقـع عـليّ شيء مـن الضـوء. مسـتمرة في مراقبتـي بعينيهـا البراقتـين كقطعتـين مـن جمـر، بـدأتْ بفتـح العلبـة الصغـيرة ورديـة المخمـل المغطـى بلآلـئ، ثـم رشـتْ المسـحوق عـلى أنفهـا، كل هـذا وأنـا أراقـب. حـين انتهـتْ أغلقـت العلبـة وانتصبـتْ معـاودة السـير نحـو المدفـأة ، قالـت:

- أخشى أنَّ أحدهم يحلم بهذه الغرفة ويستكشف أسراري.

ثـم أنهـا مـدت ذات الأنامـل النحيفـة المرتعشـة فـوق الوهـج، تلـك التـي كانـت تعمـل عـلى تدفئتهـا قبـل الجلـوس للمـرآة. وأردفـت:

- أنت لا تشعر بالبرد، صح؟

فأجبت باقتضاب:

- أحياناً.

وعادت تقول:

- يجب أن تكون تشعر به الآن.

وعندهـا أدركـتُ لِـمَ لمْ يمكننـي البقـاء وحيـداً عـلى الأريكـة؛ لقـد كان الـبرد هـو سـبب إحسـاسي بالوحـدة. قلـت:

- الآن أشعر به.

ثم استطردتُ:

- وهذا غريب لأن الليل صافٍ، ربما سقطت الملاءة.

لكنها لم تحر جواباً. من جديد أراها تغادر مكانها لتتجه إلى المرآة ، فأدير المقعد لأبقي على ظهري مواجهاً لها. وبدون النظر إليها، عرفتُ ما كانت تقوم به. عرفتُ أنها جلست أمام المرآة مرة أخرى ، تراقب ظهري الذي أخذ وقته ليصل إلى أعماق مرآتها، ويختلس كل ما يهفو من نظراتها، تلك التي بدورها حظيت بالوقت لتصل إلى الأعماق وتعود- كل هذا قبل أن تبدأ اليد دورتها الثانية – حتى أصبحت شفتاها مرسومة بالقرمزي في دورة واحدة من أناملها، وهي جالسة أمام المرآة.

أمامي، كنت أتطلع إلى الجدار الناعم، الذي بدا كمرآة عمياء لا يمكنني عبرها النظر إلى التي تجلس خلفي، ولكن بوسعي تخيلها كما لو كانت هناك مرآة معلقة على الحائط تنقل إليّ صورتها، وقلت بصوت رخيم:

- أنا أراكِ.

على الجدار رأيتها حقا وصدقا، كما لو رفعت عينيها إلى المرآة وشاهدتني بظهري المقابل لها على المقعد، وفي عمق المرآة، وجهي المصوب باتجاه الجدار الأملس. ثم شاهدتُها تخفض عينيها ، دون أن تنطق بكلمة. قلت لها مرة أخرى:

- أنا أراكِ.

من ثم رفعت عينيها ثانية وقالت:

- هذا مستحيل.

سألتها عن السبب الذي يجعل ذلك مستحيلاً، فأجابت بعيون هادئة خجول:

- لأن وجهك باتجاه الحائط.

عندها أدرتُ المقعد، قابضاً على طرف السيجار بين أسناني. وحين بقيتُ مواجهاً لها عادتْ إلى مكانها خلف المدفأة. هاهي ترفع كفيها فوق حافةالمدفأة، كما ترفع دجاجة جناحيها، تطلب الدفء والأمان، بينما ظلال أصابعها تغطي وجهها ، وقالت:

- أعتقد أني على وشك الإصابة بالبرد. لابد أن تكون هذه المدينة الثلجية.

أدارت وجهها جانباً، فتحولت بشرتها من النحاسية إلى الحمراء، وفجأة اربد وجهها واكفهر. قالت:

- افعل شيئاً من فضلك.

ثم أنها بدأت تنضو عنها ثيابها. فقلت:

- سأدير وجهي للحائط.

لكنها لوحت بكفها معترضة:

- لا جدوى، سيمكنك رؤيتي على أية حال ، كما فعلت قبلاً.

الوهج يشرق على بشرتها النحاسية فيجعلها تلمع ، قلت لها:

- لطالما أردتُ رؤيتك هكذا، وبطنك المكسوة بالحفر كما لو تعرضت لعلقة ساخنة.

وقبل أن أدرك كم كانت دعابتي سمجة وغبية وغير مهذبة، كانت هي قد أصبحت عديمة الحس بما حولها، مشغولة بتدفئة نفسها قرب المدفأة. قالت:

- أحياناً أشعر أني مصنوعة من معدن.

وسكتت بعدها، فيما تحرك كفيها بخفة فوق النار. قلت:

- أحياناً ، في فانتازيا أخرى، اعتقدتُكِ مجرد تمثال برونزي صغير مقام في زاوية أحد المتاحف؛ ربما لهذا أنتِ باردة.

- في بعض الأوقات، عندما أنام فوق قلبي، يمكنني أن أشعر بالفراغ يكبر في جسدي، بشرتي تصبح رقيقة كصفيحة معدنية، ثم عندما يزداد تدفق الدم، أشعر بالقرع في داخلي. كما لو أن شخصاً يناديني بالطرق على معدتي، يصبح حتى بوسعي سماع صوت النحاس خاصتي في الفراش، يبدو مثل – ماذا يسمونه ؟ - المعدن المصفح؟

ثم سكتت واقتربتْ أكثر من المدفأة . قلتُ لها:

- أحبُّ أن أسمعكِ.

- هل يمكن أن نجد بعضنا يوماً؟ ضع أذنك على أضلعي عندما أنام على جانبي الأيسر، وستسمعني أدق. لطالما أردتكُ أن تفعلها يوما!

سمعتُها تلهث بقوة فيما تتحدث. كانت تبحث عن شيء مجنون وقالت أنها لسنوات لم تفعل شيئاً مختلفا يهزها؛ وهبتْ عمرها للبحث عني في أرض الواقع. ودليلها الوحيد إليّ كانت تلك الكلمات الثلاث:

عينا كلبٍ أزرق

سارت عبر الشارع و صرخت عالياً بها، أرادت أن تخبر ذلك الشخص الوحيد القادر على أن يفهم:

- أنا الشخص الذي يزورك كل ليلة في منامك، ليهمس في روحك: عينا كلبٍ أزرق.

ترتاد المطاعم ، وقبل أن تطلب شيئاً تقول للنادل :

- عينا كلبٍ أزرق.

لكـن الخـدم والنـدل جميعهـم كانـوا ينحنـون مجاملـين باحـترام وبـلا وعـي، دون أن يتذكـر أحدهـم أنـه قـال تلـك العبـارة في أحلامـه قـط. بعدهـا لجـأتْ إلى الكتابـة عـلى الشراشـف أو الحفـر بسـكين عـلى أسـطح الطـاولات الخشـبية الفاخـرة:

عينا كلبٍ أزرق

وعـلى النوافـذ المتدثـرة بالضبـاب والغبـار جميعهـا، نوافـذ الفنـادق الصغـيرة، والمحطـات، وجميـع المبـاني الحكوميـة، خطتهـا بسـبابتها:

عينا كلبٍ أزرق

قالـت أنهـا ذات مـرة دخلـت محـل صيدلـة، شـمّت هنـاك ذات الرائحـة التـي شـمتها مـرّة في غرفتهـا، بعـد أن حلمـتْ بي، ذات ليلـة. قالـت لنفسـها:

- لابد أنه قريب.

وبعد أن تفحصت القرميد الجديد النظيف اتجهت للصيدلي وقالت:

- أحلمُ كل ليلة برجلٍ يقول لي: عينا كلبٍ أزرق.

يومها حدق الصيدلي بعينيها بنظرة غريبة ثم أنه قال:

- في الواقع يا آنستي، إن لك عيوناً كتلك بالفعل.

قالت له:

- لكن عليّ أن أعثر على الرجل الذي قال لي هذه الكلمات حرفياً، في منامي.

لكـن الصيـدلي ابتسـم متهكـما ثـم اتجـه للركـن البعيـد مـن منضـدة العـرض. بقيـتْ ترمـق القرميـد النظيـف وتشـم تلـك الرائحـة المميـزة، ثـم فتحـت حقيبتهـا وأخرجـت إصبـع أحمـر الشـفة الأرجـواني وكتبـت بحـروف مُحمـرّة:

عينا كلبٍ أزرق

وحين عاد الصيدلي احمر وجهة من الحنق وقال لها:

- ما هذا يا سيدتي؟ لقد أتلفت الطلاء!

ثم أعطاها منديلا مغموس بالكحول مستطرداً:

- نظّفيها فورا!

وتابعـت الحديـث مـن موقعهـا بجـوار المدفـأة، لتقـول أنهـا أمضـت طـوال فـترة مـا بعـد الظهـر جاثيـة عـلى أربـع، تنظـف الطـلاء الملـوث بأحمـر الشـفاة و تـردد كالمهووسـة:

- عينا كلبٍ أزرق.

حتى تجمع الناس عند الباب وقالوا أن المرأة قد أصابها الخبال.

الآن بعـد أن توقفـتْ عـن الـكلام، كنـتُ مـا أزال جالسـاً في الزاويـة، أتأرجـح فـوق المقعـد. قلـت لهـا:

- في كل يـوم أحـاول تذكـر العبـارة التـي سـتقودني إليـك، والآن أعتقـد أني لـن أنسـاها. لكنـي لم أفتـأ أبيّـت النيـة ذاتهـا، وعندمـا أسـتيقظ أكـون قـد نسـيت الكلـمات التـي تمكننـي مـن العثـور عليكِ .

- لكنك أنتَ من ابتكرها في الأساس!

- لقـد ابتكرتُهـا لأني شـاهدت عينـاكِ الرماديتـين، لكـن لم يكـن بوسـعي أبـداً التذكـر في الصبـاح التالي.

كوّرت قبضتها فوق اللهب كقطة تقشعر من البرد، ثم تنهدتْ بعمق، وقالت:

- لو أن بوسعك على الأقل أن تذكر الآن اسم المدينة التي كتبتُ بها تلك الكلمات.

أسنانها المتراصة المنتظمة تعكس وميض النار؛ قلت لها متمتما:

- أودُّ لو ألمسكِ الآن.

رفعـتْ وجههـا الـذي كان مضيئـا بنـور المدفـأة، رفعـتْ أنظارهـا الملتهبـة، الدافئـة في الوقـت عينـه، تمامـاً مثلهـا ومثـل يديهـا، وشـعرتُ بهـا ترمقنـي، في الزاويـة حيـث أجلـس متأرجحـاً فـوق المقعـد. غمغمـت:

- لم تخبرني بهذا من قبل.

- ها أنا أقولها لكِ الآن، وهي الحقيقة.

مـن الناحيـة الأخـرى خلـف المدفـأة، طلبَـتْ سـيجاراً. عندهـا شـعرتُ بسـيجاري الـذي اضمحل بـين أصابعـي؛ كنـتُ قـد نسـيت أني أدخـنُ واحـداً. قالـت :

- لا أدري لم لا يمكنني التذكر .. أين كتبتُها تلك الكلمات.

- للسبب نفسه ، غداً لن يكون بوسعي تذكر الكلمات.

مهمومة قالت:

- لا . أحياناً أفكر أني ربما أكون قد حلمتُ بتلك الكتابة أيضاً.

قمـتُ، وسرت باتجـاه المدفـأة، حيـث تجلـس هـي خلفهـا، حامـلاً السـيجار وعـود الثقـاب في يـدي، التـي لـن يكـون بوسـعها الوصـول إلى مـا خلـف المدفـأة. مـددتُ لهـا السـيجار فـوق المدفـأة فالتقطتـه بشـفتاها، ثـم مالـت عـلى اللهـب قبـل أن يتـاح لي الفرصـة لإشـعال عـود ثقـاب. قلـت لهـا:

- في مدينـة مـا في العـالم، عـلى كل الجـدران، لابـد أن تلـك الكلـمات مكتوبـة: عينـا كلـبٍ أزرق. وإذا حـدث وتذكرتُهـا أول شيء في الصبـاح فسـيكون بمقـدوري العثـور عليـكِ.

رفعت وجهها ثانية عن المدفأة، بسيجار مشتعل بين شفتيها هذه المرة. همستْ:

- عينا كلبٍ أزرق

وبـدأت تسـترجع الذكـرى فيـما يسـقط رمـاد التبـغ، عينهـا نصـف مفتوحـة وهـي تنفـث الدخـان، قبضـت عـلى السـيجار بـين أصابعهـا وتابعـت:

- شيءٌ قد اختلف الآن، بدأتُ أشعر بالدفء.

قالتها بصـوتٍ خفيـض وبـلا حـماس، كـما لـو أنهـا لم تقلهـا حقـاً. كـما لـو أنهـا كتبتهـا عـلى قطعـة ورق وقربتهـا مـن النـور فيـما أقـرأ: (بـدأتُ اشـعر بالـدفء) ممسـكة إياهـا بسـبابتها وإبهامهـا، قبـل أن تبـدأ بلفهـا وإتلافهـا، وفيـما أنـا بالـكاد أكمـل القـراءة (.. دفء) كانـت قـد صيرتهـا كـرة وألقتهـا إلى النـار، لتصـير خيوطـاً مـن نـار ورمـادٍ. قلـتُ لهـا:

- هكذا أفضل. أحياناً يُرعبني مرآكِ ترتجفين بجوار اللهب.

كانـت قـد مـرت سـنين طـوال علينـا ونحـن مسـتمرين في رؤيـة بعضنـا. في بعـض الأوقـات عندمـا نكـون معـاً، شـخصٌ مـا كان يلقـي ملعقـة بالخـارج، وكنـا عندهـا نسـتيقظ. وببـطء أدركنـا أن صداقتنـا كانـت تحـت رحمـة الأشـياء الخارجيـة، لأبسـط حـدث. لقاءاتنـا جميعهـا انتهـت بالطريقـة نفسـها، سـقوط الملعقـة، مـع خيـوط الفجـر. والآن هـا هـي بجـوار المدفـأة تحـدق بي، مـما يجعلنـي أتذكـر أنهـا نظـرت لي بالطريقـة ذاتهـا في المـاضي أيضـاً، منـذ ذلـك الحلـم البعيـد ، حـين جعلـت المقعـد يـدور عـلى سـاق خلفيـة واحـدة، وبقيـت أحـدق في امـرأة غريبـة ذات عيـون رماديـة. لقـد حـدث عندهـا ، في ذلـك الحلـم أن سـألتها للمـرة الأولى: مـن أنـتِ ؟ و أجابتنـي: لا أتذكـر. وعـدت أقـول لهـا مـصرّا: لكنـي أعتقـد أننـا شـاهدنا بعضنـا قبـلاً. وبـلا مبـالاة جـاءني جوابهـا: أعتقـد أني حلمـتُ بـكَ مـرة ، وبهـذه الغرفـة بالـذات! / صحيـح . لقـد بـدأتُ أتذكـر الآن. / مدهـش! أنـا متأكـد مـن أننـا التقينـا مـن قبـل، في منامـات أخـرى!

سـحبتْ نفسـين مـن السـيجار. كنـتُ لم أزل واقفـاً أمـام المدفـأة ، وفجـأة وجدتنـي مسـتمر في التحديـق بهـا، مـن أعـلى لأسـفل وبالعكـس، كانـت لم تـزل نحاسـية ينزلـق عليهـا الوهـج فتلمـع. ليـس ذاك النحـاس القـاسي البـارد الجاحـد، بـل كان نحاسـها أصفـراً، ناعـماً، ولـين. وقلـت لهـا ثانيـة:

- أودُّ لو ألمسكِ الآن.

- إذا فعلت فسيتلف كل شيء.

- وليكن، لم أعد أبالي. كل ما علينا فعله هو قلب الوسادة ليتسنى لنا اللقاء ثانية!

ورفعتُ يدي فوق المدفأة، لكنها لم تتحرك. فقط كررت الجملة ذاتها:

- إذا فعلت فسيتلف كل شيء.

قبل أن أتمكن من لمسها. قالت:

- ربما إن استطعتَ الوصول إلى خلف المدفأة، سيكون بمقدورنا أن نستيقظ في نفس اللحظة، من يدري في أي مكان من العالم!

- وليكن، لم أعد أبالي.

- إن استطعنا قلب الوسادة سيكون بمقدورنا اللقاء ثانية، لكنك عندما تستيقظ ستكون قد نسيت على أية حال.

كنتُ قد عاودتُ سيري تجاه الركن، فيما هي خلفي مستمرة في طلب الدفء من اللهب. و قبل أن أصل إلى المقعد سمعتها تقول:

- عندما أستيقظ في منتصف الليل، أظل أتقلب في الفراش، حاشية الوسادة تحرق ركبتي، لكني أبقى أردد حتى الفجر: عينا كلبٍ أزرق.

قلت لها وأنا أحدق في الجدار، كما كنتُ قبلاً:

- إنه الفجر فعلاً.

وأردفتُ دون الإلتفات إليها:

- عندما دقتْ الساعة الثانية بعد منتصف الليل كنتُ مستيقظاً، ولكن ذلك كان منذ زمنٍ بعيد.

كدت ألمس مقبض الباب عندما جاءني صوتها مجدداً، بذات الثبات:

- لا تفتح ذلك الباب.

وتابعتْ بعد صمت لحظة:

- إن الرواق مليء بالأحلام الغامضة.

سألتُها:

- وكيف تعرفين؟

فأجابت:

- لأني كنتُ هناك بالفعل قبل لحظةٍ مضت، لكني عدت إلى هنا حين اكتشفت أني نائمة فوق قلبي.

وكنتُ قد فتحت الباب تقريباً، ومن الفرجة الصغيرة هل نسيم بارد ناعم حمل لي رائحة منعشة للأرض المخضرّة البكر المغطاة بالندى. وعادتْ تتحدث لكني واصلتُ فتح الباب وقلت لها:

- لا أعتقد أن هناك أي رواق في الخارج، أني أشم رائحة الريف الأخضر.

- أنا أدرى بهذا خيراً منك. هناك امرأة بالخارج تحلم بالريف. وعقدتْ ذراعيها فوق

اللهـب مسـتطردة:

- إنهـا تلـك المـرأة التـي ظلـت تحلـم بـأن يكـون لهـا بيـت بالريـف، لكنهـا لم تكـن قـادرة قـط عـلى تـرك المدينـة.

لحظتئـذ تذكـرتُ رؤيتـي لتلـك المـرأة في بعـض منامـاتي السـابقة، لكنـي أدركـتُ أيضـاً، فيـما البـاب شـبه مفتـوح، أن أمامـي نصـف سـاعة قبـل أن يتوجـب عـليّ الذهـاب لتنـاول إفطـاري. لـذا قلـت:

- على كل حال، يجب عليّ أن أغادر هذه الغرفة، المفروض أن أستيقظ الآن.

عـوت الريـح للحظـة في الخـارج، ثـم هـدأت، وأصبـح بمقـدوري سـماع أصـوات تنفـس شـخص نائـم، انقلـب في فراشـه حـالا. النسـيم القـادم مـن الحقـول توقـف ولم يعـد هنـاك روائـح. قلـت لهـا:

- في الغـد سـأتذكرك بهـذا؛ عندمـا أسـير في الشـارع وأشـاهد امـرأة تكتـب عبـارة (عينـا كلـبٍ أزرق) عـلى الجـدران.

قالت فيما ارتسمت بسمة حزينة على شفتيها - بسمة تسليم للمستحيل:

- رغم ذلك لن تتذكر شيئاً أثناء النهار.

وبالأخير عادت تضع كفيها فوق المدفأة فيما فاضت ملامحها بغبار اليأس:

- أنتَ الرجل الوحيد في العالم، الذي لا يتذكر شيئاً مما رآه في حلمه، حين يصحو.

الإبحار في النور

ذات الطلب ليلة الكريسماس: زورق التجديف!

قال الأب لطفليه:

- حسن، سنشتريه حين نعود إلى كارتاخينا!

توتو يبلغ من العمر تسعة أعوام، أمّا جويل في السادسة، وكانا أشد تصميماً مما ظنه أبواهما. وفي صوت واحد هتفا بإصرار:

- لا. إننا نحتاجه الآن وهنا!

قالت الأم:

- الماء الوحيد المناسب للإبحار هنا هو الماء الذي ينزل من الدش!

وقد كانت هي وزوجها على حق، ففي بيتهم في كارتاخينا دي إنديأس يوجد فناء فيه رصيف على الخليج، ومكان يتسع ليختين كبيرين معا، أما هنا في مدريد فيعيشون محشورين كالسمك في علبة السردين، في شقة في الطابق الخامس من المبنى رقم 47 في شارع باسيودي لاكاستيانا. ولكنهما في النهاية لم يستطيعا هو أو هي، أن يعلنا الرفض، دعك من أنهما كانا قد وعدا الطفلين بزورق تجديف مع آلة سدس وبوصلة، إذا فازا بإكليل الغار في السنة الثالثة ابتدائية، وقد فازا به. وهكذا اشترى الأب كل شيء، دون أن يخبر زوجته، وهي الأكثر امتعاضا لتحمل ديون من أجل الألعاب، كان زورقاً بديعاً من الألمونيوم، مزين بخط ذهبي عند حد الغطس. وقد أعلن الأب المفاجأة عند الغداء:

- الزورق موجود في المرآب.

المشكلة أنه لا يمكن الصعود به في المصعد أو على الدرج، وفي المرآب لا يوجد مكان كاف. وبالرغم من ذلك، دعا الطفلان أصدقاءهما يوم السبت التالي للصعود بالزورق على السلم، وتمكنوا من حمله إلى غرفة المستودع في البيت.

قال لهم الأب:

- مبارك.. والآن ماذا؟

قال الأطفال:

- الآن لا شيء! كل ما كنا نريده هو حمل الزورق إلى الغرفة، وقد حملناه.

يوم الأربعاء ليلاً، وكما في كل ليلة أربعاء، ذهب الأبوان إلى السينما، أما الطفلان اللذان صاحبا وسيدا البيت، فقد أغلقا الأبواب والنوافذ، وكسرا أحد مصابيح الصالة المضاءة. فبدأ يتدفق تيار من الضوء الذهبي والبارد من المصباح المكسور، وتركاه يسيل إلى أن بلغ

ارتفاعه أربعة أقدام. عندئذ فقط أقفلا التيار، وأخرجا الزورق وأبحرا بين جزر البيت في فورة من الحماس.

وقد كانت هذه المغامرة الجهنمية نتيجة طيش كبير حين حضرا فيها قصيدة عن الأدوات المنزلية، فقد سأل توتو كيف يضاء النور بمجرد ضغط الزر، ولم تكن لديه الشجاعة للتفكير بالأمر مرتين حين أجابه:

- الضوء مثل الماء؛ يفتح أحدنا الصنبور، فيخرج هكذا!

وهكذا واصلا الإبحار كل أربعاء ليلاً، وتعلما استخدام آلة السدس والبوصلة، وحين كان الأبوان يرجعان من السينما يجداهما نائمين على اليابسة كالكلاب الميتة. وبعد عدة شهور، كانا يتحرقان شوقا للمضي إلى ما هو أبعد من ذلك، فطلبا مجموعة كاملة من أجهزة الصيد تحت الماء، أقنعة، أقدام زعنفية، أسطوانات أكسجين، وبنادق هواء مضغوط لإطلاق السهام.

قال الأب:

- يا للجنون. أن يكون لديكما في غرفة المستودع زورق تجديف لا يمكن استخدامه في شيء. والأسوأ من ذلك هو أن تطلبا حيازة أجهزة غوص!

قال جويل:

- وإذا فزنا بالغار الذهبية في الفصل الأول من السنة؟

فهبّت الأم مذعورة:

- لا، لا شيء آخر بالله عليك!

لامها الأب على عدم تساهلها؛ فقالت:

- المشكلة أن هذين الولدين لا يفوزان بقلامة ظفر لمجرد القيام بالواجب، أما من أجل نزواتهما فإنهما مستعدان للفوز حتى بكرسي السلطان!

ولم يقل الأبوان في نهاية الأمر «نعم» ولم يقولا «لا». ولكن توتو وجويل اللذين كان ترتيبهما الأخير في السنوات السابقة، فازا في يوليو بالغارونيتين الذهبيتين وثناء المدير في إذاعة المدرسة الصباحية. وفي ذلك المساء بالذات، ودون أن يطلبا، وجدا في غرفة نومهما أجهزة الغوص في علبتها الأصلية. وفي يوم الأربعاء التالي، بينما كان الأبوان يشاهدان (التانجو الأخير في باريس) ملأ الطفلان الشقة إلى ارتفاع ذراعين، وغاصا مثل سمكتي قرش متحمستين تحت الأثاث والأسِرّة، وأخرجا من أعماق الضوء الأشياء التي كانا قد فقداها منذ سنوات في الظلام. وعند منح الجوائز النهائية، اختير الأخوان كتلميذين مثاليين في المدرسة، وقدمت لهما شهادات امتياز. وفي هذه المرة لم يطلبا شيئاً، لأن الأبوين سألاهما عما يريدانه، وقد كانا ذكيين لدرجة أنهما لم يرغبا إلا في إقامة حفلة في البيت لتكريم زملائهم في الصف!

انتفخت أوداج الأب وهو يتحدث على انفراد مع زوجته:

- هذا دليل على نضج لا شك فيه!

فقالت الأم:

- الله يسمع منك!

وفي يوم الأربعاء التالي وبينما الأبوان يشاهدان فيلم (حرب الجزائر) رأى الناس الذين كانوا يمرون في شارع كاستيانا شلالاً من الضوء يهوي من عمارة قديمة مختفية بين الأشجار، كان يخرج من الشرفات، ويتدفق بغزارة على واجهة المبنى، ويجري في الشارع العريض على شكل سيل ذهبي يضيء المدينة حتى جواداراما ذاتها!

حطم رجال الإطفاء الذين استدعوا على عجل باب الطابق الخامس. ووجدوا البيت طافحاً بالضوء حتى السقف. كانت الأريكة والمقاعد المغلفة بالجلد تطفو في الصالة على مستويات متعددة ما بين زجاجات البارد والبيانو بمفرشه الذي صنع من التُل، والذي كان يعوم وسط الماء مثل سمكة ذهبية. وكانت الأدوات المنزلية في أوج شاعريتها، تطير بأجنحتها الخاصة في سماء المطبخ. وأدوات الجوقة الحربية التي كان الطفلان يستخدمانها للرقص، كانت تطفو على غير هدى بين الأسماك الملونة التي تحررت من الحوض الذي تحبسها فيه ماما. وكانت - الأسماك - هي الوحيدة التي تطفو حية وسعيدة في المستنقع الفسيح المضيء. وفي الحمام كانت تطفو فراشي أسنان الجميع وواقيات منع الحمل المطاطية التي يستخدمها بابا. وأنابيب الكريمة وطقم أسنان ماما الاصطناعية. وكان تلفزيون الصالة يطفو مائلاً وهو لا يزال مفتوحاً يبث الحلقة الأخيرة من فيلم منتصف الليل المخصص للكبار فقط!

وفي نهاية الممر، كان الصغيران يطفوان بين ماءين.. توتو جالساً في مقدمة الزورق، متشبثاً بالمجدافين والقناع على وجهه، وهو يبحث عن فنار الميناء إلى حيث سمح له الهواء الذي في الاسطوانة، وجويل يطفو في مؤخرة المركب وهو لا يزال يبحث بآلة السدس عن موقع النجم القطبي. وكان يطفو في جميع أرجاء البيت رفاقهم في الصف السبعة والثلاثين وقد تخلدوا في لحظة تبولهم في أصيص الجرانيوم، وغنائهم النشيد المدرسي بكلمات محوّرة من تهكم المدير، أو تناولهم خفية كأس براندي من زجاجة بابا. ذلك أنهم كانوا قد فتحوا أنواراً كثيرة في وقت واحد جعلت البيت يطفح، وغرق جميع التلاميذ.. تلاميذ الصف الرابع الابتدائي في مدرسة سان خوليان في الطابق الخامس من المبنى رقم 47 في باسيو دي كاستيانا في مدريد بأسبانيا المدينة البعيدة عن كل صيف ملتهب والرياح المتجمدة، والتي لا بحر فيها ولا نهر، والتي لم يكن سكان يابستها يوماً من الأيام يعرفون شيئا عن فن الإبحار في النور.

سيادة النائب

كان لا يـزال أمـام سـيادة النائـب أونيزمـو سانشـيز سـتة أشـهر وأحـد عـشر يومـاً عندمـا وجـد المـرأة التـي انتظرهـا طـوال عمـره، سـتة أشـهر وأحـد عـشر يومـاً قبـل أن يمـوت. في روزال دل فـيري، وهـي قريـة متخيّلـة، التقاهـا، وفيهـا رصيـف مينـاء سري لسـفن التهريـب ليـلا، أمـا في وضـح النهـار، فكانـت أشـبه بمضيـق لا معنـى لـه يفـضي إلى الصحـراء، وتواجـه بحـراً قاحـلاً لا اتجـاه لـه، وكانـت قريـة نائيـة وبعيـدة عـن أي شيء، ومعزولـة إلى درجـة أن أحـداً لم يكـن يتخيّـل أن يكـون بوسـع أي مخلـوق أن يغـيّر مصـير أي فـرد مـن سـكانها. حتـى أن اسـمها كان يثـير الضحـك نوعـا مـا، وذلـك لأن الـوردة الوحيـدة الموجـودة في تلـك القريـة كان يضعهـا سـيادة النائـب أونيزمـو سانشـيز في سـترته عـصر ذلـك اليـوم الـذي التقـى فيـه لـورا فارينـا.

كانـت في الواقـع محطـة إجباريـة في حملتـه الانتخابيـة التـي كان يقـوم بهـا كلّ فصـل. فقـد كانـت عربـات المهرجـان قـد وصلـت في الصبـاح الباكـر، ثـم تبعتهـا الشـاحنات التـي تقـل الهنـود الذيـن كانـوا يُسـتأجرون ويُنقلـون إلى المـدن الصغـيرة لزيـادة عـدد الحشـود في الاحتفـالات العامـة وتضخيمهـا. وقبـل السـاعة الحاديـة عـشرة بقليـل، وصلـت السـيارة التابعـة للـوزارة التـي يشـبه لونهـا لـون عصـير الفراولـة التـي تبـاع في زجاجـات المشروبـات الغازيـة الرخيصـة، بالإضافـة إلى السـيارات التـي تقـل العازفـين، والألعـاب الناريـة، وسـيارات الجيـب التـي تقـل أفـراد الحاشـية. أمـا سـيادة النائـب أونيزمـو سانشـيز، فـكان يجلـس مسـترخياً في سـيارته المكيّفـة، لكنـه مـا أن فتـح بابهـا، حتـى هبّـت عليـه نفحـة قويـة مـن الصهـد، وعـلى الفـور تبلـل قميصـه المصنـوع مـن الحريـر الصـافي، وأصبـح وكأنـه قـد غطـس في طبـق شـوربة ضخـم، واعـتراه شـعور بأنـه قـد شـاخ فجـأة، وأحـس بالوحـدة عـلى نحـو لم يشـعر بـه مـن قبـل. في الحيـاة الفعليـة، كان قـد بلـغ الثانيـة والأربعـين مـن العمـر، وكان قـد تخـرّج مـن جامعـة جوتـن جـين بدرجـة شرف كمهنـدس في اسـتخراج المعـادن. كان قارئـاً نهـماً للأعـمال الكلاسـيكية اللاتينيـة المترجمـة ترجمـة مدرسـية. وكان سـيادة النائـب زوج امـرأة ألمانيـة راقيـة أنجبـت لـه خمسـة أطفـال، وكانـوا جميعهـم يعيشـون بسـعادة في بيتهـم، وكان هـو أكثرهـم سـعادة إلى أن أخـبروه، منـذ ثلاثـة أشـهر، بأنـه سـيموت ميتـة أبديـة قبـل أن يحـل عيـد الميـلاد القـادم.

وبينـما كانـت التحضـيرات للاجتـماع الهائـل عـلى وشـك أن تُسـتكمل، تمكّـن سـيادة النائـب مـن الاختـلاء بنفسـه لمـدة سـاعة في البيـت الـذي كانـوا قـد أعـدّوه لـه ليرتـاح فيـه. وقبـل أن يتمـدد عـلى الفـراش، وضـع الـوردة التـي حافـظ عليهـا طـوال رحلتـه عـبر الصحـراء في كأس مـليء بميـاه الـشرب، وابتلـع الحبـوب التـي أخذهـا معـه ليتحـاشى تنـاول شرائـح لحـم الماعـز المقـلّي التـي كانـت تنتظـره أثنـاء النهـار، وتنـاول عـدّة حبـوب مسـكّنة قبـل وقتهـا المحـدد خشـية أن يعتريـه الألم. ثـم وضـع المروحـة الكهربائيـة قـرب الأرجوحـة واسـتلقى عاريـاً تمامـا لمـدة خمـس عـشرة

دقيقة في ظلّ الوردة، وبذل مجهوداً خرافياً كي يبعد فكرة الموت عنه كي يغفو قليلاً. وفيما عدا الأطباء، لم يكن أحد يعرف أن أمامه أياماً معدودات في الحياة، لأنه قرّر أن يبقي سرّه مدفونا في قاع بئر عميق، وأن لا يغيّر شيئاً في حياته، لا بدافع من الكبرياء، بل بسبب الحياء الشديد والشعور بالعار والمهانة.

كمن يمتلك زمام أموره، خرج للقاء الجمهور للمرة الثانية في الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم، مرتاحاً ونظيفاً، وهو يرتدي بنطالاً من الكتّان الخشن، وقميصاً مشجّراً، وكانت الحبوب المسكّنة للألم قد ساعدته في إضفاء شيء من السكينة على روحه. بيد أن التآكل الذي كان الموت يحدثه فيه أكثر خبثاً مما كان يعتقد، لأنه ما أن صعد إلى المنصة، حتى اعتراه شعور غريب بالازدراء للذين كانوا يسعون بشق الأنفس لأن يحظوا بشرف مصافحته، ولم يشعر بالندم، كما كان يحدث من قبل، على جموع الهنود الذين قلما كان بوسعهم تحمّل جمرات البوتاس الحارق الملتهبة تحت أقدامهم الحافية في الساحة الصغيرة الفقيرة العارية. وبحركة من يده أوقف التصفيق، بغضب تقريباً، وبدأ يتكلم دون أن تبدو على وجهه أية ملامح محددة. وكانت عيناه مثبتتين على البحر الذي كان يئن تحت وطأة النار. وكان صوته العميق الرخيم يشبه المياه الراكدة، لكنه كان يعرف أنه لم يكن يقول الصدق في الخطاب الذي كان قد حفظه عن ظهر قلب، والذي كان قد ألقاه أمام الجموع مرات كثيرة، بل كان يناقض أقوال ماركوس أوريليوس صاحب النزعة الجبرية في كتاب التأملات.

إننا هنا لكي نلحق الهزيمة بالطبيعة ، بدأ خطابه بخلاف كلّ قناعاته.لن نصبح أيتاما في بلدنا بعد الآن، لقطاء الله في عالم العطش والمناخ الرديء، منفيين في أرض آبائنا وأجدادنا. بل سنكون أناساً مختلفين، أيها السيدات والسادة، سنكون أناساً عظماء وسعداء .

كان ثمة طراز واضح ومعين في هذا السيرك البهلواني الذي يقوم به. ففيما كان يلقي كلمته، كان مساعدوه يلقون بمجموعات من الطيور الورقية في الهواء، فتدّب الحياة في هذه المخلوقات الاصطناعية، وتحلّق حول المنصة المنتصبة من ألواح خشبية، وتطير باتجاه البحر. وفي الوقت نفسه، كان رجال آخرون يفرغون بعض جذوع الأشجار من الشاحنات، ويغرسونها في تربة البوتاس الحارق وراء الجموع الحاشدة. وكانوا قد أقاموا واجهة كرتونية من بيوت خيالية من القرميد الأحمر ذات نوافذ زجاجية، وأخفوا وراءها الأكواخ الحقيقية البائسة الفقيرة. وأطال سيادة النائب خطابه مستشهداً بمقولتين اثنتين باللغة اللاتينية ليطيل أمد المهزلة. ووعد الحشد بآلات تصنع المطر، وبأجهزة نقّالة لتربية حيوانات المائدة، وبزيوت السعادة التي تجعل الخضراوات تنمو في تربة البوتاس الحارق، وبشتلات من أزهار الثالوث المزروعة في أصص. وعندما رأى أنه استطاع أن يخلق عالمه الخيالي، أشار إليه بيده، وصاح بأعلى صوته: ذاك الدرب سيكون دربنا، أيها السيدات والسادة. انظروا! ذاك الدرب سيكون لنا .

هنا التفت الحشد. وكانت سفينة مصنوعة من الورق الملّون تعبر وراء البيوت، وكانت

أطـول مـن أعـلى بيـت في المدينـة الاصطناعيـة. وعندهـا لاحـظ سـيادة النائـب، أنهـا بعـد أن شُـيدت وأُنزلـت وحُملـت مـن مـكان إلى مـكان آخـر، التهـم الطقـس الشـنيع البلـدة الكرتونيـة المتداخلـة، وكادت تصبـح متآكلـة كـما هـو حـال قريـة الـوردة الذابلـة روزال دل فـيري.

وللمـرة الأولى منـذ سـنوات عديـدة، لم يتوجـه نلسـون فارينـا ليرحـب بسـيادة النائـب. بـل كان يسـتمع إلى خطـاب سـيادة النائـب وهـو مسـتلق عـلى أرجوحتـه في مـا تبقـى مـن قيلولتـه، تحـت ظـلال تكعيبـة البيـت ذات الألـواح غـير المسـتوية، التـي صممهـا الصيـدلي وجـرّ إليهـا زوجتـه الأولى ثـم قطّعهـا إلى أشـلاء. ثـم هـرب مـن جزيـرة الشـيطان، وظهـر في روزال ديـل فـيري عـلى مـتن سـفينة محمّلـة ببغـاوات بريئـة مـن نـوع نـادر، برفقـة امـرأة سـوداء جميلـة كافـرة، كان قـد التقـى بهـا في باراماريبـو وأنجـب منهـا فتـاة. لكـن المـرأة ماتـت لأسـباب طبيعيـة بعـد فـترة قصـيرة، ولم تلـق مصـير المـرأة الأخـرى، التـي سـاهمت أعضاؤهـا المقطعّـة إربـاً في تسـميد قطعـة الأرض المزروعـة بالقنبيـط، بـل ووريـت الـتراب بكامـل جسـدها، محتفظـة باسـمها الهولنـدي، في المقـبرة المحليـة. وقـد ورثـت الابنـة لـون أمهـا وقوامهـا الجميـل، فضـلاً عـن عينـيّ أبيهـا الصفراوين المندهشـتين، وكان يحـق لـه أن يعتقـد أنـه كان يـربّي ملكـة جـمال العـالم.

ومنـذ أن اجتمـع بسـيادة النائـب أونيزمـو سانشـيز خـلال حملتـه الانتخابيـة الأولى، طلـب منـه نلسـون فارينـا أن يسـاعده في الحصـول عـلى بطاقـة هويـة مـزورة تجعلـه في منـأى عـن قبضـة القانـون. إلا أن سـيادة النائـب رفـض بطريقـة ودّيـة، ولكـن حاسـمة. بيـد أن نلسـون فارينـا لم يستسـلم، بـل ظـل ولسـنوات عديـدة، وكلـما أتيحـت لـه الفرصـة، يكـرّر طلبـه بطرائـق عـدة. أمـا هـذه المـرة، فقـد بقـي في أرجوحتـه، وقـد كتـب عليـه أن يتعفّـن حيـاً في عريـن القراصنـة الجهنمـي. وعندمـا سـمع التصفيـق الأخـير، رفـع رأسـه، وأخـذ يتطلـع مـن فـوق ألـواح السـياج، ورأى الجانـب الخلفـي مـن المهزلـة: الدعائـم التـي أُحـضرت للمبـاني، جـذوع الأشـجار، والمخادعـين المتواريـن الذيـن يدفعـون السـفينة فـوق المحيـط. ثـم بصـق بإحسـاس مفعـم بالحقـد والاحتقـار.

وبعـد أن ألقـى كلمتـه، طفـق سـيادة النائـب كدأبـه يجـوب شـوارع القريـة وسـط أنغـام الموسـيقى والأسـهم الناريـة، وقـد تحلّـق حولـه سـكان القريـة، الذيـن راحـوا يبثـون لـه أوجاعهـم ومطالبهـم. وكان سـيادة النائـب يصغـي إليهـم باهتـمام وود شـديدين ولم يكـن يتـورع عـن مواسـاة كلّ فـرد منهـم عـلى حـدة، دون أن يقـدم لأي منهـم أي خدمـات هامـة حقيقيـة جديـرة بالذكـر. حتـى اسـتطاعت امـرأة تقـف عـلى سـطح أحـد المنـازل مـع أطفالهـا السـتة الصغـار مـن أن تُسـمعه صوتهـا وسـط الضجيـج وأصـوات الأسـهم الناريـة.

- إني لا أطلـب الكثـير، يـا سـيادة النائـب، حـمار واحـد فقـط لأتمكـن مـن سـحب المـاء مـن بـئر الرجـل المشـنوق .

لاحظ سيادة النائب الأطفال النحاف الستة وسألها: ماذا حدث لزوجك؟

أجابت المرأة بأدب:

- ذهب يبحث عن الثروة في جزيرة أروبا، وعثر على امرأة أجنبية، من اللاتي يضعن الماس في أسنانهن .

انفجر الجمع في الضحك وقرّر سيادة النائب:

حسناً ستحصلين على الحمار المنشود!

وفي غمضة عين أحضر أحد مساعديه حماراً مزوداً بسرج جيد إلى بيت المرأة، وقد دُوِّن على كفله شعار من شعارات الحملة الانتخابية بطلاء لا يمكن إزالته لكي لا ينسى أحد أبداً أنه هدية من سيادة النائب.

وعلى امتداد الشارع القصير، قام ببعض الأعمال الصغيرة الأخرى، بل وحتى قدم ملعقة دواء للرجل المريض الذي أمر بإخراج سريره ووضعه عند باب بيته كي يتمكن من رؤية سيادة النائب عندما يمرّ، ومن خلال ألواح السياج، رأى نلسون فارينا وهو مستلق في أرجوحته، وقد بدا شاحباً وكئيباً، لكن ومع ذلك، حيّاه سيادة النائب دون أن يبدي له أية مشاعر بالمودّة.

مرحباً، كيف حالك؟

التفت نلسون فارينا من فوق أرجوحته ورمقه بنظرته المفعمة بالكراهية والغّل.

أنا، كما تعرف!

خرجت ابنته إلى السلاملك عندما سمعت التحية.

كانت ترتدي جلبابا هندياً رخيصاً، وكانت تزّين رأسها فيونكات ملوّنة، وكانت قد دهنت وجهها بكريمات لتقيه من أشعة الشمس. إلا أنه، حتى في وضعها السيئ ذاك، يستطيع المرء أن يتصور أنه لا توجد امرأة أخرى بجمالها في الكون. وقف سيادة النائب منقطع الأنفاس وقال بدهشة:

- يا إلهي الرحيم. يفعل الله أمورا غريبة بحق .

في تلك الليلة، جعل نلسون فارينا ابنته ترتدي أجمل ثيابها، وبعث بها إلى سيادة النائب، وطلب منها الحارسان المسلحان بالبنادق اللذان كانا يترنحان من شدة القيظ في البيت المستعار، أن تنتظر على الكرسي الوحيد في الردهة، حيث كان سيادة النائب يعقد في الغرفة المجاورة اجتماعاً مع أناس على قدر من الأهمية في روزال دل فالي، الذين كان قد جمعهم لينشد على مسامعهم الحقائق التي لم يكن قد ذكرها في خطابه، والذين كانوا يشبهون إلى درجة كبيرة جميع من كان يلتقي بهم في البلدات الصحراوية كلها. وكان قد بدأ يعتري سيادة النائب الملل ويشعر بالتعب من تلك الجلسات الليلية التي لم تكن تتوقف. كان قميصه مبللاً بحساء العرق، وكان يحاول أن يجففه على جسده من تيار الصهد المتصاعد من المروحة الكهربائية التي كانت تصدر طنيناً كطنين ذبابة الفرس في وسط

الجحيـم الـذي يغمـر الغرفـة.

- بالطبـع لا نسـتطيع أن نـأكل طيـوراً ورقيـة، إنكـم تعرفـون، وأنـا أعـرف أن اليـوم الـذي سـتنمو فيـه الأشـجار والأزهـار في كومـة روث الخـراف هـذه، وفي اليـوم الـذي سـيحل السـمك الذهبـي محـل الديـدان في بـرك المـاء، عندهـا، لـن يعـود لكـم، ولـن يعـود لي شيء هنـا، هـل تفهمـون مـا أقولـه لكـم؟

صمـت تـام. وفيـما كان سـيادة النائـب يتكلـم، مـزّق صفحـة مـن التقويـم، وشـكّل منهـا بيديـه أوريجامـي لفراشـة ورقيـة، ثـم ألقاهـا نحـو تيـار الهـواء المنبعـث مـن المروحـة، فراحـت الفراشـة تتطايـر حـول الغرفـة، ثـم خرجـت وانسـلت عـبر شـق البـاب المـوارب. وتابـع سـيادة النائـب كلامـه، بعـد أن تمالـك نفسـه، يسـاعده في ذلـك المـوت المتواطـئ معـه.

- لذلـك، لا يتعـين عـليّ أن أكـرّر عـلى أسـماعكم مـا تعرفونـه جيـداً بـأن انتخـابي مـرة أخـرى هـو لمصلحتكـم أنتـم أكـثر مـما هـو لمصلحتـي أنـا، لأني سـئمت الميـاه الراكـدة وعـرق الهنـود، في الوقـت الـذي تكسـبون فيـه أنتـم، أيهـا النـاس، رزقكـم منـه .

رأت لـورا فارينـا الفراشـة الورقيـة وهـي تسـبح طائـرة مـن بـاب الغرفـة. رأتهـا فقـط لأن الحارسـين في البهـو كانـا يغطـان في النـوم وهـما جالسـين عـلى الـدرج، يعانـق كل منهـما بندقيتـه. وبعـد أن دارت عـدة دورات، انفتحـت الفراشـة المثنيـة بكاملهـا، وارتطمـت بالحائـط، والتصقـت بـه. حاولـت لـورا فارينـا أن تقتلعهـا بأظافرهـا. إلا أن أحـد الحارسـين، الـذي أفـاق عـلى صـوت تصفيـق منبعـث مـن الغرفـة المجـاورة، لاحـظ محاولتهـا العقيمـة. وقـال في نعاسـه:

- لا يمكنك اقتلاعها، إنها مرسومة على الحائط .

فعـادت لـورا فارينـا وجلسـت عندمـا بـدأ الرجـال يخرجـون مـن الاجتـماع. وقـف سـيادة النائـب عنـد مدخـل الغرفـة ويـده عـلى المـزلاج. ولم يلحـظ لـورا فارينـا إلا عندمـا صـارت الردهـة خاليـة مـن كل حـي.

ماذا تفعلين هنا؟

لقد أرسلني أبي .

فهـم سـيادة النائـب. حـدّق في الحارسـين النائمـين، ثـم تمعّـن في لـورا فارينـا، التـي كان جمالهـا الفائـق يفـوق ألمـه، وهنـا عـرف أن المـوت هـو الـذي اتخـذ قـراره نيابـة عنـه.

ادخلي

وقفـت لـورا فارينـا والدهشـة تعتريهـا عنـد مدخـل الغرفـة: كانـت آلاف مـن الأوراق النقديـة تتطايـر في الهـواء، تخفـق كالفراشـات. لكـن سـيادة النائـب أطفـأ المروحـة، فتوقفـت عـن السـباحة في الهـواء وأخـذت تتهـاوى وتتسـاقط فـوق قطـع الأثـاث في الغرفـة.

كما ترين، حتى القذارة تستطيع الطيران .

رجل طاعن بأجنحة عملاقة

كانـوا قـد قتلـوا الكثـير جـداً مـن السرطانـات داخـل البيـت بعـد اليـوم الثالـث للمطـر مـما اضطـر بيلايـو أن يعـبر سـاحته الملوثـة بالطمـي ليرميهـا في البحـر، ذلـك لأن المولـودة الجديـدة قـد أصابتهـا الحمـى طـوال الليـل واعتقـدوا أن ذلـك بسـبب رائحـة النتانـة.

الكـون يشـعر بـالأسى منـذ الثلاثـاء. التحـم البحـر بالسـماء وصـارا قطعـة واحـدة مـن الرمـاد ورمـال الشـاطئ التـي تلمـع في ليـالي مـارس مثـل ضـوء مشـتت، وقـد غـدت خليطـا مـن الطمـي والأصـداف. خفـت الضـوء بشـدة في وقـت الظهـيرة حتـى أن بيلايـو عندمـا عـاد إلى داره بعـد أن رمـى السرطانـات، كان مـن الصعـب عليـه أن يـرى ذلـك الـذي يتحـرك ويـئن في آخـر السـاحة. توجّـب عليـه أن يقـترب أكـثر لـيرى أنـه رجـل عجـوز، عجـوز جـداً، منكـب عـلى وجهـه في الوحـل، وهـو بالرغـم مـن كل الجهـود المضنيـة التـي يبذلهـا، لا يسـتطيع النهـوض، وذلـك بسـبب جناحـين هائلـين كانـا يعيقانـه.

شـعر بالرعـب ازاء هـذا الكابـوس فهـرع ليـأتي بـ أليسـندا زوجتـه، التـي تضـع الكـمادات عـلى الطفلـة المريضـة، وأخذهـا إلى آخـر السـاحة. نظـرا إلى الجسـد الملقـى بذهـول أخـرس. كان يرتـدى خـرق جامعـي القمامـة. لم تكـن هنـاك سـوى بضعـة شـعيرات عـلى صلعتـه وبضعـة اسـنان في فمـه، وحالتـه المثـيرة للشـفقة إلى حـد كبـير محـت أي احسـاس بالمهابـة كان مـن الممكـن أن يحملـه. جناحـاه الصقريـان الضخـمان، الوسـخان والنصـف منتوفـان، عالقـان أبـداً في الطمـي. كان بيلايـو و أليسـندا قـد تأمـلاه مليـا وعـن قـرب حتـى تغلبـا عـلى ذهولهـما فوجـداه في النهايـة مستأنسـاً. ثـم تجـرأا للـكلام معـه وأجابهـما بصـوت قـوي غـير مفهـوم لبحـار. هكـذا تجـاوزا غرابـة الجناحـين واسـتخلصا بـذكاء أنـه قـد قـذف بنفسـه مـن فـوق سـفينة أجنبيـة غارقـة بفعـل عاصفـة هوجـاء. ولذلـك اسـتدعيا جارتهـما، التـي كانـت تعـرف كل شيء عـن الحيـاة والمـوت، لـتراه. كل مـا كانـت تحتـاج إليـه هـي نظـرة واحـدة لتبـين لهـما خطأهـما.

قالت لهما:

- إنـه مـلاك. لابـد أنـه قـد جـاء مـن أجـل الطفلـة، لكـن المسـكين طاعـن في السـن جـداً مـما جعـل المطـر يطيـح بـه.

في اليـوم التـالي عـرف الجميـع أن مـلاكاً بلحمـه و دمـه قـد وقـع أسـيراً في منـزل بيلايـو . وبفضـل الـرأي الحكيـم الـذي طرحتـه الجـارة، التـي كانـت تـرى أن الملائكـة في هـذا الزمـان لاجئـون انقـذوا مـن مؤامـرة روحيـة، لم تطاوعهـم قلوبهـم عـلى ضربـه بالهـراوات حتـى المـوت. كان بيلايـو يراقبـه طيلـة وقـت القيلولـة مـن نافـذة المطبـخ، متسـلحاً بهراوتـه البوليسـية، وقبـل أن يـأوي إلى فراشـه أخرجـه مـن الطمـي وحـشره في القـن مـع الدجاجـات. وعنـد منتصـف الليـل، عندمـا توقـف المطـر، كان بيلايـو و أليسـندالايزالان يقتـلان السرطانـات. بعـد ذلـك بوقـت قصـير

أفاقت الطفلة من الحمى وأصبحت عندها رغبة في تناول الطعام. فشعرا بشهامة دفعتهما إلى أن يقررا أن يضعا الملاك على طوف مع ماء عذب وزاداً لثلاثة أيام ثم يتركانه لحال سبيله في أعالي البحار. لكنهما حين ذهبا إلى الساحة مع ظهور أول خيوط الفجر، شاهدا أن الجيران كلهم هناك أمام قن الدجاج ويتسلون بالملاك، ومن دونما وازع، يرمونه عبر الفتحات بمختلف الأشياء ليأكلها كأنه لم يكن كائناً سماوياً بل مجرد حيوان سيرك.

وصل الأب جونزاكا قبل السابعة، بعد أن شعر بالهلع ازاء الأخبار العجيبة. خلال ذلك الوقت كان قد وصل متفرجون أقل طيشاً من أولئك الذين جاؤوا مع الفجر وكانوا يقومون بكل انواع الحدوس التي تتعلق بمصير الأسير. وأبسطها فكرة أنه من الأنسب تعيينه عمدة للكون. آخرون من اصحاب الفكر الصارم شعروا أنه من الأجدى أن يرقى مرتبة جنرال بخمس نجوم من أجل كسب جميع الحروب. بعض الحالمين تأملوا أنه من الممكن أن يوضع للاستيلاد من أجل أن تنتشر في الأرض سلالة من البشر المجنحين الحكماء الذين من الممكن أن يتولوا مسؤولية الكون. لكن الأب قبل أن يكون كاهناً، كان يعمل في تقطيع الأخشاب. فراجع ثقافته الشفاهية بلحظة وطلب منهم فتح الباب كي يلقي نظرة فاحصة على ذلك الرجل المسكين الذي كان يبدو أشبه بدجاجة ضخمة عاجزة بين الدجاجات الرائعات. كان يضطجع في الزاوية يجفف جناحيه المفتوحين تحت ضوء الشمس بين قشور الفواكه وبقايا طعام الإفطار التي رماها عليه من جاؤوه فجراً. وعندما دخل الأب جونزاكا القن وقال له صباح الخير باللاتينية. وشعر بالغربة إزاء وقاحة العالم فلم يستطع الملاك إلا أن يرفع عينيه الأثريتين ويتمتم بشيء ما بلغته الخاصة عندما لم يفهم لغة الرب ولم يعرف كيف يحيي كهنته صار لدى كاهن الإبرشية شك بأن هذا دجال ولا ريب. وعندما اقترب منه لاحظ أنه اقرب إلى هيئة البشر؛ فلديه رائحة مشردين لا تطاق، الجانب الخلفي من جناحيه قد تغطى بالطفيليات كما أن الريشات الكبيرة قد عبثت بها الريح، وليس ثمة شيء يمكن أن يحيله إلى هيبة و زهو الملائكة. ثم خرج من قن الدجاج وبموعظة مختصرة حذر من المتطفلين ومن خطر كونه مخلصاً. وذكرهم أن الشيطان كانت له تلك العادة السيئة في استعمال خدع الكرنفالات من أجل إيهام المغفلين. وكانت حجته في هذا أنه إذا كانت الأجنحة هي العنصر الأساسي في الإقرار بالاختلاف بين الصقر والطائرة، فهي اقل من ذلك أهمية لدى التعرف على الملائكة. لكنه رغم ذلك قد وعد بأن يكتب رسالة إلى اسقفه كي يكتب الأخير بدوره رسالة إلى كبير أساقفته الذي بدوره سيكتب إلى الحبر الأعظم لغرض الحصول على الحكم الأخير من أعلى القيادات.

لقد وقعت حكمته على قلوب عقيمة. وانتشرت أخبار الملاك الأسير بسرعة هائلة حتى أن الساحة قد امتلأت بعد سويعات بجلبة تشبه جلبة السوق وتحتم عليهم أن يطلبوا النجدة من قوات يحملون حراب مشرعة لتفريق جمهور الرعاع الذين أوشكوا أن يطيحوا

بالبيت. وكان ظهر أليسندا قد انقصم من تنظيف نفايات ذلك السوق، حتى تولدت لديها فكرة وضع سياج للساحة وطلب خمس سنتات رسم دخول لمشاهدة الملاك.

وجاء حب الاستطلاع من مكان بعيد. إذ وصل كرنفال من الرحالة ومعهم بهلوان طائر كان يطن فوق الجمهور المزدحم مرة إثر مرة من دون أن ينتبه إليه أحد لأن جناحيه لم يكونا لملاك بل، للدقة، لخفاش نجمي. وحضر أغلب التعساء من المرضى الباحثين عن الشفاء؛ إمرأة مسكينة تحصي دقات قلبها وقد نفدت لديها الأرقام ؛ رجل برتغالي لم يستطع النوم لأن ضوضاء النجوم تقلق مضجعه؛ أحد السائرين نياما نهض في الليل وألغى كل ما عمله عندما كان في اليقظة، والكثير ممن لديهم مصائب أقل جدية. في خضم تلك الفوضى التي جاءت من السفينة الغارقة، كان بيلايو و أليسندا سعيدان ومرهقان، لأنهما في أقل من أسبوع امتلأت غرفهما بالأموال ولا يزال هنالك طابور جد طويل للحجاج ينتظر دوره للدخول يصل مداه إلى ما بعد الأفق.

كان الملاك هو الوحيد الذي لم يشترك في مشهده. ومن قضى الوقت محاولاً أن يجد بعض الراحة في عشه المستعار، مربكاً من سخونة جهنم مصابيح الزيت وشموع السر المقدس التي وضعت بمحاذاة أسلاك القن. حاولوا في البداية أن يجعلوه يأكل كرات العث، الطعام الذي يوصف للملائكة تبعاً إلى توصية الجارة الحكيمة. لكنه رفضها، كما رفض وجبات الطعام البابوية التي جلبها له المرضى، ولم يعرف أحد أن رفضه قد جاء بسبب أنه كان ملاكاً أو بسبب أنه رجل طاعن في السن. ولم يأكل في النهاية غير الباذنجان المهروس. كانت ميزته الخارقة للمألوف الوحيدة هي الصبر. خصوصاً في الأيام الأولى، عندما نقرته الدجاجات بحثاً عن الطفيليات المفضلة لديها والتي تتكاثر في جناحيه وكان المشلولون ينزعون عنه الريش ليضعوه على أعضائهم المصابة، وحتى أكثرهم عطفاً عليه كانوا يرجمونه بالأحجار محاولين إيقافه لينظروا إليه وهو قائما. والمرة الوحيدة التي نجحوا في جعله ينتصب واقفا عندما حرقوا جنبه بسيخ لوسم الثيران المخصية، لأنه كان جامداً لساعات طويلة حتى ظنوا أنه ميت. نهض مذعوراً زاعقاً بلغته السحرية تتساقط الدموع من عينيه ونفض جناحيه عدة مرات مما اثار عاصفة من غبار ذروق الدجاج ونوبة ذعر كأنها من عالم آخر. ورغم أن الكثيرين ظنوا أن رد الفعل هذا لم يأت من الغضب بل من الألم، صاروا حذرين في أن لا يزعجونه، لأنهم أدركوا أن سلبيته لم تتأت من انه يريد أن يستريح بل هو هدوء العاصفة. كان الأب جونزاكا يرد الجموع المندفعة بكلمات اقتبسها من الخادمة بينما كان في انتظار وصول الحكم النهائي بشأن طبيعة الأسير. ولكن بريد روما لم تبد عليه العجلة. فالوقت في معرفة إذا كان الاسير له سر، أو إن كانت لغته لها علاقة بالآرامية، وكم مرة يمكنه أن يثبت رأس الدبوس، أو فيما إذا كان مجرد نرويجي له أجنحة. هذه الرسائل الهزيلة لربما تستمر في أن تأتي وتذهب إلى نهاية الزمان لو لم تضع العناية الألهية نهاية للمصائب التي على رأس الكاهن.

وحدث في تلك الأيام، أن من بين كرنفالات الجذب، وصل المدينة عرض لرحالة ظهرت فيه المرأة التي تحوّلت إلى عنكبوت لأنها لم تطع والديها. كان الرسم الذي يدفع لرؤيتها ليس أقل مما يدفع لرؤية الملاك فحسب، بل سمح للناس أن يسألوها كل أنواع الأسئلة حول حالتها المزرية ويتفحصونها من كل جوانبها حتى لايشك أحد بحقيقة رعبها. كانت عبارة عن عنكبوت ضخم بحجم الخروف ولها رأس فتاة حزينة. وما كان يمزق القلب هو ليس شكلها الغريب بل الألم الصادق المنبعث من روايتها لتفاصيل حظها العاثر. فعلى الرغم من أنها كانت لاتزال طفلة تسللت من منزل والديها لتذهب للرقص، وأثناء عودتها عبر الغابات بعد أن قضت الليل بطوله ترقص من دون أن يسمحا لها أبوها بذلك، صعق رعد السماء وفلقها وعبر ذلك الانفلاق جاء صاعق برقي له رائحة الكبريت وحولها إلى عنكبوت. كان غذاؤها الوحيد هو من الكرات اللحمية التي يتصدق بها المحسنون ويدفعونها في فمها. مشهد مثل هذا، مليء بالحقيقة البشرية وبدرس مروع، كان على وشك أن يقضي على مشهد ملاك متعجرف نادراً ما كان يتلطف بالنظر إلى الناس. فضلاً عن ذلك ثمة بضعة معجزات أوعزت إلى الملاك توضح اختلاله العقلي، مثل الرجل الأعمى الذي لم يشفه بل زرع له ثلاثة أسنان جديدة، والمشلول الذي لم يتمكن من السير بل كاد يربح اليانصيب، والمجذوم الذي نبتت في تقرحاته زهور عباد الشمس. عزاء المعجزات هذا، الذي كان أشبه بالسخرية، كان قد حطم سمعة الملاك التي سحقت تماماً في النهاية مع مجيء المرأة التي تحولت إلى عنكبوت. وهكذا شفي الأب جونزاكا تماماً من أرقه وخلت ساحة دار بيلايو مثلما كانت خالية عندما أمطرت السماء لثلاثة أيام ودخلت السرطانات إلى غرف النوم.

لم يكن ثمة حاجة ماسة لإلقاء اللوم على صاحبي الدار. فقد بنيا بالمال الذي حصلا عليه منزلا بطابقين ذو شرفات وحدائق وشبكة عالية تمنع السرطانات من النزول داخل البيت عند الشتاء، ووضعا قضباناً حديدية تمنع الملائكة من الدخول. وأنشأ بيلايو مزرعة أرانب قرب المدينة وتخلى عن عمل وكيل مزرعة إلى الأبد، وابتاعت أليسندا أحذية من الساتان الفاخر بكعب عال والكثير من الثياب القزحية الحريرية، التي ترتديها اغلب النساء في يوم الأحد.

كان قن الدجاج هو الوحيد الذي لم ينتبهوا إليه. وإن كانوا يغسلونه بالكريولين وقطرات من الصمغ الراتينجي بين الحين والآخر. الا ان ذلك ليس توقيراً للملاك بل لإبعاد رائحة الروث التي لاتزال عالقة في كل مكان كالشبح وتحيل البيت الجديد إلى بيت قديم. وعندما تعلمت الطفلة المشي لأول مرة حرصا على أن لا تقترب من قن الدجاج. لكنهما فيما بعد أبعدا مخاوفهما وألفا الرائحة، وقبل أن يظهر السن الثاني لطفلتهما كانت قد ذهبت لتلعب قرب قن الدجاج حيث تداعى الجدار السلكي للقن. كان الملاك فاتراً معها مثلما كان مع باقي الكائنات، لكنه تحمل أبشع سلوك بريء بصبر كلب لا أوهام لديه. وأصيبا كلاهما

بجـدري الدجـاج. الطبيـب الـذي جـاء لمعالجـة الطفلـة لم يسـتطع مقاومـة إغـراء الاسـتماع إلى قلـب المـلاك، وسـمع صـوت صفـير في القلـب وكذلـك الكثـير مـن الأصـوات في كليتيـه حتـى بـدا للطبيـب أن مـن الاسـتحالة أن يكـون حيـا. الـشيء الأغـرب هـو منطـق جناحيـه. لقـد كانـا يبـدوان طبيعيـين عـلى ذلـك الجسـم البـشري حتـى أنـه اسـتغرب لمـاذا لا يملـك البـشر الآخـرون مثلهـما.

عندمـا عـادت الطفلـة إلى مدرسـتها كان قـد مـر بعـض الوقـت الـذي دمـرت فيـه الشـمس والأمطـار قـن الدجـاج. وظـل المـلاك يجرجـر نفسـه هنـا وهنـاك مثـل رجـل ضـال يلفـظ أنفاسـه الأخـيرة. كانـوا يطردونـه مـن غرفـة النـوم بالمكنسـة فيجدونـه قـد ذهـب إلى المطبـخ. حتـى ظهـر لهـم أنـه موجـود في عـدة أماكـن في اللحظـة نفسـها وظنـوا أنـه صـار أكـثر مـن واحـد، كأنـه يولـد مـن نفسـه آخريـن ينتـشرون داخـل البيـت، مـما جعـل أليسـندا السـاخطة والمشوشـة أن تـصرخ لاعنـة هـذه الحيـاة البائسـة التـي تضطرهـا للعيـش في جحيـم مـليء بالملائكـة. كان نـادراً مـا يـأكل وأمسـت عينـاه الأثريتـين مضببتـين مـما أدى بـه إلى أن يصطـدم بأحـد الأعمـدة.

كل مـا بقـي لـه هـي الإبـر المجـردة لآخـر ريشـات لـه. رمـى عليـه بيلايـو بطانيـة بـل لقـد تفضـل عليـه أيضـاً بالسـماح لـه بالرقـاد في السـقيفة ولاحظـوا عنـد ذاك أن حرارتـه قـد ارتفعـت في الليـل وبـدأ يخـرف بلسـان معـووج كعجـوز نرويجـي. وكانـت تلـك هـي مـن المـرات القليلـة التـي يشـعرون فيهـا بالخطـر، لاعتقادهـم أنـه سـوف يمـوت ولـن تسـتطيع حتـى جارتهـم الحكيمـة أن تنصحهـم بمـا يجـب أن يعملونـه بمـلاك ميـت.

ولكنـه لم يعـش طـوال الشـتاء فحسـب بـل بـدا أنـه تحسـن مـع الأيـام المشمسـة الأولى. وبقـي دون حـراك لعـدة أيـام في ابعـد زاويـة مـن السـاحة، حيـث لا أحـد يـراه، ونبتـت لـه بعـض الريشـات الكبـيرة الصلبـة، ريـش خيـال مقاتـه، هـي اشـبه بعجـز بائـس آخـر. ولكـن لابـد أنـه كان يعلـم سـبب تلـك التغـيرات، لأنـه كان حريصـاً جـداً عـلى أن لا يلاحظـه أحـد ، ولا أحـد يسـمع الأناشـيد البحريـة التـي كان يغنيهـا أحيانـاً تحـت النجـوم. وفي احـد الأيـام عندمـا كانـت أليسـندا تقطـع البصـل للغـداء دخلـت إلى المطبـخ ريـح بـدت كأنهـا آتيـة مـن أعـالي البحـار. ثـم أطلـت من النافـذة ورأت المـلاك وهـو في أولى محاولاتـه للطـيران. كانـت غـير متقنـة لدرجـة أن أظافـره قـد فتحـت حفـرة في البقعـة الخـضراء وكان عـلى وشـك أن يطيـح بالسـقيفة برفرفتـه الخرقاءالمنفلتـة في النـور والتـي لم توفـق في قبـض الهـواء. ولكنـه تمكـن مـن تحقيـق بعـض الارتفـاع. وأطلقـت أليسـندا تنهيـدة راحـة، مـن أجـل نفسـها ومـن أجلـه، عندمـا راقبتـه يمـر مـن فـوق أخـر المنـازل، رافعـاً نفسـه عـلى نحـو مـا برفرفـة مجازفـة كأنهـا لنـسر عجـوز. ظلـت تراقبـه وهـي لاتـزال تقطـع البصـل واسـتمرت تراقبـه حتـى حـين لم يعـد بإمكانهـا رؤيتـه، لأنـه عنـد ذاك لم يعـد يمثـل أي قلـق لحياتهـا بـل مجـرد نقطـة خياليـة في أفـق البحـر.

قصص من إدجار آلان بو

***

من نظرة عين

جرى العرف على أن ينظر الناس باستعلاء إلى ما يعرف بالحب من أول نظرة. بيد أن الذي يعمل فكره في الأمر قليلاً, ولا سيما أصحاب الذوق الرفيع والحس المرهف, لا يمكن يتطرق إليه الشك أبداً في حقيقة هذا النوع من الحب. دعك من النظريات الحديثة, التي تسمى (الجاذبية الشخصية أو المغناطيسية الجمالية) أظهرت أن أسمى العواطف البشرية وأصدقها هي تلك التي تنشأ في القلب كما لو أنها تنشأ بفعل شرارة كهربائية أو تفاعل كيميائي. وبالأحرى، إن أقوى الروابط الروحية وأطولها عمرا هي التي تنشأ بفعل نظرة خاطفة يتبادلها المحب مع محبوبه. وهذه القصة, التي سأرويها الآن, ستضيف دليلاً جديداً على صحة ما أقول. هذه القصة تستدعي أن أروي الكثير من التفاصيل في الواقع.

لم أزل بعد شاباً لم أتجاوز سنتي الثانية والعشرين, وأنا, في الوقت الحاضر, أدعى باسم شائع جداً هو (سيمبسون). أقول, في الوقت الحاضر, ذلك لأنني اكتسبت هذا الاسم في العام الماضي عن طريق المحاكم في سبيل أن أصبح الوريث الشرعي لنسيب ثري يدعى (أدولف سيمبسون). وقد اشترط هذا الأدولف قبل وفاته أن أتخذ اسم عائلته اسماً شخصياً لي بينما في الواقع كان اسمي الحقيقي هو نابليون بونابرت!

اتخذت اسم (سيمبسون) على مضض وامتعاض, ذلك أنني كنت في الحقيقة أفتخر بالانتساب إلى اسم كبير هو (فرواسار), وعن طريقه أتصل بنسب مؤلف (الحوادث) خالد الذكر. وبمناسبة ذكر الأسماء أحب أن أتكلم عن بعض المصادفات الغريبة التي جعلت كثيراً من أسماء قاربي وأجدادي متشابهة إلى هذه الدرجة. فوالدي من أصل باريسي, وكان يعرف باسم السيد فرواسار, وزوجته، أمي، التي تزوجها طفلة لم تتجاوز الخامسة عشرة, كانت تدعى الآنسة كرواسار, وهي الابنة الكبرى للمقاول الكبير المعروف باسم كرواسار الذي تزوج بدوره مراهقة صغيرة السنّ في عامها السادس عشر هي ابنة السيد فيكتور فواسار. وهذا السيد فواسار كان هو أيضاً قد تزوج فتاة صغيرة السن وذات اسم مشابه تدعى الآنسة مواسار, وأم هذه الأخيرة تزوجت كذلك صغيرة, أي في سنها الرابعة عشرة, وأعني بها السيدة مواسار, ومسألة الزواج من فتيات صغيرات السن لم تكن خارجة عن الأعراف في فرنسا. المهم في الأمر أن مواسار وفواسار وكرواسار وفرواسار كانوا جميعاً ينحدرون من ذات النسب. أما أنا, فقد ذكرت أن اسمي أصبح سيمبسون, ولكنني لم أذكر أنني تقبلت هذا الاسم على كراهة مني, وأنني فكرت كثيراً برفض الإرث ما دام مرتبطاً بهذا الشرط الشاذ.

أما إذا سألتني عن المزايا الشخصية, فأعتقد أنني أملك الكثير منها. أنا ذو تكوين جسدي لا بأس به, ولي وجه ذو تقاطيع حسنة, يتفق الكثيرون, كما أعتقد, على أنه وجه وسيم. وأما قامتي فهي خمس أقدام وأحد عشر بوسة, شعري أسود مجعَّد, وأنفي متسق

غير معقوف, وعيناي كبيرتان رماديتا اللون, ومع أنهما ضعيفتا النظر, إلى درجة مخجلة, فإن أحداً لا يمكنه, من ناحية تأثيرهما الشكلي, أن يأخذ عليهما مأخذاً. على أن هذا الضعف في نظري قد سبب لي بحد ذاته حرجا بالغاً, الأمر الذي رماني في طريق البحث عن أنواع من العلاج فوق الخيال بقصد تقويمه, باستثناء العوينات, فأنا لا أعرف شيئاً؛ يشوه منظر شابٍّ, ويطبعه بطابع الوقار الزائف, ويجعله يبدو أكبر من سنه أكثر من ارتدائه العيونات. فضلا عن ذلك أن للنظارة عيب آخر هو أنها تسِمُ من يستعملها بالتكلّف المكشوف, وهذه من الصفات التي كنت أتجنبها منذ صغري.

أكتفي بهذا القدر من التفصيل في أكثر مزاياي الشخصية التي ليست لها أهمية بالغة, لكن يجب أن أضيف أنني ذو مزاج متقلب سريع الانفعال, صريح ومندفع لأبعد مدى, وأنظر إلى الأمور بحماس متقد. هذا بالإضافة إلى ميزة أخرى، في عمري كله، كنت ولا أزال شغوفا بالنساء لدرجة الجنون!

كانت هذه هي إحدى ليالي الشتاء الماضي وكنت أجالس أحد أصدقائي, واسمه (تالبوت), في مقصورة بدار الأوبرا. كان المكان يحفل بالجماهير العريضة من أصحاب الذوق الرفيع, إذ إن إدارة الدار قامت بدعاية ضخمة ترويجاً لتلك الحفلة؛ وكنا محظوظين, أنا وصديقي, إذ وصلنا في وقت مبكر نسبيا وتمكنا من أن نشق طريقنا بين القوم وأن نحتل المقعدين اللذين كنا حجزناهما من قبل.

كان صديقي مولعا بفن الموسيقى عموما, لهذا بقي حوالي الساعتين مجذوب اللب، مسمّر العينين في المسرح. بينما رحت أتسلى بتأمل النظارة الذين كانوا, في غالبيتهم, من صفوة سكان البلدة, وبعد أن أشبعت فضولي وانتهيت من التفرج عليهم اتجهت بباصرتيّ إلى المسرح, لكن فجأة لفتت نظري, وأنا أستدير بعينيّ إلى المسرح, امرأة تجلس في إحدى المقصورات التي لم أمر بعيني عليها من قبل.

والحق اقول أنه لو طال عمري ألف عام لما تمكنت من طرح المشاعر التي انتابتني حين وقع ناظري تلك المرأة. كانت أروع وأجمل أنثى يمكن أن تراها في عمرك كله. كان وجهها منصباً بكليته نحو المسرح حتى أنني, لبضع دقائق, لم أتمكن من أن أراه بكليته, غير أن القامة والشكل كانا شيئين من السماء؛ أقول من السماء إذ لا أجد كلمة أخرى يمكنها أن تعبّر عن هذا الجمال الرباني البديع, وحتى هذه الكلمة تبدو كأنها تعجز عما أريد وصفه والتعبير عنه.

لم تكن لدي القدرة على الصمود أمام سحر الأنثى، سحر الرشاقة والأناقة في المرأة. وهنا في تلك المقصورة كان الجمال ماثلاً أمامي, الجمال المثالي الذي يجسد أكثر خيالاتي جموحا. كانت القامة, التي استطعت رؤيتها بكامل تناسقها في المقصورة, تبدو أطول من المتوسط قليلاً بحيث تقرب من الكمال. أما منحنياتها وأعطافها وثناياها فكانت ذات روعة

مطلقة. أما ذلك الرأس الملائكي المقدس, الذي لم يكن يبدو لي منه سوى مؤخرته, ينافس أجمل الهامات التي عبرت لنا عنها روح الأساطيرالإغريقية, وكان محجبا، والأحرى أن يقال كان مكشوفاً، بقبعة أنيقة أعادت إلى مخيلتي إحدى لوحات عوليوس, والذراع اليمنى ترتخي من حافة المقصورة برشاقة وأريحية أثارت جنوني, والقسم الأعلى منها مغطى بذلك النوع من الأكمام الفضفاضة المشقوقة من الأجناب, ينساب بمنتهى النعومة تحت كوعها, وتحته كان كم آخر من النسيج الناعم المحبوك حبكاً شديد الدقة, ينتهي بشريط ملون رفيع يمر فوق ظاهر الكف بحيث تبدو الأنامل الدقيقة فقط, وفي إحدى الأصابع يلمع خاتم ماسي تأكد لي على الفور أنه ذو من أثمن نوع. وكان المعصم الجميل مطوقاً بسوار مطعَّم بكثير من الجواهر الفاخرة, وكل هذا يشير بوضوح ساطع إلى ثراء فاحش وعلى براعة في التأنُّق والذوق الفريد.

شرعت أتأمل هذا المشهد الملكي وقد تسمرت في مكاني فترة لا تقل عن نصف الساعة كما لو أنني استحلت فجأة إلى تمثال من الصوان, وفي هذه الأثناء انتابني شعور زاعق, شعور بكل ما في الجوف من عمق, بصواب كل ما قيل أو أكثر حول (الحب من أول نظرة). كانت المشاعر التي انتابتني شيئاً لم أجربه في حياتي من قبل, حتى عندما أكون في حضرة أجمل النساء وأكثرهن بهاء. إن شيئاً من تجاوب الأرواح يحدث هنا, شيئاً لا يمكن وصفه بغير انجذاب الجبلة المغناطيسية, كان يشدّ ليس عيني فقط, بل روحي ذاتها وجميع قواي الفكرية ومؤخرة وعيي إلى ذلك الكيان المحبَّب أمامي. رأيت، لا بل شعرت، أنني واقع في الحب حتى النخاع. بشكل عميق, جنوني, بطريقة لا تُرد أبداً, حتى قبل أن أرى وجه الشخص مصدر جميع هذه المشاعر.

كان هيامي شديداً, يلتهم روحي, إلى درجة أنني ظننت أنه لو تمت لي رؤية ملامح الوجه, وبدا لي أنه وجه اعتيادي ليس على درجة من الجمال, لما كان أصاب ذلك الهيام أي نقص أو اعتوره أي فتور. إن طبيعة الحب, عندما يكون حباً حقيقياً وحيداً خالصاً، الحب من النظرة الأولى، غير معتادا أو معروفا من قبل, حتى أنها لا تتوقف كثيراً في الواقع على الحالات الخارجية التي تبدو كأنها تتحكم بها وتسيطر عليها.

وبينما كنت مسلوب اللب والفؤاد بهذه الرؤية الحبيبة ارتفعت بين الحضور جلبة مفاجئة جعلت المرأة تميل برأسها قليلاً باتجاهي, فتمكّنت من رؤية ملامح الوجه جانبياً. كان جمال هذه التقاطيع يفوق أقصى قدراتي على الخيال, لكن كان هنالك شيء ما في تلك الملامح أصابني بنوع من خيبة الأمل يصعب تحديد أسبابها. أقول (خيبة أمل) مع أن هذه الكلمة ليست مناسبة تماماً. فترت عواطفي بسرعة وهمدت, كأنما اكتفت بدل التجاوب أن تحظى بشيء من الاطمئنان العاطفي الثابت. لعل هذا الشعور نشأ بسبب سمات الوجه المتشح بشيء من وقار الأمومة, غير أنني أيقنت فيما يشبه الإشراق المباغت أن هذا الشعور

لا يمكن أن ينشأ بالكامل لهذا السبب وحده.

كان هناك شيء آخر لم أتمكن من سبر أغوار كنهه، هو صنف من التعبير في الوجه وشكل السلوك أدخل في روعي شيئاً من القلق وفي الوقت نفسه أثار شغفي إلى أبعد مدى. في الحقيقة, كانت أمر تظللني تلك الحالة السحرية للوجدان التي تدفع بأي شاب إلى الإقدام على أي عمل مغامر وتقبُّل عواقب هذا العمل مهما بان جنونيا.

لو كانت تلك السيدة وحدها لمّا ترددت في أن أدخل مقصورتها وأتكلم معها مهما تكن النتائج, لكن والحمد لله، كان برفقتها شخصان: رجل, وامرأة أخرى بديعة الحسن تبدو أصغر منها بعدة أعوام.

من ثم رحت أفكر بيني وبين نفسي في أي وسيلة تمكنني من التعرف إلى السيدة الكبيرة؛ أو على الأقل تمكنني, إلى حين, من أن أراها بوضوح أكثر. لولا شدة الزحام لحاولت أن أنقل مكاني إلى موقع آخر بجوارها, كما أن قواعد الذوق العام, التي نشأت مؤخراً, جعلت استعمال نظارات الأوبرا أمراً مستهجناً هذا على افتراض أنه كان معي نظارات مُقرِّبة, لكن على أية حال, لم يكن ذلك متوفراً لدي, ولهذا سقطت في هوة القنوط.

بعد دقائق فكرت أن أستعين بصديقي, قلت له:

- عزيزي تالبوت, أعرني نظارتك التي تستعملها للمسرح, بالتأكيد معك واحدة.

- نظارة أوبرا؟ كلا, وما الذي يجعلك تعتقد أنني أستعمل نظارة في دار الأوبرا؟ .

ثم أنه استدار نحو خشبة المسرح، فهتفت:

- ولكن يا تالبوت.. قلت مكملاً حديثي بعد أن جذبته من كمه, ..استمع إليّ, هل ترى تلك المقصورة؟ هناك, هل رأيت في حياتك أجمل من تلك المرأة؟

- إنها رائعة الجمال دون شك.

- تُرى من تكون؟

- يا إلهي!هل تمزح؟! ألا تعرف من هي حقا؟ إن لم تعرفها فهذا يعني أنك لست من الوسط الاجتماعي يا بني. إنها السيدة (لالاند) التي يعرفها الجميع، إنها مثال الجمال في أبهى صوره الآن، ومحور اهتمام البلدة كلها, وهي أرملة ثرية جداً أيضاً، وقد وصل خطيبها من باريس مؤخراً.

سألته في لهفة:

- هل تعرفها؟

أجابني بعد تفكير وجيز:

- نعم, لقد سبق لي وتشرفت بمعرفتها. لكن هذا كان..

قاطعته:

- هل تقدمني إليها؟

رد ببساطة:

- بالتأكيد, بمنتهى السرور, متى ترغب في ذلك؟

- غداً, الساعة الواحدة. نلتقي سويا ولنر.

- حسناً, والآن اخرس قليلا إن استطعت.

كنت مرغماً بالنسبة إلى كتم أنفاسي, عليَّ الأخذ بنصيحة (تالبوت), إذ إنه أولى أذناً من طين وأخرى من عجين لكل التعليقات أو الأسئلة التي ألقيتها عليه بعد ذلك, وانصب بكامل تركيزه بقية السهرة يراقب ما يجري على خشبة المسرح.

في أثناء ذلك بقيت عيناي عالقتين بالسيدة (لالاند), وبعد وقت قصير حظيت بلمحة فزت معها برؤية وجهها كله. كانت رائعة الجمال؛ لم يكن هناك مجال للريب في ذلك, إذ إن قلبي قد سبق وأكده لي, غير أن ذلك الشيء الذي استعصى عليَّ فهمه ظلّ يكدرني وينغص عليّ مشاعري. وأخيراً لم أجد مفراً من أن أستخلص, بيني وبين نفسي, أن مشاعري قد أصابها بلا ريب شيء من الحزن والكآبة, أو بالأحرى شيء من التعب الأسيان, ينزع عن معالم الحُسن والشباب تألقها ويضفي عليها شيئاً من رونق المهابة والشفقة. هكذا أضفت تلك الأفكار على الموقف اهتماماً وقلقاً لا يوصف بالنسبة إلى ما اتّصف به من طبيعة حماس رومانتيكية.

في الإثناء حيث كنت ألتهم بعينيّ المنظر البديع الذي تملك كافة حواسي، شعرت أن السيدة أحست فجأة باهتمامي بها. ومع هذا لم أتمكن من أن أغض طرفي ولو لبرهة, إذ كنت مأخوذاً كلياً بها. وحين مالت بوجهها جانباً تمكنت أن أرى, مرة أخرى, الثنايا الخلفية لرأسها المدهش.

التفتت بوجهها نحوي تدريجاً كما لو أن دافعاً داخلياً قوياً أرغمها لتعرف إذا كنت لا أزال أنظر إليها, والتقت عيناها بعينيّ المحدّقتين, ولم يدم ذلك أكثر من لحظة أخفضت السيدة عينيها بعدها, وبدا لي كأنَّ احمراراً شديداً قد خضب وجنتيها. وكم كانت دهشتي بالغة, حين لم تكتف بالالتفات مرة أخرى نحوي, بل وأكثر من ذلك, حين تناولت من جيب حزامها نظارتين ورفعتهما, ثم ثبّتهما باتجاهي, وأخذت تحدق فيَّ طيلة دقائق باهتمام بالغ!

لو أن صاعقة ضربت الأرض بين قدميّ لما بلغت دهشتي ما بلغته آنذاك، نعم دهشتي, إذ لم يساورني أي انزعاج أو تكدير, هذ بالرغم من أن عملاً جريئاً كهذا لو قامت به أية امرأة, لكان يؤدي إلى انزعاج شديد دون شك, لكنها قامت بذلك العمل بكل روية وهدوء,

بـرودة ملكيـة واحتشـام نبيـل, بطريقـة تـدل عـلى تربيـة أرسـتقراطية وثبـات في النفـس؛ إنهـا, بالجملـة, لم تفسـح في المجـال, بالطريقـة التـي اتبعتهـا, لأي شـعور بالفظاظـة أو قلـة الـذوق, ولهـذا فـإن مشـاعري التهبـت مجـدداً بمزيـد مـن الإعجـاب والدهشـة.

لاحظـت أنهـا في المـرة الأولى, عندمـا رفعـت نظارتيهـا, اكتفـت بالنظـر إليّ نظـرة خاطفـة؛ لكنهـا فيـما كانـت تعيـد النظارتـين إلى مكانهـما رفعتهـما مجـدداً وبحركـة مفاجئـة وسريعـة إلى عينيهـا, وكأنمـا تداعـى إلى ذهنهـا خاطـر جديـد, وعندهـا ثبتتهـما عـليّ وأطالـت التحديـق فيّ طيلـة دقائـق..

طيلـة خمـس دقائـق في أقـل تقديـر، هـذه الحركـة, غـير المألوفـة في المسـارح الأميركيـة, انتبـاه الكثيريـن مـن الحضـور, وسـبّب حركـة مرتبكـة في القاعـة ألجمتنـي للحظـات, لكنهـا, عـلى مـا بـدا لي, لم تؤثـر في شيء عـلى تصرفـات السـيدة لالانـد التـي بعـد أن أشـبعت فضولهـا، إذا كانـت التسـمية ممكنـة، رفعـت نظارتيهـا وانصرفـت إلى مشـاهدة المـسرح بهـدوء, وبـدا لي جـزءا مـن وجههـا. وتابعـت مراقبتهـا دون كلـل رغـم أني أعـرف عـدم لياقـة تـصرّفي, ولم يطـل الوقـت حتـى أخـذ رأسـها يميـل بطيئـاً باتجاهـي, حتـى لم يعـد عنـدي شـك بـأن السـيدة, وهـي تتظاهـر بمتابعـة حركـة المـسرح, كانـت في الحقيقـة تراقبنـي باهتـمام. لا حاجـة بي إلى القـول كـم كان وقـع تـصرّف كهـذا, ومـن سـيدة شـديدة الجـمال, رائعـاً حتـى بالنسـبة لذهنـي سريـع الانفعـال.

بعـد أن مـضى عـلى تفحّصهـا لي مـدة لا تقـل عـن ربـع السـاعة, اسـتدارت السـيدة, مصـدر هيامـي الحـراق إلى الرجـل الجالـس بجانبهـا وأخـذت تبادلـه بعـض الكلـمات, التـي لم أشـك في أنهـا كانـت تتعلـق بي, خصوصـاً بعـد أن راح كلا الشـخصين يرمقـاني بنظراتهـما بـين الفينـة والفينـة. وفـور انتهائهـما مـن الحديـث اسـتدارت السـيدة لالانـد بوجههـا مـرة ثانيـة نحـو المـسرح, ولبضـع دقائـق ظهـرت وكأنهـا مأخـوذة بمـا يجـري عليـه. بعـد انتهـاء هـذه الفـترة, أصابنـي هيـاج حـاد كالحمـى حـين رأيتهـا تأخـذ نظارتيهـا مـرة ثانيـة وتتطلـع صـوبي بـكل جـرأة كـما فعلـت مـن قبـل, ودون أي اكـتراث لتذمـر الحضـور ودمدمتهـم, ثـم أخـذت تتفحصنـي بطريقـة واثقـة وبـكل دقـة ومهابـة الأمـر الـذي سرّني فـوق كل وصـف.

أوقعنـي هـذا التـصرف غـير العـادي في فـخ حمـى مـن التأثـر وفي أتـون مـن مشـاعر الهـوى. وبـدل أن يقلقنـي, ولـو قليـلاً, شـحن أعصـابي بكثـير مـن الجـرأة, في هـذه الدوامـة مـن الهيـام الجامـح, نسـيت كل شيء مـا عـدا حضـور تلـك المـرأة وروعـة الحـب الـذي غمـر كيـاني بكاملـه. ورحـت أترقـب الفرصـة, حتـى إذا مـا خيّـل إليَّ أن جميـع النـاس مسـتغرقون في الأوبـرا, وتمكنـت مـن أن التقـط نظـرات السـيدة لالانـد لبرهـة عابـرة, قمـت بانحنـاءة خفيفـة مـن رأسي لم أشـك, رغـم ضعفهـا, بأنهـا أثّـرت فيهـا عـلى هـذا النحـو.

تـضرج وجههـا بحمـرة الخجـل, ثـم حولـت عينيهـا عنـي, وأخـذت تجيـل النظـر فيـما حولهـا بحـذر وهـدوء لتعـرف, عـلى مـا يظهـر, مـا إذا كان تـصرفي المغامـر قـد أثـار انتبـاه شـخص مـا,

ثم مالت ناحية الرجل الذي يجالسها، أما أنا فشعرت بفداحة الفعل السيء الذي اقترفته, وكان أول ما خطر لي هو أن يُفتضح أمرنا بسرعة. وطافت أمام ناظريّ, فجأة, صورة فوهات المسدسات ترتفع في صباح الغد الباكر. لكن سرعان ما تبدَّدت مخاوفي عندما رأيت السيدة تمد يدها إلى مرافقها برنامج الأوبرا دون أن تتكلم. وبإمكان القارئ أن يتصور نوعاً ما شدّة دهشتي، دهشتي الكبيرة في الواقع، حيرة قلبي وروحي, حين تطلّعت السيدة مجدداً نحوي بعد أن مرت برهة قصيرة, وسمحت لعينيها البراقتين أن تلتقيا يعينيّ, ثم حرّكت، وهي تبتسم ابتسامة خفيفة تكشف عن خيط برّاق من أسنان لؤلؤية، حركت رأسها بانحناءتين خفيفتين, لا شك أنهما دليل على الموافقة والحبور.

لا معنى لوصف نشوتي, لا بل بهجة قلبي التي لا حدّ لها. إذا كان هناك أي رجل أُصيب بالجنون جراء فرحة الحب, فلا شك أنني كنت أنا هو ذاك الرجل في تلك اللحظة. لقد وقعت في الحب. إنه حبي الأول. وهكذا أسلمت نفسي لهذا الحب. كان حباً بأسمى معانيه, لا يوصف, كان (حباً من النظرة الأولى), ومن النظرة الأولى أيضاً وقع حبي في مكانه, بل إن حبي قد استجيب أيضاً, (من النظرة الأولى).

أقول هنا إنني حظيت بالاستجابة من الانحناءة, إذ كيف ولأي سبب يمكنني أن أشك بالأمر ولو للحظة؟ ثم ماذا يمكن أن يعني تصرف السيدة لالاند هذا. هذه السيدة الباهرة الفتنة، الثرية فوق التقدير, عالية الثقافة, سليلة الأصل والمحتد, صاحبة المركز المرموق في المجتمع, النبيلة من كل وجه يمكن أن يخطر على ذهنك؟ ماذا يمكن أن يعني هذا المسلك من السيدة لالاند غير الاستجابة للحب؟ نعم, لقد أحبّتني, لقد استجابت لحبي الكبير؛ هذا الحب المندفع غير المتردد الضارب عرض الحائط بكل التقاليد والأعراف. وبينما كنت سابحاً في هذه التخيلات, قطع عليَّ أفكاري انسدال الستار وانتهاء الأوبرا. ونهض الحضور, وارتفعت في القاعة جلبة معروفة تحدث بعد انتهاء كل حفل. تركت تالبوت فورا دون استئذان, وحاولت بكل ما أوتيت من قوة, أن أشق طريقي إلى مكان أقرب من السيدة لالاند. لكن, بعد أن منيت بالاخفاق في الاقتراب, بسبب شدة التصاق القوم ببعضهم, تمنيت أن أقترب لأمس طرف ثوبها حتى، ولم يبقَ أمامي إلا أن أوجه خطاي نحو منزلي معزياً نفسي, عن فشلي في الدنو, بأني سأتعرف عليها رسمياً بوساطة تالبوت في الغد.

وإن غدا لناظره قريب. أخيراً جاء الغد، أعني نهاراً آخر بزغت شمسه بعد ليل طويل من القلق والأرق ثم أخذت الساعة التي تفصل بين بزوغ الفجر وبين الواحدة موعد لقائنا تزحف زحفاً بطيئاً كالسلحفاة. لكن لكل شيء نهاية, كما يُقال, وحان الوقت المحدد. وحين دقت الساعة تعلن تمام الواحدة كنت أقفز فوق عتبة المكان المحدد، وأسأل عن تالبوت.

لكن خادمه صدمني:

- ليس موجوداً يا سيدي.

فعدت أسأله بجزع:

- ليس موجوداً! كيف؟ استمع إليّ جيداً يا صاح. إن الأمر لا يمكن أن يكون على هذه الصورة! إن تالبوت لا يمكن أن يكون غير موجود, ماذا تعني بالله عليك؟

- لا أعني شيئاً يا سيدي, أريد فقط أن أقول إن السيد تالبوت غير موجود. هذا كل ما في الأمر؛ انطلق مباشرة بعد الفطور قائلاً إنه لن يعود قبل أسبوع تقريباً.

جمدت في مكاني تأكلني نيران الغيظ. حاولت أن أقول شيئاً, لكن عقلي لم يطاوعني. أخيراً استدرت على عقبي ولساني يقذف بشتائم خرساء على تالبوت وعلى كل آل تالبوت.

فكرت في نفسي أن صديقي قد نسي موعده معي, نسيه حالما اتفقنا على الموعد, إذ إنه لم يكن في حياته دقيقاً في مواعيده. وحيث أنه لم تكن لي في الأمر حيلة, رحت أهدّئ من ثورتي مجرجراً قدميّ في الشوارع مستفسراً عن السيدة لالاند من كل شخص أعرفه في الطريق. وجدت أن الكثيرين يعرفونها, أو بالأحرى قد سمعوا بها, وأن بعضهم يعرفها بالنظر فقط. غير أنني لم أجد إلا قليلين جداً يعرفونها معرفة شخصية, إذ لم يكن قد مرَّ على وجودها في البلدة غير أسابيع. ولهذا فإن أولئك الأشخاص الذين يعرفونها لا يستطيعون, أو لا يريدون, أن يعرّفوني عليها باعتبار أنهم ما زالوا هامشيين في علاقاتهم معها. وبينما كنت في تلك الحال من اليأس, أتحدث مع ثلاثة أشخاص أعرفهم عن موضوع اهتمامي, حدث، صدق أو لا تصدق، أن السيدة لالاند مرت بنفسها.

هتف أحدهم:

- يا إلهي, ها هي السيدة..

تمتم الآخر في انبهار:

- ما أجملها!

وعلّق الثالث:

- إنها ملاك يخطو على الأرض.

ونظرت, فإذا بعربة مكشوفة تقترب ناحيتنا تعبر الشارع ببطء, وفي داخلها كانت تجلس السيدة وإلى جانبها السيدة الصغرى التي كانت معها في دار الأوبرا. وقال أحد الثلاثة:

- ومرافقتها أيضاً ترتدي ثياباً جميلة جداً.

رد عليه الثاني:

- مدهش. لا تزال تبدو كما كانت. إن مساحيق التجميل تصنع المعجزات. أقسم أنها تبدو أحسن حالاً مما كانت عليه منذ خمس سنوات في باريس, إنها لا تزال امرأة جميلة! ألا توافق على ذلك يا فرواسار.. أعني سيمبسون؟

أجبته في شرود:

- نعم, ولم لا تكون هكذا! لكنها بالنسبة إلى رفيقتها تبدو كالوطاويط أمام نجمة الصبح.

ضحك متهكما مني:

- هـا! هـا! هـا!, يـا لـك مـن رجـل يـا سيمبسـون. إن لديـك حاسـة غريبـة للاكتشـاف, أعنـي اكتشـافات فريـدة مـن نوعهـا.

وتوقفنا عن الحديث عند هذا الحد, بينما راح أحد الثلاثة يدندن أغنية...

في أثنـاء ذلـك حـدث أمـر أدخـل إلى نفـسي بعـض المواسـاة, رغـم أنـه كان بمثابـة الزيـت يُصـبّ عـلى نـار شـوقي, إذ حينـما مـرت عربـة السـيدة لالانـد بجوارنـا, ونحـن نتحـدث, لاحظـت أنهـا عرفتنـي مـن بـين الجميـع؛ بـل وأكـثر مـن هـذا, فقـد أنعمـت عـليَّ بابتسـامة أروع مـن ابتسـامات ملائكـة السـماء.

كان عـليّ أن أفقـد الأمـل نهائيـاً فيـما يخـص التعـرف إليهـا عـن طريـق شـخص يقدِّمنـي إليهـا رسـمياً, أو عـلى الأقـل أن أقطعـه إلى أن يتذكـر تالبـوت وعـده لي ويـرى مـن المناسـب أن يعـود مـن سـفره المفاجـيء. وكنـت إلى أن يحـدث ذلـك أحـرص عـلى ألا أتـرك أي مـكان يمكـن أن تطـؤه قدماهـا دون أن أذهـب إليـه عـدة مـرات في اليـوم. وبعـد وقـت طويـل, وفي المـكان الـذي صادفتهـا فيـه لأول مـرة، في المـسرح، حظيـت بنعمـة لقياهـا مـرة ثانيـة, كـما نعمـت بتبـادل النظـرات الخاطفـة معهـا؛ وكان قـد مـرَّ حـوالى الأسـبوعين عـلى لقائنـا الأول. كنـت خـلال هـذه المـدة أذهـب إلى مـكان إقامـة تالبـوت واسـأل عنـه, وكل يـوم كنـت ألقـى الجـواب نفسـه, والـذي يلقينـي في نـار الحقـد.

- لم يَعُدْ بعد.

ذلـك المسـاء الـذي لقيتهـا فيـه, كنـت, ولهـذه الأسـباب, قـد شـارفت حـد الجنـون. كنـت قـد علمـت أن السـيدة لالانـد باريسـية وأنهـا وصلـت مـن هنـاك مؤخـراً. تُـرى, أفـلا يعقـل أن تعـود إلى باريـس فجـأة قبـل أن يعـود صديقـي العزيـز تالبـوت؟ أولا يعقـل أن أفقدهـا إلى الأبـد؟ كانـت هـذه الأفـكار تمضّنـي. ولمـا كان مصـير سـعادتي ومسـتقبلي بكاملـه متوقفـاً عـلى النتائـج فقـد قـررت أن أتـصرف برجولـة, إذ حالمـا انتهـت المسرحيـة رحـت أتتبـع السـيدة إلى مـكان إقامتهـا, ثـم سـجلت عنـوان دارهـا عنـدي؛ وفي الصبـاح التـالي أرسـلت إليهـا رسـالة طويلـة أنيقـة أودعـت فيهـا كل مـا في قلبـي مـن حـب جـارف عميـق.

أخـذت راحتـي في تلـك الرسـالة بحريـة وجـرأة لا مزيـد عليهـما. تكلمـت بدافـع حـب أثـير كبـير. لم أخـف منـه شـيئاً, حتـى ولا نقـاط الضعـف في شـخصيتي. وأشرت إلى الطريقـة الرومانسـية التـي تـمَّ بهـا لقاؤنـا الأول مصادفـة, حتـى إلى النظـرات التـي تبادلناهـا آنـذاك. وتجـرأت عـلى القـول أيضـاً إننـي واثـق مـن حبهـا لي, واتخـذت ذلـك, بالإضافـة إلى مـا أشـعر بـه مـن جهتـي,

كعذريـن عـلى تـصرفي وكتابتـي إليهـا بهـذا الشـكل غـير المألـوف, وأضفـت إلى ذينـك العذريـن عـذراً آخـر أننـي كنـت أخـاف أن تـترك البلـدة قبـل أن تسـنح الفرصـة لأحظـى بمقابلتهـا رسـمياً. وختمـت رسـالتي بأقـصى مـا يمكـن لرسـالة غـرام أن تتحمّـل مـن شـجون, واصفـاً حالتـي, ومكانتـي في هـذا العـالم, رافعـا قلبـي فـوق كفـي عـلى أمـل الـزواج.

ورحـت أنتظـر الجـواب بـكل عذابـات الانتظـار وحُرَقـه ولهفـة المحـب الولهـان. وبعـد مـرور مـا بـدا وكأنـه الدهـر, جـاء الـرد.

نعـم, لقـد جـاء جوابهـا, ومـع أن هـذا يبـدو أمـراً بالـغ الرهافـة والرومانسـية فقـد تسـلّمت, بالفعـل, جوابـاً مـن السـيدة لالانـد -السـيدة باهـرة الحسـن, واسـعة الـثراء, المعشـوقة لالانـد؛ إنّ عينيهـا, عينيهـا الجميلتـين, لم تخونـا قلبهـا الجميـل النبيـل. وهـي كامـرأة فرنسـية حقيقيـة اسـتجابت لنـداء قلبهـا ونـوازع روحهـا الأصيلـة السـخية, ضاربـة بتقاليـد العـالم المتجمـد عـرض الحائـط. إنهـا لم تسـخر مـن كلـماتي, ولم تغلـق عـلى نفسـها بـاب العزلـة والصمـت. هـي لم ترجـع رسـالتي مغلقـة, وإنمـا أجابتنـي برسـالة خطتهـا بأنامـل يدهـا اللطيفـة, وهـذه هـي كلماتهـا بالنـص:

سـيعذرني السـيد سيمبسـون لجهـلي عـن التعبـير بطلاقـة عـن أفـكاري بلغتـه البديعـة. وصلت هـذا البلـد مؤخـراً ولم تسـمح لي الظـروف بدراسـتها كـما ينبغـي بعـد.

بعـد هـذا الاعتـذار عـن طريقتـي في الكتابـة، لا أجـد بـدا مـن القـول، وبـكل أسـف!! إن قلـب السـيد سيمبسـون قـد أعطـاه الخـبر اليقـين. وهـل عـليّ أن أزيـد عـلى هـذا. واأسـفاه. ليـس باسـتطاعتي أن أتكلـم أكـثر.

(أوجيني لالاند)

قبّلـت هـذه الرسـالة الطافحـة بـروح الغـرام مليـون مـرة, وبنيـت عـلى كلماتهـا آلاف المشـاريع والمغامـرات التـي غابـت عـن ذاكـرتي في الوقـت الحـاضر. لم يعـد المدعـو تالبـوت بعـد.

واحسرتـاه, هـل يسـتطيع أن يتصـوّر ولـو النـذر اليسـير مـن الآلام الهائلـة التـي سـبّبها غيابـه لروحـي؟ إنـه لـو قـدر لمـا شـككت بأنـه يطـير لمسـاعدتي. لكـن, مهـما تكـن الحـال, فإنـه لم يعـد بعـد.

كتبت إليه, وأجاب.

قـال إنـه مضطـر إلى التأخـر بسـبب أشـغال ملحـة, وإنـه سـيعود قريبـاً, ورجـاني ألا أكـون كثـير الإلحـاح, وأن أصـبر, وأن أسـتعين بالقـراءات المسـلية لتـصرف ذهنـي عـن ثقـل الوقـت, وأن أسـتجير بالفلسـفة.

هذا المجنون!

إذا كان لا يسـتطيع أن يـأتي بنفسـه فلـماذا, يـا إلهـي, لم يرسـل لي عـلى الأقـل كتـاب تعريـف.

كتبت إليه مرة ثانية راجياً منه أن يرسل لي كتاب تعريف للحال, لكن رسالتي إليه عادت وعلى ظهرها كلمات كتبها خادمه بقلمه الرصاص, ذلك الخادم نفسه! فلقد لحق بسيده حيث هو, وكانت الكلمات على ظهر الرسالة كما يلي:

غادر سيدي المكان يوم أمس إلى جهة مجهولة. لم يقل إلى أين, ولا متى يعود. لهذا رأيت أن أفضل تصرُّف هو إرجاع الرسالة إليك, بعد معرفتي لخط يدك, لعلمي أنك على عجلة كعادتك دائماً.

باخلاص، ستبس

لست بحاجة إلى القول إنني, بعد أن تسلّمت رسالتي المرتجعة, أنزلت بالسيد وخادمه أقذع النعوت وصببت عليهما جام غضبي؛ لكن لم يكن من فائدة في الحنق, ولا من تعزية في التذمر.

هكذا بقي لي مخرج واحد يمكنني النفاد منه, وقد سبق لي أن لجأت إليه, وقررت الآن أن أستخدمه حتى النهاية. فأي أمر خارج عن المألوف أكثر من المراسلة التي جرت بيني وبين السيدة لالاند يمكنني أن أرتكبه وتعتبره هي غير لائق؟ منذ تلك المراسلة أخذت أراقب منزلها, واكتشفت أنها كانت قد اعتادت الخروج كل يوم, بعد غروب الشمس, في نزهة إلى الحدائق العامة المجاورة لمنزلها برفقة خادم لها. وهناك بين ظلال الأشجار الجميلة, وفي إحدى أمسيات الصيف اللطيفة الهواء, ترقّبت معشوقتي وتبادلت معها الحديث.

تقدّمت منها بكل جرأة, لكي أتخلص من وجود الخادم, وبدأت الحديث معها كصديق قديم. وبدا كأنها عرفت مقصدي, كسيدة باريسية أصيلة, فمدّت إليّ يدها البضّة لتصافحني. وبعد أن أسرع الخادم في الاختفاء ابتدأنا فوراً بتفريغ قلبين مفعمين بلواعج الهوى. وقد جارينا بعضنا في الحديث طويلاً.

وبما أن السيدة لالاند كانت تجهل التحدث بالإنكليزية بطلاقة أكثر من جهلها الكتابة بها, فقد جرى حديثنا بطلاقة فرنسية. وبهذه اللغة, الملائمة طبيعياً لتعابير الحب, أطلقت العنان لنوازع روحي, وبكل ما أمتلك من فصاحة رحت أرجوها بأن توافق على زواجنا بسرعة.

أمام هذا الإلحاح, ابتسمت, وأخذت تنصح لي بضرورة التروّي، هذه الغشاوة التي تحجب النعمة عن الإنسان حتى يفوت أوانها، وقالت إنني كنت متسرعاً حين أخبرت أصدقائي برغبتي في التعرف إليها, ولهذا أصبح من الضروري أن نتظاهر أمام الناس بأن معرفتنا ليست قديمة العهد. وحين أشارت إلى أن تعارفنا حديث العهد فعلاً, خيِّل إليّ أن حمرة قد صبغت وجنتيها. ولهذا فإن زواجنا السريع لن يكون لائقاً, بل سيكون خارجاً عن المألوف, ومبعثاً للكثير من القيل والقال. كانت تقدّم كل هذه الاعتراضات بلهجة

بسيطة تسحر القلب, وفي الوقت نفسه تدخل إلى النفس شيئاً من الحزن, ويجب أن أعترف, شيئاً من القناعة كذلك.

رجتني أن أتذكر بأنني في الحقيقة لا أعرف من تكون أصلا, وما هي حالتها, وعلاقاتها, وارتباطاتها, ومركزها الاجتماعي. ورجتني بكلمات تمتزج بتأوّهات الحسرة أن أعيد النظر في طلب الزواج, قائلة إن حبي قد يكون نزوة هوى عابرة, أو اختراع مخيلة خصبة, وقد يكون وليد الخيال أكثر منه وليد القلب. كانت تبدي هذه الملاحظات بينما ظلال المساء الساكن تتجمع وتلفّنا بعتمة متزايدة, ثم أتبعت أقوالها بلمسة خفيفة من يدها هدمت فيها كل ما بنته من قصور المبررات الواهية في الخيال.

أجبتها بأحسن ما عندي ..أعني, كما يمكن للعاشق الحقيقي أن يفعل. تكلمت مطولاً وبإصرار عن حبي لها, وعن هيامي, وعن جمالها الجبار, وعن إعجابي الذي لا حد له. وخلصت إلى الإشارة بأن طريق الحب مليء بالأشواك, وأن الحب الحقيقي لا يمكن أن ينتهي إلى ما نريد بسهولة, وأنه لهذه الأسباب علينا اختصار طريق الأشواك بالزواج.

هذه الحجة بالذات جعلتها تلين أخيراً, ولكنها قالت إن هناك عقبة أخيرة توحي بأنني لم أُولها اهتماماً كافياً. وهذه نقطة حساسة يصعب على المرأة أن تتكلم عنها, ولكنها قالت إنها ستفعل ذلك رغم مشاعرها, وإن أي تضحية تتعلق بذلك تسعدنا. هذه النقطة هي مسألة السن. فهل كنت أعلم, علماً يقيناً, بالفرق بين عمرينا؟ وهل كنت أعلم أن عمر الرجل يجب أن يزيد عن عمر المرأة ببضع سنين, وأن الناس لا يرون مانعاً في أن يزيد عمر الرجل عن عمر المرأة بخمس عشرة أو عشرين سنة, وأنها, على أية حال, كانت دائماً على يقين بأن عمر المرأة يجب أن لا يزيد عن عمر الرجل؟ إن فرقاً كهذا غالباً ما يؤدي, يا للأسف, إلى حياة تعيسة. كانت تعرف أنني لم أتجاوز الثانية والعشرين, وأنني في الغالب أجهل أنها تكبرني بسنوات كثيرة.

كانت في كل ما قالته نبيلة القلب, رفيعة الأسلوب, الأمر الذي سحرني, وأحكم قيود الحب حول قلبي. لهذا لم أتمكّن من أن أكبت مشاعري, وصرخت:

- يا أوجيني الحبيبة ..ما هذا الذي تتحدثين عنه؟ أعلم جيداً أنك تكبرينني ببضع سنوات, لكن ما أهمية ذلك؟ إنّ تقاليد العالم مجموعة من المعتقدات البالية. وماذا يمكن أن تعني للمحبين مثلنا السنة أكثر من ساعة واحدة؟ تقولين إنني في الثانية والعشرين, والحقيقة أنه يمكنك منذ هذه اللحظة أن تقولي إني في الثالثة والعشرين, وأما أنت يا عزيزتي أوجين فلا يمكن أن يزيد عمرك عن... لا يمكن أن يزيد عن... لا يمكن... عن...

تريّثت قليلاً على أمل أن تكمل السيدة لالاند عبارتي فتذكر عمرها الحقيقي, ولكن كما هي الحال مع النساء الفرنسيات, اللواتي نادراً ما يشرن إلى هذه الأمور بشكل مباشر,

ويفضلن عندما يجابهن بسؤال محرج أن يجبن عليه بشكل عملي, راحت أوجيني تفتش في طيّات صدرها عن شيء كأنها أضاعته, وبعد برهة سقطت من يديها صورة كانت قد خبأتها, فسارعتُ إلى التقاطها وقدمتها إليها.

قالت بأعذب ابتسامة رأيتها في حياتي:

- احتفظ بها يا عزيزي، احتفظ بها من أجلي, من أجل من تمثّلها الصورة. ثم إنك تستطيع أن تجد على ظهرها المعلومات التي يبدو أنك ترغب في معرفتها. إنّ الليل أظلنا الآن بغشاوته ولهذا يجدر بك أن تتفحّصها ملياً في الصباح. وفي هذه الأثناء أرجو أن توصلني إلى منزلي. إن أصدقاء لي يريدون إحياء أمسية موسيقية صغيرة هذا المساء. وأعدك بشيء من الغناء الجميل. إننا معشر الفرنسيين لسنا كثيري التقيّد بالتقاليد مثلكم أيها الأميركيون, ولن يصعب عليَّ أن أختلي بك في الداخل كواحد من أصدقائي القدامى.

وما إن أتمّت كلامها حتى أمسكت ذراعي وصمتت.

وفي تلك الأمسية أوصلتها إلى منزلها. كان مسكنها أنيقاً, وأعتقد أنه كان مؤثثاً بشكل ينم عن ذوق مرهف رفيع. والحق أنني لست في موضع يمكنني أن أحكم على هذه الناحية الأخيرة بالتأكيد, إذ كان الليل حالكاً حينما وصلنا. وفي منازل كهذه نادراً ما تستعمل الأضواء المُبهِرَة في ليالي الصيف الحارة كتلك الليلة. وبعد حوالي الساعة من وصولنا أضيء قنديل واحد مظلّل في قاعة الاستقبال, ويمكنني أن أجزم بأن تلك القاعة كانت مفروشة بأثاث جميل, حقاً, ومرتبة بشكل أنيق؛ غير أن الضيوف لم يكونوا جالسين فيها وإنما في غرفتين مجاورتين لها, وبقيت أضواؤها تبعث في أرجاء المكان ظلالاً خفيفة تضفي على الحضور جواً شاعرياً. هذا الترتيب في الإضاءة كان مناسباً حقاً, وقد أعجبني كثيراً, إذ إنه يوفر للحضور أن يختاروا بين مكانين أحدهما مضاء بقوة والآخر ضؤوه خفيف.

كانت تلك الليلة من أجمل ليالي حياتي, ولم تقصّر السيدة لالاند عن اعترافها بمواهب أصدقائها الموسيقية, ولم أسمع أمتع من الغناء الذي سمعته آنذاك, في أي من الحلقات الخاصة خارج فيينا. كان العازفون كُثُراً ذوي مواهب خارقة؛ أما المغنون فكان أكثرهم من النساء وجميعهم أبدعوا في الغناء. وبعد مرو ساعة تقريباً أخذ الحضور يدعون السيدة لالاند للغناء, وقد استجابت السيدة للدعوة فوراً. كانت تجلس بقربي, فنهضت بدوم تكلف, وبرفقتها سيد أو سيدان بالإضافة إلى مرافقتها التي كانت معها في دار الأوبرا, واتجهت إلى البيانو في قاعة الاستقبال الرئيسية. حاولت أن أرافقها بنفسي, لكنني شعرت أنه من الأفضل أن أبقى بعيداً عن الأنظار قدر الإمكان, وذلك بالنسبة إلى حداثة تعارفنا, وبقيت في مكاني حيث حرمت من مشاهدتها وهي تغني, لكنني لم أحرم من سماع صوتها.

كان تأثيرها في المستمعين هائلاً وفوق كل وصف، أما تأثيرها فيّ فكان أكثر من ذلك. وأنا

أعـرف كيـف يمكننـي وصـف ذلـك التأثـير عـلى حقيقتـه. لا شـك أنـه كان مرتبطـاً, بشـكل مـا, بالشـعور الـذي كان يغمـر قلبـي, لكنـه في الغالـب كان ناتجـاً عـن الحساسـية الفائقـة التـي كانـت تغنـي بهـا. يسـتحيل عـلى بدائـع الفنـون أن تسـتنبط شـفافية في التعابـير أكـثر مـما عـبرت عنـه السـيدة لالانـد, والطريقـة التـي أدت بهـا مقطوعـة الهيـام في (عطيـل) والنغمـة التـي لونـت بهـا الكلـمات لا تـزال تـرن في أذنيّ حتـى اليـوم. كانـت تـؤدي النوتـات المنخفضـة في السـلم الموسـيقي بطريقـة مندهشـة, وكان صوتهـا يجمـع ثـلاث جمـل موسـيقية كاملـة تمتـد مـن الكونترالـدو الثالث إلى السـوبرانو الثالـث, ورغـم أنهـا كانـت تحافـظ في كل ذلـك عـلى قـوة صوتيـة ممتـازة, فإنهـا مـا كانـت لتتجنّـب المقاطـع الصعبـة, بـل كانـت تغنيهـا ببراعـة فائقـة, فيرتفـع صوتهـا وينخفـض مـن أعـلى السـلم الموسـيقي حتـى أسـفله. وفي نهايـة الأغنيـة أظهـرت براعـة في الأداء فـوق الخيـال.

حـين نهضـت عـن مقعـد البيانـو, عـادت إلى كرسـيها بجانبـي؛ فلـم أتمالـك إلا أن أنقـل إليهـا فرحتـي الغامـرة بغنائهـا المدهـش. لم أذكـر شـيئاً عـن إعجـابي, غـير أننـي, في الحقيقـة, كنـت كثـير الانفعـال, إذ كنـت قـد كونـت انطباعـاً في نفـسي, مـن خـلال أحاديثنـا السـابقة, بـأن طبيعـة صوتهـا المائلـة إلى الليونـة لـن تمكنهـا مـن أن تطلـق أعنـة صوتهـا بغنـاء قـوي كالـذي سـمعت.

راحـت أحاديثنـا تمتـد لفـترات طويلـة, وكنـا نتكلـم بجـرأة وصراحـة ودونمـا توقـف. جعلتنـي أسـترجع كثـيراً مـن ذكريـات سـنيَّ الماضيـة, وكانـت تسـتمع إلى كل كلمـة أتفـوه بهـا وهـي تحبـس أنفاسها.

لم أخف عنها شيئاً..

شـعرت أننـي يجـب أن أبـوح بـكل شيء.. لتلـك التـي منحتنـي خالـص حبهـا. ولمـا كانـت قـد شـجعتني بصراحتهـا فيـما يتعلـق بعمرهـا, فقـد رحـت مـن جانبـي بإخـلاص كلي أتكلـم ليـس عـن تفاصيـل نـزواتي حتـى الصغـيرة منهـا وحسـب, بـل إننـي قمـت باعـتراف صريـح بـكل مسـاوئي الخلقيـة وحتـى نقائـصي الجسـمية التـي يـدل الاعـتراف بهـا عـلى إخـلاص في مشـاعر الحـب أكـثر مـن الاعـتراف بـأي شيء آخـر. تكلمـت عـن سـنواتي الدراسـية, وعـن الحماقـات التـي كنـت أرتكبهـا آنـذاك, تكلمـت عـن البـذخ, والمغامـرات, والتجـارب التـي قمـت بهـا للتقـرّب مـن النسـاء, وعـن ديـوني, وعـن مغـازلاتي. اعترفـت لهـا بـكل شيء حتـى أننـي تكلمـت عـن سـعال مزمـن أصابنـي مـرة, وعـن ألم سـابق في المفاصـل, وحتـى عـن ذلـك الـذي كنـت أحـاول أن أبقيـه سراً عـن الجميـع.. عـن ضعـف نظـري.

عند ذلك قالت السيدة لالاند ضاحكة:

- فيـما يتعلـق بهـذه النقطـة الأخـيرة, فإنـك لم تكـن كثـير الحكمـة حـين اعترفـت لي بهـا, إذ لـولا اعترافـك لمـا كان أحـد يسـتطيع أن يتهمـك بالجـرم, وعـلى كل حـال, هـل تتذكـر...

وهنا تصوّرت أن احمراراً قد لوّن وجنتيها, وهي تتابع:

- هل تتذكر يا صديقي العزيز هذا الشيء الذي يتدلى من عنقي؟

وبينما كانت تقول ذلك, كانت أصابعها تداعب نظارتيها اللتين سببتا لي ارتباكاً بالغاً في دار الأوبرا من قبل.

- أتذكرهما بالتأكيد.. نعم, كم أتذكر!

قلت ذلك وأنا أضغط بحنان على اليد التي امتدت إليَّ بالنظارتين لأراهما. كانتا كاللعبة المزركشة مطعّمتين بالجواهر التي, رغم خفوت الضوء, تأكد لي أنها نفيسة غالية الثمن, ثم أكملت حديثها بشيء من التأكيد:

- حسناً يا صديقي العزيز, لقد طلبت مني بوضوح أمراً قلت عنه إنه لا يقدّر بثمن. لقد طلبت مني الزواج في الغد, فلو قبلت طلبك، ويمكنني أن أضيف هنا أن هذا لن يكون منافياً لشغف قلبي ورغبته، ألا يحق لي بأن أطلب منك طلباً صغيراً.. صغيراً جداً بالمقابل؟

قلت بصوت ملهوف كاد يُلفت انتباه الحضور إلينا:

- نعم.. نعم.. اطلبي.

وأكملت, وقد منعني وجود الناس حولنا من أن أرمي بنفسي على قدميها:

- اطلبي ما شئت يا حبيبتي, يا أوجيني سمِّيه, لكن, يا إلهي, إن طلبك مستجاب حتى قبل أن تتلفظي به.

قالت بهدوء:

- من أجل أوجيني, التي تحبها, ستتغلب على الضعف الصغير الذي اعترفت به مؤخراً. هذا الضعف الذي هو معنوي أكثر مما هو جسماني, خصوصاً أنه غير لائق بطبيعة نفسيتك النبيلة, أو بالأحرى يجب أن أقول إنه مناقض للصراحة التي تتميز بها, إذ أخاف أنك إذا أهملتها أن توقعك, عاجلاً أو آجلاً, في مآزق خطيرة. إنك ستتغلب على هذا التصنُّع الذي يؤدي بك, حسب اعترافاتك, إلى الهروب من هذا الضعف في نظرك, إذ إن التهرب من استعمال الوسائل العادية لا يفيد في معالجة هذا الضعف الذي تصر على إخفائه, أعني بكل هذا أنني أرغب إليك أن تستعمل نظارتين لعينيك. آه, لقد وافقت مسبقاً على أن تستعملهما, من أجلي, وأرجو أن تتقبل هذه القطعة التي في يدي, فهي رغم أنها ليست مرتفعة القيمة في ما تحمل من جواهر, تساعد كثيراً في النظر. ويمكنك بمجرد تركيز أقسامها على الشكل الذي تريد, أن توافق عينيك كنظارتين, أو بإمكانك أن تضعهما في جيب صُدرتك. ولقد قبلت من أجلي, بأن تستعملهما كنظارتين.

هل من الضروري أن أعترف بأن هذا الطلب قد أزعجني كثيراً؟ لكن الطريقة التي جاء بها لم تدع لي أي مجال للتردد.

- طلبك مستجاب يا سيدتي.

صحت بكل ما تمكنت من قوة. سأفعل ما تريدين وبكل سرور. إنني أضحي بأي شعور من أجلك. هذه الليلة سأضع هاتين النظارتين في جيبي, بجوار قلبي, وغداً, عند بزوغ الشعاع الأول من صباح اليوم الذي يمكنني عندها أن أعتبرك زوجتي, سأضعهما على... على أنفي... وهناك ستبقيان إلى الأبد, ولو لم تكونا جميلتين على الأنف, لكنهما ستكونان هناك كما ترغبين.

بعد هذا انتقلنا في حديثنا إلى ترتيبات الغد. لقد وصل تالبوت, كما أخبرتني خطيبتي إلى البلدة منذ وقت قريب, وكان يجب أن أراه حالاً, وان أُؤمِّن عربة. قد لا تنتهي السهرة قبل الثانية صباحاً, وفي هذا الوقت يجب أن تكون العربة في الانتظار على الباب حيث يكون باستطاعة السيدة لالاند أن تستقلها دون أن ينتبه إليها أحد, حين يكون الجميع خارجين. علينا, بعد هذا, أن نذهب إلى منزل كاهن سيكون في انتظارنا, وهناك ستتم مراسم الزواج, وبعدها نودّع تالبوت ونستمر في رحلة قصيرة إلى الشرق تاركين وراءنا الناس ليعلقوا على زواجنا كما يحلو لهم.

وما أن انتهينا من هذه الترتيبات استأذنت بسرعة, وذهبت أبحث عن تالبوت, لكنني لم أتمالك في طريقي من أن أدخل إلى أحد الفنادق لأتفحص الصورة التي أعطتني خطيبتي, ولم أتردد بأن أستعمل النظارتين من أجل ذلك. كانت ملامح الجمال في ذلك الوجه شيئاً يأسر القلب. عينان واسعتان تضيئان الظلام, ذلك الأنف الإغريقي الأقنى الرفيع, تلك الجدائل المجعّدة السوداء.

- آه.

تنهدت بنشوة:

- إنها حقاً صورة ناطقة لمحبوبتي!

وقلبت الصورة ووجدت على ظهرها الكلمات التالية:

(أوجيني لالاند: العمر 27 عاما و7 أشهر).

وجدت تالبوت في البيت, وأسرعت فوراً لإعلامه بتفاصيل سعادتي الجمة. ظهرت عليه دهشة بالغة, لا ريب فيها لكنه هنأني بصدق, ووضع نفسه رهن كل خدمة ممكنة. وباختصار قمنا بتنفيذ خطتنا حرفياً؛ وفي تمام الساعة الثانية صباحاً بعد انتهاء الحفلة بعشر دقائق فقط, وجدت نفسي إلى جانب السيدة لالاند، السيدة سيمبسون يجب أن أقول، منطلقين خارج البلدة في اتجاه الشمال الشرقي.

نصحنا تالبوت بأن نجعل محطتنا الأولى في مكان يبعد حوالي عشرين ميلاً عن المدينة, إذ نكون بذلك قد أمضينا الليل بطوله دون نوم؛ على أن نتناول فطورنا هناك, ونحظى بشيء من الراحة قبل متابعة السفر. ولهذا ففي الساعة الرابعة تماماً كانت العربة تقف أمام

الحانة الرئيسية. أخذت بيد محبوبتي ونزلنا, ثم طلبنا فطوراً لتونا. وفي هذه الأثناء قادنا صاحب الحانة إلى مكان استراحة حيث جلسنا.

كان النهار قد طلع علينا, وفيما كنت أحدق كالمأخوذ, إلى الملاك بجانبي, خطرت ببالي فجأة أن هذه في الحقيقة هي المرة الأولى منذ لقائنا تسنح لي فيها فرصة التمتع بذلك الجمال عن كثب وفي ضوء الصباح.

- والآن يا عزيزي.

قالت, وهي تأخذ بيدي قاطعة عليّ حبل أفكاري, والآن يا صديقي العزيز؛ بما أننا أصبحنا روحاً واحدة في جسدين, وبما أنني استجبت لطلبك وقمت, من ناحيتي, بنصيبي من الاتفاق, أتصور أنك لم تنس وعدك لي بأن تقدم لي خدمة صغيرة, وعداً صغيراً, لا شك بأنك عازم على تحقيقه بلا تردد, آه, دعني أرى, دعني أتذكر! نعم, إنني أتذكر كلماتك بسهولة حين أعلنت وعدك لأوجيني الليلة الماضية. اسمع, تكلمتَ هكذا: طلبك مستجاب. سأفعل ما تريدين وبكل سرور. إنني أضحي بأي شعور من أجلك. هذه الليلة سأضع هاتين النظارتين في جيبي بجوار قلبي, وغداً عند بزوغ الأشعة الأولى لصباح اليوم الذي يمكنني فيه أن أدعوك زوجتي, سأضعهما على, على أنفي, وهناك ستبقيان إلى الأبد, ومع أنهما لن تكونا جميلتين على الأنف, لكنهما ستكونان هناك, كما ترغبين. هذه هي الكلمات التي تفوهت بها بالضبط, أليس كذلك يا زوجي الحبيب.

أجبتها بثقة غامرة:

- نعم إنها الكلمات نفسها, إن لك ذاكرة فوق الممتازة, ولا ريب أنني, يا أوجيني الجميلة, لا أميل مطلقاً إلى أن أخلف الوعد الذي قطعته لك.

وأردفت وانا اضع النظارة:

- انظري, ما رأيك, هل تناسبان وجهي.. نوعاً ما.. أليس كذلك؟

وفي اللحظة ذاتها, وفور أن وضعت النظارتين على عينيّ وركزتهما لبضع لحظات, بينما السيدة سيمبسون كانت تركز قبعتها على رأسها, وتضم ذراعيها, وتجلس في مقعها بطريقة فيها شيء من الغرابة, أو بالأحرى, شيء من البشاعة!

- رحمتك يارب!

صرخت بذهول في اللحظة ذاتها التي استقرت النظارتان فيها على عينيّ!

- يا الله ارحمني.. يا رب.. يا الله, ارحمني.. ماذا, أية مصيبة هي هاتان النظارتان؟!

ثم أنني انتزعتهما بسرعة ومسحتهما بمنديل حريريّ, ثم ركزتهما على عينيّ من جديد.

إذا كان ما حدث في اللحظة الأولى سبب لي استغراباً, فإنَّ ما حدث في اللحظة التالية

أوقعني في هوّة من الدهشة.. هوّة عميقة في الواقع.. هوّة هائلة؛ وفي الحقيقة, يمكنني أن أقول إنها كانت هوّة مرعبة.

هل أصدق عينيّ؟

هل يمكنني أن أصدق عينيّ؟

هذا هو السؤال.

هل كان, ذلك الشيء, ذلك الشيء الذي يملأ وجهها بالحمرة صباغاً؟! وتلك الأشياء.. الأشياء... تلك الأشياء في الوجه, هل هي تجاعيد؟! أفي وجه أوجيني لالاند هذه تغضّنات؟

أواه, بحق المشترى والمريخ وكل الآلهة, الصغار منهم والكبار, ما الذي حلّ؟ ماذا حدث؟ ما هو الشيء الذي أصاب أسنانها؟ ماذا حلّ بأسنانها؟

رميت النظارتين على الأرض بغضب شديد وقفزت منتتراً على قدميّ في منتصف الغرفة مواجهاً السيدة سيمبسون وفي كل جزء من جسمي يتفجّر بركان من الحنق, وفي وجهي ثورة من الهلع الفظيع, غير أني في الوقت نفسه لم أستطع أن أقول شيئاً, كان الحنق والرعب قد عقدا لساني.

ذكرت آنفاً أن السيدة لالاند، أعني السيدة سيمبسون الآن، كانت تتكلم الإنكليزية بصعوبة وركاكة, ولهذا ففي أحاديثنا السابقة لم تحاول أن تتكلم بها. غير أن الغضب يدفع بالمرأة إلى أمور شاذة عجيبة, وفي هذه الحالة دفع بالسيدة سيمبسون إلى أن تتكلم بلغة لا تتقنها ولا تعرف كل معانيها.

قالت بركاكة مؤلمة, وهي تتفحّصني من رأسي إلى أخمص قدمي بدهشة بالغة:

- حسناً أيها السيد.. حسناً ..ثم ماذا, ما هي المشكلة الآن؟ هل تقلد رقصات القديسين أو ماذا؟

غمغمت وأنا أكافح لألتقط أنفاسي:

- أيتها اللعينة! أيتها العجوز الشمطاء اللعينة!

رددت هي:

-آه! ..عجوز, أوه, أنا لست عجوزاً إلى هذه الدرجة, إن عمري لا يزيد عن الثانية والثمانين بيوم واحد!

صرخت وأنا أترنح من الغضب:

- الثانية والثمانون!! اثنتان وثمانون قردة تركبك يا ملعونة! لكن الصورة تقول سبعاً وعشرين سنة وسبعة أشعر؟!

أجابت ففي هدوء مستفز:

- دون شك, أيها السيد, هذا صحيح, لكن عمر الصورة خمس وخمسون سنة, كان ذلك عندما تزوجت للمرة الثانية من السيد لالاند, أخذت ذلك الرسم لابنتي من زواجي الأول بالسيد مواسار!

صحب بدهشة لا مزيد عليها:

- مواسار!

- نعم, مواسار!

قالت وهي تسخر من طريقة لفظي للاسم، ثم أردفت:

- وماذا يعني هذا, ماذا تعرف عن مواسار؟

- لا شيء أيتها السحلية العجوز, لا أعرف عنه شيئاً, لا شيء سوى أن أحد أجدادي كان يسمّى بهذا الاسم.

- هذا الاسم! وما رأيك فيه؟ إنه اسم جميل حقاً؛ وكذلك فواسار, إنه اسم جميل جداً أيضاً. إن ابنتي الآنسة مواسار قد تزوجت من السيد فواسار, وكلا الاسمين محترم جداً.

- مواسار؟ قلت, و(فواسار), ماذا تعنين بحق السماء؟

- ماذا أعني! مواسار وفواسار, وإذا أحببت يمكنني أن أضيف أسماء أخرى إلى العائلة, كرواسار, وفرواسار. إنّ حفيدة ابنتي, الآنسة فواسار, تزوجت من السيد كرواسار, ثم إن ابنة حفيدة ابنتي, الآنسة كرواسار, تزوجت من السيد فرواسار, ولا أعتقد إن بإمكانك الادعاء أن هذا الاسم ليس بالاسم المحترم أيضاً.

قلت وأنا على وشك الاغماء

- فرواسار! هل تعنين حقاً هذه الأسماء, مواسار وفواسار وفرواسار؟

أجابت وهي تستند إلى الكرسي بكل اطمئنان:

- نعم.. نعم, مواسار وفواسار وكرواسار وفرواسار. لكن السيد فرواسار كان معتوهاً, مثلك, إذ إنه ترك فرنسا الجميلة وجاء ليقطن هذه (الأميركا) القبيحة. ورغم أنني لم أحظ بمقابلته بعد, لا أنا ولا رفيقتي السيدة ستيفاني لالاند, فهو لا شك معتوه. لقد اتخذ لنفسه اسم نابليون بونابرت فرواسار. ولا أعتقد أن بإمكانك أن تدعي أن هذا الاسم هو اسم غير محترم أيضاً!

اتضح لي أن هذا الحديث العائلي الطويل قد أثار حفيظة السيدة سيمبسون وأهاج عواطفها وشجونها إلى درجة كبيرة, إذ إنها حالما أشرفت على الانتهاء من حديثها قفزت عن كرسيها كالملموسة وأخذت تصر بأسنانها, ثم شمّرت عن ذراعيها, ورفعتهما وأخذت تهز بقبضتيها في وجهي, وأنهت هذه التمثيلية بأن انتزعت قبعتها عن رأسها, وانتزعت معها

كتلة من الشعر الأسود المجعد المستعار, ورمت بكل ذلك إلى الأرض, وهي تنتحب وتدوسها بقدميها بثورة غضب شديد. كانت تفعل كل ذلك, بينما كنت أغرق في الكرسي الذي قفزت منه وأنا خائر القوى لا أقوى على الوقوف. ورحت أردد لنفسي هذه الأسماء:

- مواسار وفواسار!

بينما كانت هي تقفز في رقصتها الحانقة

- وكرواسار وفرواسار -مواسار وفواسار وكرواسار وأخيراً نابليون بونابرت فرواسار! أيتها الأفعى الرقطاء- هذا أنا, أنا, هل تسمعين, هذا أنا, أنا, أنا.

ورحت أصرخ بأعلى صوتي:

- هذا أنا, أنا نابليون بونابرت فرواسار, ولتلعنّي السماء إن لم أكن قد تزوجت من جدة جدتي!

كانت السيدة أوجيني لالاند -وقبلاً السيدة مواسار وحالياً السيدة سيمبسون!- كانت في الحقيقة ودون مغالاة هي جدة جدتي. لقد كانت في صباها جميلة جداً, وحتى وهي في الثانية والثمانين لا تزال تحافظ على انتصاب قامتها, ولا يزال جبينها مرتفعاً وعيناها برّاقتين وأنفها الإغريقي محافظاً على شكله. وهي بوساطة المساحيق, والحمرة, والشعر المستعار, والأسنان الصناعية, كل هذا بالإضافة إلى حيل التجميل الباريسية, استطاعت أن تحافظ على كثير من ملامح الجمال. كانت ثرية جداً, وبما أنها ظلت بدون أولاد من زوجيها السابقين, أخذت تسعى إلى لقائي في أميركا. ولكي تقيمني وريثاً لثروتها جاءت إلى أميركا برفقة سيدة رائعة الجمال هي السيدة ستيفاني لالاند قريبة زوجها الثاني.

لفت انتباهها منظري ونظراتي في دار الأوبرا في ذلك اليوم, وبعدما تفحّصتني بنظارتيها دُهشت لفرط الشبه بيني وبين أفراد عائلتها. ولما ازداد اهتمامها بسبب هذا التشابه, ولعلمها بأن حفيدها الذي تفتش عنه هو في البلدة حيث وصلت, التفتت إلى مرافقها وتساءلت عمن أكون.

وكان السيد الذي برفقتها يعرفني, ولهذا أخبرها عني. وهكذا فإن المعلومات التي جمعتها دفعتها إلى تحديد نظرها إليّ وتفحّصتني من جديد, وكان اهتمامها هذا هو الذي جعلني أتجرأ على أن أتصرف بالطريقة العجيبة التي تصرفتُ بها. ولقد أجابت على انحناءة رأسي, إذ تصورت أنني بطريقة ما قد أكون لاحظت الشبه بيننا, وعرفت من تكون. وعندما سألت تالبوت عمن تكون السيدة, وقد خدعت بسبب ضعف نظري بمظهرها ولم أتمكن من أن أتحقق من سنها, ظن تالبوت أنني أعني السيدة الصغرى التي كانت معها, ولهذا أجابني بالحقيقة, وهي أنها السيدة لالاند الأرملة.

في صباح اليوم التالي, وفي الشارع, صادفت السيدة لالاند الكبرى صديقي تالبوت الذي كانت قد تعرفت عليه في باريس, وامتد الحديث بالطبع إليّ, وهكذا عرفت السيدة لالاند

بأمر ضعف نظري, إذ كان هذا الموضوع مشهوراً عني, وتحققت قريبتي العجوز بأنني في الواقع إنما خدعت, ولم أفطن إلى التشابه بيننا وإلى النسب, وأنني كنت أتصرف بتهور إذ أحاول أن أغازل امرأة عجوزاً علناً وفي مسرح يغصّ بالناس, لهذا قررت أن تعاقبني على هذا التهوّر, واتفقت مع تالبوت على الحيلة كلها.

وكان أن غاب تالبوت عن عينيّ عمداً لكي لا يعرّفني إليها. وأما أسئلتي عن الأرملة الجميلة السيدة لالاند دون شك؛ وهكذا فإن الحديث مع الرجال الثلاثة الذين صادفتهم في الشارع, بعد مغادرتي مكان تالبوت, يصبح أمراً واضحاً لا حاجة إلى تعليله. لم تسنح لي الفرصة لرؤية السيدة لالاند في ضوء النهار عن كثب, وفي الأمسية الموسيقية لم أتمكن من التحقق من عمرها وشخصيتها لأنني لم أضع النظارتين.

وعندما دعيت السيدة لالاند للغناء كان المقصود السيدة لالاند الصغرى, وهي التي قامت فغنّت, وأما جدة جدتي فقد رافقتها إلى البيانو حرصاً منها على عدم افتضاح الخطة. فلو كنت حاولت أن أرافقها إلى البيانو, لكانت نصحتني بالبقاء في مكاني, لكن ترددي في الأمر مخافة أن يكتشف أمرنا جعل ذلك أمراً غير ضروري. وأما الأغاني التي سمعتها, والتي أثارتني بإجادتها, فلم تكن سوى أغاني السيدة ستيفاني لالاند, وأما النظارتان فقد قدمتهما إليّ على سبيل إتمام الحيلة, إذ إنها تمكنت بذلك من أن تستفيض بوعظها لي عن التصنُّع والتظاهر. ولا حاجة إلى القول إنها كانت قد أبدلت عدستيّ النظارتين بحيث جاءتا موافقتين لشاب في مثل سني. وهي في الواقع لم تخطئ كثيراً في اكتشاف مدى النقص في قوة باصرتيّ.

وأما الكاهن الذي مثل أنه يربط بيننا برباط الزواج الأبدي, فهو في الحقيقة لم يكن سوى صديق لصديقي تالبوت, وهو ليس كاهناً. لقد كان (حوذيّاً) مناسباً ليدفع بنا خارج المدينة, إذ إنه بعد أن أبدل ثيابه ووضع ثياب الكهنوت المزركشة وأتم مراسيم الزواج المزّور سارع إلى ترحيل (الزوجين السعيدين) خارج البلدة -وكان تالبوت قد اتخذ لنفسه مقعداً إلى جانب صديقه الكاهن. كان هذان الشقيان ينتظران في غرفة خلفية من الحانة يستمتعان بهذه الدراما المفجعة التي اشتركا في تأليفها.

في كل الأحوال, لم أصبح في واقع الأمر زوجاً لجدة جدتي, وقد أزاح هذا الأمر عن كاهلي أحمالاً من الهم لا حد لها؛ لكنني أصبحت بالفعل زوجاً للسيدة لالاند -أعني السيدة ستيفاني لالاند, إذ إن نسيبتي العجوز, لفرط طيبتها, رتّبت لي أمر الزواج من السيدة ستيفاني, بالإضافة إلى أنها جعلتني وريثها الوحيد بعد وفاتها..

هذا إذا كان الله سيتوفّاها ذات يوم.

خلاصة القول هي أنني شُفيت نهائياً من كتابة رسائل الحبّ نفضت يدي منها بالكامل، ولم يعد أحد يراني بدون نظارتين فوق أنفي!

سقوط دار أوشر

إن قلبه كبندول معلق فى الهواء، كلما مسته يدى دوى.

(ديبيراجيه)

وحدى على ظهر الجواد، أمضى فى منطقة مهجورة نائية من البلاد، فى يوم موحش بليد أغبر، صامت، تعلقت فيه سحب الخريف على مسافة منخفضة من السماء، وعبر مسافات الليل السوداء وجدتنى آخر الآمر على مرمى البصر من بيت (أوشر). كيف حدث ذلك ؟.. لا أعرف.. وكان للبيت تأثيراً يبعث على الحزن.. ماأن ألقيت عليه نظره حتى اجتاحتني كآبه لا قبل له بها..

وأقول كآبه لا تطاق.. لأن ذلك الشعور لم تنجح فى القضاء عليه تلك النزعة الشعرية الفطرية التى يتلقى بها الوجدان عادة أغرب المناظر الطبيعية لما هو بعيد ورهيب.. ورددت النظر إلى البيت والجو الغامض الذي يلفه. الجدران المقبضة. النوافذ العالية التي تشبه العيون. نبات الحلفاء المتتشر في صفوف. جذوع الشجر البيضاء. الفروع النخرة.

شعرت بهبوط حاد في الروح يشبه شعور المدمن على مخدر حين يزول عنه خدره! وتلك الزلة المريرة في حياة كل يوم، يسقط عنها قناعها البشع. تحجَّر قلبى بشده. صار كالجليد فى لحظة. شعرت به يغوص. يستسلم. ووحشة الفكر لاحدود لها..

توقفت أرى الأمر في رأسي.. ماهو ذلك الباعث الذى دفعنى لتأمل على بيت أوشر؟!

كان يبدو أنه سؤال بلا إجابة ولغز لا حل له.. وشعرت بهبوط في الروح وخدر في الأطراف أقوى، وأنا أخبر عدم قدرتي على الاسترسال في تلك الأخيلة الغامضة التي استشهدت في ذهني وأنا ماض في تأملي.. ولم أجد مناصاً من أن أنتهي إلى رأي لا يروق لي.. مضمونه أنه فى الوقت الأعلى الذي لاجدال فيه في أن هناك توافقاً أكيدا بين رموز طبيعية بسيطة، لها القدره على أن تؤثر فينا بصفتها المجردة، فإن تحليل تلك القدره بعيد عما يمكن أن نصل إليه من عمق سحيق..

وخطر لي أننا لو أجرينا تغييراً طفيفاً لا يكاد يذكر فى ترتيب أجزاء المشهد وفى ترتيب تفاصيل الصوره؛ لكان بمقدورنا أن نخفف من تأثيره المزين هذا إذا لم نتخلص منه نهائياً..

ومن هذا المنطلق بدأت أعمل!

سرت بجوادى إلى ربوة مرتفعة قليلا تطل على بركة ماء أسود راكد، كانت موجودة بالقرب من البناء وكان لسطحها لمعان غير مشوش.. حدقت فى المنظر وأنا أرتعد، وسرت رجفة أقوى من ذى قبل فى سائر جسدي.. المشهد المقبض بذات التفاصيل.. جذوع الشجر النخرة.. الكيانات الرمادية والنوافذ المهجوره كالعيون، بيد أني قدرت فيما بينى وبين نفسي

أن أقضي في هذه القصر الغامض عدة أسابيع حيث كان صاحبه روديربك أوشر أحد رفاقى فى سن الشباب الأولى، إلا أن سنوات عديده مرت على آخر لقاء تم بيننا..

حتى جاء اليوم القريب الذي تسلمت فيه منه خطاباً، كنت في آخر أطراف البلاد وقتها، وعندما جائتنى رسالته وجدتها تحمل فى طياتها طبيعة مريبة تفرض عليّ الرد.. كانت طافحة بكل كل ما يدل على الاضطراب النفسى والعصبى! فضلاً عن مرض جسمانى جاد كان يتحدث عنه صاحبي في رسالته الحزينة تحوم حول العلة التي أصابته باختلال عقلي من نوع ما، ورغبة قاهرة ملحة استولت عليه في أن يرانى أنا شخصياً، ربما كان سبب ذلك إننى كنت أقرب ندمائه، ويمكنك القول أننى كنت الصديق الوحيد له فى واقع الأمر!

لعله ظن أنه واجد فى صحبتى الخفيفة اللطيفة مايسرى عنه اكتئابه ويخفف عنه ألمه النفسي وأوجاع بدنه، وكانت الحالة التي كتب بها الخطاب، أو ذلك البيان المستفيض من المشاعر الذي صحب رجاؤه، هو الذي لم يترك له فرصه للاختيار؛ فكان أن أذعنت من فورى لما زلت أعتبره فريداً فى كيانه.

ورغم صداقتنا المتينة في عهد الصبا، فإننى لم أكن أعرف عنه الكثير.. كان متحفظاً لأبعد درجة.. لكننى كنت أعلم أن أسرته العتيدة تميزت منذ زمن بعيد بدقه فى المشاعر وإحساساً عالياً متميزاً ظهر على مدى العصور فى الكثير من التحف الفنية البديعة.. كما برزت أخيراً فى تكرار أعمال البر والأنشطة الخيرية، وفى توجهها العاطفى لكل ماهو نبيل.

وكنت أعلم أيضاً تلك الحقيقة العجيبة المحزنة..

إن جزع الشجره الميت فى هذا البيت لم يحمل فى يوم من أيامه فرعاً طال بقاؤه!!.. الأسرة كلها مادامت على قيد الحياة فى هذا المكان الذى نشأت فيه، فيما عدا استثناءات صغيره لاتكاد تحصى على أصابع اليد الواحدة.

كان هذا النقص الذى استعرضته وأنا أهيم بخواطرى فى الموائمة الأمنية الأمينة بين طبيعة المكان وطبيعة سُكَّانه. وأفكر ماكان من الممكن أن يتخلف من أثر إحدى أساسيات الطبيعية على الأخرى على مر الزمان.

تمثَّل هذا النقص فى وجود فروع أخرى لهذا البيت، والتوارث المتسلسل الذى لا يحيد من الأب الى الأبن هو ما جمع بين الطبيعية تحت اللقب ذاته..

دار أوشر!!..

اللقب الذى يجمع فى عقول الفلاحين الذين ينطقون به الأسره والقصر معاً!

قلت فى عقلى إن تجربتى الطفولية كلها، تجربة النظر فى البحيرة، كان الهدف من ورائها هو تعميق الانطباع الأول النادر.. فلم يكن ثمة ريب فى أن الوعى بالزيادة السريعة فى تشاؤمى (ولماذا لا أطلق عليه اسم تشاؤم؟!) عجل من الزيادة نفسها!

كما عرفت منذ عهد بعيد، هذا هو القانون الغريب الذى يحكم كل ما يتصل بالخوف من عواطف، وربما يكون هو السبب في أنني، عندما رفعت عينى إلى البيت نفسه.. عن خياله فى الماء .. ظهر فى خاطرى خيال غريب:

صوره ساخره بالفعل، إني أذكره لأبين القوة الظاهرة للمشاعر التى استبدت بى، وانصرفت إلى خيالي انصرافاً جعلنى أؤمن حقاً بأن حول البيت، وأهله جواً غامضاً عليهم وعلى جيرانهم القربيين!..جو عجيب ساحر مقبض لا تجمعه بجو السماء جامعه..

مناخ لوثته أفرع الأشجار وجذوعها النخرة، وعبقته رائحه الجدران المتآكلة المتداعية، وماء البحيرة الراكدة..

جو مشبع بالبخار البليد.. جو موبوء ثقيل كالرصاص!.. ونفضت عن روحى ما كان يبدو كالكابوس الملعون البغيض، ورحت أنعم عيني بالنظر فى حقيقه البيت..

كانت ملامحه الأصلية ملامح مبنى من الطراز العتيق لعصر غابر تليد، عصفت يد الزمن القاسيه بألوانه عصفاً شديداً، وانتشرت على جدرانه الفطريات الرقيقة ونسجت عليها نسجاً من الطنف.. ولم يكن كل ذلك إلا النذر اليسير من البلى الذى عانى منه سطح البيت..

أما البناء نفسه فلم يسقط منه أي شيء.. إلا أنه كان واضحاً عدم وجود تماسك بين تلك الأجزاء السليمة وبين حالة التفتت التي عانت منها الأحجار الضخمة.. كان فى ذلك الكثير مما ذكرني بزخارف خشبية قديمة بالية حسنة المظهر رأيتها فى قبو مهجور لا يدخله الهواء.. كل شيء فى المكان يدل على خراب شامل.. وعلى الرغم من هذا فلم يكن ثمة خلل فى البناء ذاته.. لعل العين الدقيقة المدربة يمكنها أن تلاحظ وجود شق محسوس يمتد من البناء من الواجهه ويسير فى الجدران فى اتجاه متعرج حتى يذوب فى حياة البحيرات الداكنة.

بعد أن تأملت ذلك كله.. أخذت طريقي على جسر قصير يقود إلى البيت.. أسلمت جوادي للخادم قبل أن أدخل في قبو قوطي في ردهة البيت حيث تقدمني غلام نشيط، خفيف الحركة إلى حجرات مظلمة متداخلة في طريقنا إلى مرسم سيده.

وفي طريقي زاد ما رأيته، ولا أعرف كيف، من غموض العواطف التي تحدثت عنها.. في الوقت الذي كان كل ما يحيط بي: النقوش التي تزين السقف.

القط الأسود

لا أنتظر منكم، بل لست أتوقع أن تصدقوا الوقائع التي أسطرها هنا لقصة هي من أعجب القصص وإن كانت في الوقت ذاته مألوفة جدا.

سوف أكون مخبولا لو توقعت أن تصدقوا ذلك، لأن حواسي بالكامل ترفض أن تصدق ما شهدته ولمسته بنفسي. غير أنني لست مخبولا - وبالتأكيد أنا لا أحلم- وإذ كنت ملاقياً حتفي غداً فلا بد لي من أن أزيح هذا العناء الثقيل عن روحي.

ما أقصده هو أن أبسّط أمام العالم، بمنتهى الوضوح والدقة، وبدون أي تعليق من جانبي، سلسلة من الوقائع العادية جداً .. تلك الوقائع التي عصفت بوجداني و واصلت تعذيبي وأهلكتني، ومع ذلك لن أحاول تفسيرها، وإذا كنت لا أجد فيها غير الرعب فإنها لن تبدو للآخرين مرعبة بقدر ما ستبدو نوعاً من الخيال الغرائبي المعقد.

قد يأتي في مقبل الأيام ألمعي حصيف يهديه لبه إلى أن هذا الكابوس مجرد تسلسل أحداث طبيعي - وربما جاء جهبذ أكثر رصانة وأرسخ منطقاً وتفكيره أقل استعداداً للإثارة من تفكيري، ليرى في الأحداث التي أعرضها بهلع مجرد نتيجة منطقية لأسباب بديهية.

عُرِفْت منذ نعومة أظافري بوداعتي ومزاجي الإنساني الرقيق، حتى أن رقة قلبي كانت على درجة من الإفراط جعلتني موضوع تندر بين زملائي وقد تميزت بولع خاص بالحيوانات مما جعل أبواي يعبّران عن رضاهما عني بإهدائي أنواعاً من الحيوانات المنزلية.

مع هذه الحيوانات كنت أمضي معظم أوقاتي، ولم أعرف سعادة تفوق سعادتي حين كنت أطعمها وأداعبها.. نمت هذه الطباع الغريبة مع نموي، وكان لي في طور الرجولة أكبر مباعث البهجة.

الذين عرفوا مشاعر الغرام بكلب أمين ذكي سوف يفهمون بسهولة ما أود قوله عن مدى المتعة المستمدة من العناية بحيوان أليف.. إن في تعلق الحيوان بصاحبه تعلقاً ينكر الذات ويضحي بها ما يخترق قلب الإنسان الذي هيأت له الظروف أن يعاني من خسة الصداقة وضعف الوفاء عند بني آدم.

تزوجت في سن مبكرة وقد راقني أن أجد في مزاج زوجتي مالا يخالف مزاجي وإذ لاحظت ولعي بالحيوانات المنزلية لم تترك مناسبة تمر دون أن تقتني منها الأجناس الأكثر إمتاعاً وإيناساً. هكذا تجمع لدينا طيور وأسماك ذهبية وكلب جيد وأرانب وقرد صغير وقط.

كان هذا القط كبير الحجم بشكل واضح، بديع الشكل، أسود اللون بتمامه، وعلى قدر غريب من الذكاء، كانت زوجتي التي لا أثر للمعتقدات الخرافية في تفكيرها، حين تتحدث

عـن ذكائـه تشـير إلى الحكايـات الشـعبية القديمـة التـي تعتـبر القطـط السـود سـحرة متنكريـن.

هـذه الإشـارات لا تعنـي أنهـا كانـت في يـوم مـن الأيـام جـادة حـول هـذه المسـألة أذكـر هـذا لسـبب وحيـد هـو أنـه لم يـرد إلى ذهنـي قبـل هـذه اللحظـة.

كان بلوتـو – وهـذا هـو اسـمه- حيـواني المدلـل الأثـير وأنيـسي اللطيـف المفضـل، أطعمـه بنفـسي، ويلازمنـي حيثـما تحركـت في البيـت بـل كنـت أجـد صعوبـة لمنعـه مـن اللحـاق بي في الشـوارع.

اسـتمرت صداقتنـا عـلى هـذه الحـال سـنوات عديـدة، تبـدل خلالهـا مزاجـي وسـاء سـلوكي بفعـل إدمـاني الخمـر (إني أحمـرّ خجـلاً إذ أعـترف بذلـك) ويومـا بعـد يـوم تفاقمـت شراسـتي حـدة مزاجـي، واسـتعدادي للهيجـان، وتزايـد اسـتهتاري بمشـاعر الآخريـن.

لكـم عانيـت وتألمـت مـن جـراء التعبـيرات القاسـية التـي رحـت أوجههـا إلى زوجتـي، حتـى أننـي في النهايـة لجـأت إلى الإيـذاء الجسـدي في التعامـل معها..وبالطبـع فقـد استشـعرت حيوانـاتي هـذا التغـير في مزاجـي.

ولم أكتف بإهمالها بل أسأت معاملتها.

وإذا كان قـد بقـي لــ بلوتـو بعـض الاعتبـار مـما حـال دون إسـاءتي إليـه فإننـي لم أستشـعر دائمـاً في الإسـاءة إلى الأرانـب أو القـرد، أو حتـى الكلـب، كلـما اقتربـت منـي مصادفـة أو بدافـع الرغبـة غـير أن مـرضي قـد تغلـب عـلي – وأي مـرض كادمـان الكحـول!- ومـع الأيـام حتـى بلوتـو الـذي صـار هرمـاً ومـن ثـم عنيـداً نكـداً بـدأ يعـاني مـن نتائـج مزاجـي المختـل.

وفي ليـل كنـت عائـداً إلى البيـت مـن البلـدة التـي كـثر تـرددي إليهـا وقـد تعتعنـي السـكر؛ وخيـل إلي أن القـط يتجنـب حضـوري؛ فقبضـت عليـه، وإذ أفزعتـه حـركاتي العنيفـة خمشـني بأظفـاره وجرحنـي بأسـنانه جرحـاً طفيفـاً فتملكنـي غضـب الشـياطين وبـدا أن روحـي القديمـة قـد اندفعـت عـلى الفـور قافـزة خـارج جسـدي؛ وارتعـد كل جـزء في كيـاني بفعـل حقـد إبليـسي غـذّاه الخمـر.

تناولـت مـن جيـب سـترتي مطـواة، فتحتهـا وقبضـت عـلى عنـق الحيـوان المسـكين واقتلعـت عامـداً إحـدى عينيـه مـن محجرهـا!

إننـي أحتقـن، أحـترق، أرتعـد حـين أكتـب تفاصيـل هـذه الشـناعة المريضـة الجهنميـة. عندمـا عـدت إلى عقـلي في الصبـاح – لمـا نـام هيـاج الفسـوق الـذي شـهده الليـل- عذّبنـي شـعور هـو مزيـج مـن الرعـب والنـدم بسـبب الجريمـة التـي ارتكبتهـا، غـير أن ذلـك كان في أحسـن الحـالات شـعوراً ضعيفـاً وملتبسـاً لم يبلـغ منـي الأعـماق ومـن جديـد اسـتحوذ عـلي الإفـراط في الـشراب وسرعـان مـا أغـرق المخـدر كل ذكـرى لتلـك الواقعـة.

في هـذه الأثنـاء أخـذ القـط يتماثـل للشـفاء تدريجيـاً. صحيـح أن تجويـف العـين الفـارغ كان

يشكل منظراً شنيعا لكن لم يبد عليه أنه يتألم، وعاد يتنقل في البيت كسابق عهده، غير أنه كما هو متوقع، كان ينطلق وقد استبد به الذعر كلما اقتربت منه.

كانت ما تزال لدي بقايا من القلب القديم بحيث ينتابني الحزن إزاء هذا المقت المفضوح الذي يبديه لي كائن أحبني ذات يوم لكن سرعان ما حل الانزعاج محل الحزن وأخيراً جاءت روح الانحراف لتدفعني إلى السقوط الذي لا نهوض منه ..هذه الروح لا توليها الفلسفة أي اهتمام.

مع ذلك لست واثقاً من وجود روحي في الحياة أكثر من ثقتي أن الانحراف واحد من النوازع الأولية في القلب الإنساني، واحد من الملكات الأساسية أو المشاعر الأصيلة التي توجه سلوك البشري. من منا لم يضبط نفسه عشرات المرات وهو يقترف إثماً أو حماقة لا لسبب غير كون هذا العمل محرماً؟ أليس لدينا ميل دائم، حتى في أحسن حالات وعينا، إلى خرق ما يعرف بالقانون لمجرد علمنا بأنه قانون؟

روح الانحراف هذه هي التي تحركت تدفعني إلى السقوط النهائي.

إنها رغبة النفس الدفينة لمشاكسة ذاتها – لتهشيم طبيعة ذاتها- لاقتراف الإثم لوجه الإثم، هذه الرغبة التي لا يسبر غورها هي التي حرضتني على مواصلة الأذى ضد الحيوان الأعزل، وأخيراً الإجهاز عليه.

ذات صباح و عن عمد وتصميم لففت حول عنقه أنشوطة وعلقته بغصن شجرة!

شنقته والدموع تتدفق من عيني، وفي قلبي تضطرم أمرّ مشاعر الندم؛ شنقته لعلمي أنني بذلك أقترفخطيئة، خطيئة مميتة سوف تعرض روحي الخالدة للهلاك الأبدي، وتنزلها إن كان أمر كهذا معقولاً، حيث لا أنال بعدها أي رحمة.

في الليلة التي وقع فيها هذا العمل الآثم البغيض، استيقظت من النوم على صوت طقطقة النيران كان اللهب يلتهم ستائر سريري والبيت بكامله يشتعل ولم ننج أنا وزوجتي والخادم من الهلاك إلا بصعوبة شديدة.

كان الخراب تاماً!

ابتلعت النيران كل ما أملك في هذه الدنيا، واستسلمت مذ ذاك لليأس الأخير.

لم يبلغ بي الضعف مبلغاً يجعلني أسعى لإقامة علاقة سببية بين النتيجة وبين الفظاعة التي ارتكبتها والكارثة التي حلت بي. لكنني أقدم سلسلة من الوقائع وآمل ألا أترك أي حلقة مفقودة في هذا التتابع.

في اليوم الذي أعقب الحريق ذهبت أزور الأنقاض كانت الجدران جميعها قد تهاوت باستثناء جدار واحد، هذا الجدار الذي نجا بمفرده لم يكن سميكاً لأنه جدار داخلي يفصل بين الحجرات ويقع في وسط البيت، وإليه كان يستند سريري من جهة الرأس وقد صمد

طلاء هذا الجدار وتجصيصه أمام فعل النيران وهو أمر عزوته إلى كون التجصيص حديثاً.

أمام هذا الجدار كان يتجمهر حشد من الناس وبدا أن عدداً كبيراً منهم يتفحص جانباً مخصوصاً منه باهتمام شديد. وحركت فضولي تعبيرات تصدر عن هذا الحشد من نوع (عجيب!) (غريب!) (يا الهي!).. دنوت لأرى رسماً على الجدار الأبيض كأنه حفر نافر يمثل قطاً عملاقا.

كان الحفر مدهشاً بدقته ووضوحه، وبدا حبل يلتف حول عنق الحيوان.

عندما وقع نظري لأول مرة على هذا الشبح، إذ لم أكن أستطيع أن أعتبره أقل من ذلك، استبد بي أشد العجب وأفظع الذعر.

غير أن التفكير المحلل جاء ينقذني من ذلك لقد كان القط على ما أذكر معلقاً في حديقة متاخمة للبيت؛ فلما ارتفعت صيحات التحذير من النار، غصت الحديقة فوراً بالناس، ولابد أن شخصاً ما قد انتزعه من الشجرة وقذف به عبر النافذة إلى غرفتي، وربما كان القصد من ذلك تنبيهي من النوم ولابد أن سقوط الجدران الأخرى قد ضغط ضحية وحشيتي على مادة الجص الحديث للطلاء؛ اختلط كلس هذا الطلاء بالنشادر المتصاعد من الجثة وتفاعل به بتأثير النيران فأحدث الرسم النافر الذي رأيته.

وبالرغم من أنني قدمت هذا التفسير لأريح عقلي، إن لم أكن قد فعلت ذلك لأريح ضميري، فإن المشهد الغريب الذي وصفته لم يتوقف عن التأثير في مخيلتي، وعلى مدى أشهر لم أستطع أن أتخلص من هاجس القط؛ خلال هذه الفترة عاودني شعور بدا لي أنه الندم، ولم يكن في الحقيقة كذلك.

لم يكن أكثر من أسف على فقد حيوان، وتفكير بالحصول على بديل من النوع نفسه والشكل نفسه ليحل محله.

في ليلة ما، فيما كنت جالساً، شبه مخبول، في وكر من أوكار الرذيلة، إذ أنني أدمنت الآن ارتياد هذه الأماكن الداعرة، جذب انتباهي فجأة شيء أسود فوق برميل ضخم من براميل النبيذ أو شراب الروم، البراميل التي تشكل قطع الأثاث الرئيسية في ذلك المكان.

كنت طوال دقائق أحدق بثبات في رأس البرميل، وما سبب دهشتي هو أنني لم أتبين للحال طبيعة الشيء باستثناء شيء واحد. إذ لم تكن في أي مكان من جسم بلوتو شعرة بيضاء واحدة؛وكانت لهذا القط بقعة بيضاء غير واضحة الحدود تتوزع على منطقة الصدر بكاملها. حالما لمسته نهض وأخذ يهر بصوت مرتفع ويتمسح بيدي، وبدا مسروراً باهتمامي له، وإذن هذا هو بالضبط ما كنت أبحث عنه.

ومن فوري عرضت على صاحب الماخور شراءه، لكن هذا أجاب بأنه لا يملكه ولا يعرف شيئاً عنه، ولم يره من قبل.

واصلت مداعبتي له، ولما تهيأت للذهاب، اتخذ وضعية تبين أنه يريد مرافقتي، فتركته يصحبني، وكنت بين الحين والآخر أتوقف وأربت على ظهره أو أمسح رأسه.

لما وصل إلى البيت بدا أليفاً ولم يظهر عليه أي استغراب وعلى الفور صار أثيراً لدى زوجتي. أما أنا فسرعان ما وجدت الكراهية تتصاعد في أعماقي، وكان هذا عكس ما هداني التفكير إليه ولم أستطع أن أفهم كيف تعلق القط بي ولا سبب هذا التعلق الواضح الذي أثار نفوري وضايقني.

وأخذ الانزعاج والاشمئزاز يتزايدان شيئاً فشيئاً ويتحولان إلى كراهية بالغة، فأخذت أتجنب هذا الكائن؛ كان إحساس ما بالخزي والعار، وذكرى فظاعتي السابقة يمسكان بي عن إلحاق الأذى الجسدي به.

وامتنعت طوال أسابيع عن ضربه أو معاملته بعنف، لكن تدريجياً - وبتدرج متسارع- أخذت أنظر إليه بكره لا حد له وأبتعد بصمت عن حضوره الكريه كما أبتعد عن لهاث مريض بالطاعون.

ما أكدَّ مقتي لهذا الحيوان هو اكتشافي، صبيحة اليوم التالي لوصوله أنه مثل بلوتو ، قد فقد إحدى عينيه، غير أن هذا زاد من عطف زوجتي عليه لأنها كما ذكرت تملك قدراً عظيماً من المشاعر الإنسانية التي كانت ذات يوم ملامحي المميزة، ومنبعاً لأكثر المسرات براءة ونقاء.

كان هيام القط بي يزداد بازدياد كرهي له، فكان يتبع خطواتي بثبات يصعب تفسيره، فحيثما جلست، كان يجثم تحت مقعدي، أو يقفز إلى ركبتي ويغمرني بمداعباته المقززة، فإذا نهضت لأمشي اندفع بين قدمي وأوشك أو يوقعني، أو غرز مخالبه الطويلة الحادة في ثيابي ليتسلق إلى صدري، ومع أنني كنت أتحرق في مناسبات كهذه لقتله بضربة واحدة فقد كنت أمتنع عن ذلك بسبب من ذكرى جريمتي السابقة إلى حد ما، لكن بصورة أخص – ولأعترف بذلك حالاً- بسبب الرعب من هذا الحيوان.

لم يكن هذا الرعب خوفاً من شر مادي مجسد، مع ذلك أحار كيف أحدده بغير ذلك، يخجلني أن أعترف أجل، حتى في زنزانة المجرمين هذه، يكاد يخجلني الاعتراف بأن الرعب والهلع اللذين أوقعهما في نفسي هذا الحيوان ازدادا حدة بسبب من وهم لا يعترف به العقل.

كانت زوجتي قد لفتت انتباهي، أكثر من مرة إلى طبيعة البقعة البيضاء على صدر القط، والتي أشرت إليها سابقاً، تلك العلامة التي تشكل الفارق الوحيد بين هذا الحيوان الغريب وذاك الذي قتلته.

هذه البقعة على اتساعها لم تكن لها حدود واضحة، غير أنها شيئاً فشيئاً وبتدرج يكاد

لا يلحظ، تدرج صارع عقلي لكي يدحضه ويعتبره وهماً، اكتسبت شكلاً محدداً بوضوح تام صار لها الآن شكل ارتعد لذكر اسمه هذا الشكل هو ما جعلني أشمئز وأرتعب، وأتمنى التخلص من الحيوان لو تجرأت، كان الآن صورة لشيء بغيض شيء مروع هو المشنقة! يا الهي! أيّ آلة فظيعة جهنمية للشناعة و الإثم لإزهاق الروح والموت!

والآن لقد انحدرت إلى درك ينحط بي عن صفة الإنسان! كيف ينزل بي حيوان بهيم – قتلت مثله عن سابق تصميم- حيوان أعجمي ينزل بي أنا الإنسان المخلوق على صورة كريمة، كل هذا الويل الذي لا يحتمل! وا أسفاه! ما عدت أعرف رحمة الراحة لا في النهار ولا في الليل! ففي النهار لم يكن ذلك الكائن ليفارقني لحظة واحدة، وفي الليل كنت أهب من النوم مراراً يتملكني ذعر شديد لأجد لهاث ذلك الشيء فوق وجهي، وثقل جسمه الضخم – مثل كابوس متجسد لا أقوى على زحزحته- يجثم أبدياً فوق قلبي.

وهكذا انهارت بقايا الخير الواهية تحت وطأة هذا العذاب، وصارت أفكار الشر خدين روحي، أشدَّ الأفكار حلكة وشناعة، ازدادت مزاجيتي سوداوية حتى تحولت إلى كراهية للأشياء بأسرها وللجنس البشري بالكامل، وأخذت نوبات غضبي المفاجئة المتكررة التي لم أعد أتحكم بها واستسلمت لها كالأعمى، أخذت تطال ويا للحسرة زوجتي، أشد الناس جلدا على الآلام.

رافقتني ذات يوم لقضاء بعض الأعمال المنزلية في قبو المبنى القديم حيث أرغمتنا الفاقة على السكنى، تبعني القط على الدرج وكاد يرميني، فاستشاط غضبي الجنوني.

رفعت فأساً متناسياً ما كان من خوفي الصبياني الذي أوقفني حتى الآن، وسددت ضربة إلى الحيوان كانت ستقضي عليه لو أنها نزلت حيث تمنيت، غير أن يد زوجتي أوقفت هذه الضربة.

كان هذا التدخل بمثابة منخاس دفع بغضبي إلى الهياج الشيطاني انتزعت يدي من قبضة زوجتي ودفنت الفأس في رأسها، فسقطت ميتة دون أن تصدر عنها نأمة.

لما ارتكبت هذه الجريمة البشعة، جلست على الفور أفكر في التخلص من الجثة عرفت أنني لا أستطيع إخراجها من البيت لا في الليل ولا في النهار دون أن أخاطر بتنبيه الجيران.

مرت برأسي خطط عديدة..

فكرت بأن أقطع الجثة إرباً ثم أتخلص منها بالحرق وفكرت في حفر قبر لها في أرض القبو كما فكرت في إلقائها في بئر الحوش، أو أن أحشرها في صندوق بضاعة وأستدعي حمالاً لأخذها من البيت.

وأخيراً اهتديت إلى أفضل خطة للتخلص منها قررت أن أبنيها في جدار القبو، كما كان الرهبان في القرون الوسطى يبنون ضحاياهم في الجدران.

كان القبو مناسباً لهذا الغرض فقد كان بناء جدرانه مخلخلاً وقد تم توريق الجدران حديثاً بملاط خشن حالت الرطوبة دون تصلبه وفوق ذلك كان في أحد الجدران تجويف بشكل المدخنة تم ردمه بحيث تستوي أجزاء الجدار، وتأكد لي أن باستطاعتي انتزاع قطع الطوب من هذا التجويف وإدخال الجثة، وبناء التجويف ليعود الجدار كما كان بحيث لا ترتاب العين في أي تغيير.

ولم تخطئ حساباتي.

استعنت بمخل لانتزاع قطع الطوب، وأوقفت الجثة بتأن لصق الجدار الداخلي ودعمتها لتحتفظ بوضع الوقوف، فيما كنت أدقق لأعيد كل شيء إلى ما كان عليه كنت قد أحضرت الملاط والرمل والوبر، فهيأت الخليط بمنتهى الدقة والعناية بحيث لا يميز من الملاط السابق، وأعدت كل قطعة طوب إلى مكانها.

عندما أكملت العمل أحسست بالرضا عن النتيجة لم يكن يبدو على الجدار أدنى أثر يدل على أنه قد لمس نظفت الأرض بمنتهى العناية ونظرت حولي منتصراً وقلت في نفسي: لم يذهب جهدي سدىً

كانت الخطوة الثانية هي البحث عن الحيوان الذي سبب لي هذه الفاجعة المتوحشة، ذلك أنني قررت القضاء عليه، لو عثرت عليه في تلك اللحظة لما كان هنالك من شك في أمر مصيره. لكن يبدو أن الحيوان الذكي أدرك عنف غضبي فاختفى متجنباً رؤيتي وأنا في ذلك المزاج. يستحيل علي أن أصف عمق الراحة والسكينة التي أتاحها لروحي غياب ذلك الحيوان.

لم يعد للظهور تلك الليلة وهكذا ولأول مرة منذ وصوله إلى البيت نمت بعمق وهدوء، أجل نمت على الرغم من وزر الجريمة الرابض فوق روحي مر اليوم الثاني ثم الثالث ولم يظهر معذبي، ومن جديد تنفست بحرية. لقد أصيب الوحش بالذعر فنجا بنفسه نهائياً! ولن يكون علي أن أتحمله بعد الآن! كانت سعادتي بذلك عظيمة! ولم يؤرق مضجعي وزر الجريمة السوداء إلا لماما.

جرت بعض التحقيقات وقدمت أجوبة جاهزة بل كانت هناك تحريات، غير أن شيئاً ما لم يكتشف، وأدركت أن مستقبل هنائي في أمان.

في اليوم الرابع بعد وقوع الجريمة جاءت فرقة من الشرطة إلى البيت بشكل لم أتوقعه وبدأت تحريات واستجوابات دقيقة، لكن بما أنني كنت مطمئنا إلى إخفاء الجثة لم أشعر بأي حرج سألني ضباط الشرطة أن أرافقهم إلى القبو، فلم ترتعد فيَّ عضلة واحدة. كان قلبي ينبض بهدوء كقلب بريء نائم. رحت أذرع القبو جيئة وذهاباً عاقداً ذراعي فوق صدري.

اقتنع رجال الشرطة بنتائج بحثهم واستعدوا للذهاب، كانت النشوة في قلبي أقوى من

أن أكتمها. كنت أتحرق لقول كلمة واحدة، لفرط ما أطربني الانتصار، ولكي أزيد يقينهم ببراءتي.

- أيها السادة

قلت أخيراً، لما كان الفريق يصعد الدرج.

– يسعدني أن أكون قد بددت كل شكوككم أتمنى لكم تمام الصحة و دوام العافية ومزيداً من التهذيب، بالمناسبة أيها السادة، هذا بيت مكين البناء - في رغبتي العارمة لقول شيء سهل،لم أجد ما أتلفظ به - إنه بيت مبني بشكل ممتاز هذه الجدران- هاأنتم ذاهبون أيها السادة- هذه الجدران متماسكة تماما

وهنا، وبنوع من الزهو المتشنج- طرقت طرقاً قوياً على الجدار بعصا كانت بيدي، تماماً في الموضع الذي أخفيت فيه زوجة قلبي.

لكن ليحمني الله من مخالب إبليس الأبالسة!

لم تكد اهتزازات ضربتي تغرق في الصمت حتى جاوبني صوت من داخل القبر! صرخة مكتومة متقطعة بدأت كبكاء طفل، لكن سرعان ما أخذت تتعاظم وتتضخم لتغدو صرخة واحدة هائلة مديدة شاذة غريبة وغير آدمية على الإطلاق. غدت عواء عويلاً مجلجلاً يطلقه مزيج من الرعب والظفر، وكأنما تتصاعد من قيعان الجحيم تتعاون فيها حناجر الملعونين في سعير عذاباتهم والشياطين إذ يهللون اللعنات ويرددونها.

من الحمق أن أحدثكم عن الأفكار التي تصارعت في رأسي ترنحت منهاراً وتهاويت متلطما مستنداً إلى الجدار المقابلللحظة واحدة ظل فريق الشرطة مسمراً على الدرج بفعل الرعب والاستغراب.

وفي اللحظة التالية كانت بضع عشرة ذراعاً شديدة تهدم الجدار.

انهار دفعة واحدة.

كانت الجثة قد تحللت إلى درجة كبيرة وغطاها الدم المتجمد، وهي تنتصب واقفة أمام أعين المشاهدين وعلى رأسها يقف القط الأسود الكريه بفمه الأحمر المفتوح وعينه الوحيدة النارية، القط الذي دفعتني أفعاله إلى الجريمة ثم أسلمني صوته الكاشف إلى حبل المشنقة.

كنت قد بنيت الجدار والقط داخل القبر!

قصص من جورجي لويس بورخيس

**

وردة صفراء

لم يمت جيامباتيستا مارينو الرجل المشهور العظيم الذي أجمعت أبواق المجد (ونحن نستعمل هنا مجازا كان يحبه كثيرا) على تعميده هومير الجديد أو دانتي الآخر-لم يمت في تلك الأمسية ولا في غيرها بيد أن الحدث الثابت الصامت الذي وقع حينئذ كان في الحقيقة آخر حدث في حياته. فبد أن أغدقت له العطاء والمجد الأعوام احتضر الرجل في سرير أسباني واسع منقوش الأعمدة بالزخارف.

لن يرهقنا الأمر كثيرا أن نتخيل علي بعد خطوات منه شرفة هادئة تولي وجهها شطر الغروب وتحت الشرفة مرمرا وغارا وحديقة تضاعف أدراجها في صهريج مربع. وضعت امرأة في كأس وردة صفراء فتمتم الرجل البيتين اللذين لا مفر منهما واللذين كانا إذا شئنا أن نتحدث بصدق قد أضجراه قليلا: أرجو أن تكون الحديقة بكرم المروج الباذخ برعم الربيع ومقلة أبريل.

إذ ذاك برح الخفاء عندما رأى مارينو الوردة علي نحو ما تمكن آدم من رؤيتها في الفردوس فشعر بأنها كانت في خلودها وليس في كلماته وأننا يمكن أن نذكر أو نلمح لكن لا نستطيع التعبير وأن المجلدات السامقة والشامخة التي تشكل في إحدى زوايا الحجرة عتمة من ذهب لم تكن (مثلما حلم غروره بذلك) مرآة للعالم وإنما شيئا آخر ملحقا به. أدرك هذا الإلهام مارينو في الأمسية التي مات بها ولعل هوميروس ودانتي قد أدركاه أيضا.

***

ذلك العلم الذي لا يرحم

رسم الخرائط، كفن، وصل في تلك الإمبراطورية درجة من الصرامة بلغت حد الكمال، بل شغلت خريطة إقليم واحد مدينة بأسرها وخريطة الإمبراطورية إقليما بأكمله. إلا أنه مع توالي الأيام لم تعد هذه الخرائط المتعذرة الحصر كافية؛ فرفعت معاهد واضعي الخرائط خريطة للإمبراطورية في حجم الإمبراطورية ذاتها! كانت تتطابق بدقة متناهية معها. ولكون الأجيال التالية كانت أقل تعاطيا لدراسة وضع الخرائط فقد رأت بأن هذه الخريطة المفرودة غير ذات جدوى فقدمتها ليس دونما شراسة طعاما سائغا لقساوات الشمس وفضول الشتاءات. ولا تزال في صحاري الغرب خرائب هذه الخريطة ممزقة قد سكنتها الحيوانات وآوى إليها الشحّاذون، ولم يعد بالبلاد كلها بقية أخرى من المذاهب الجغرافية.

***

الجحيم

منذ بداية غروب النهار وإلي غاية سواد الليل ثمة فهد في السنوات الأخيرة من القرن الثاني يرى عشر ألواحا من خشب وقضبانا عمودية من حديد ورجالا ونساء يتغيرون وحائطا وربما مصرف مياه صغيرا به أوراق ذابلة. لم يكن يعلم وما كان بمقدوره أن يعلم أنه يحن إلي الحب والقسوة وشهوة الافتراس الحرّاقة والريح المحمّلة برائحة أيل. غير أن شيئا فيه يختنق ويتمرّد فخاطبه الله في رؤيا منامية: إنك تعيش وستهلك في الأسر حتى يراك عددا معينا من المرات رجل أعرفه فلا ينساك ويضع صورتك ورمزك في أبيات قصيدة لها مكانها المحدد في حبكة نظام الوجود. تعاني السجن لكنك ستكون قد منحت القصيدة كلمتها الضالة . أضاء الله في المنام فظاظة الحيوان فأدرك العلل والأسباب وتقبّل القدر والمصير. بيد أنه عندما استيقظ لم يكن في دخيلته غير استسلام غامض وجهالة لا تعرف اللين لأن آلة العالم أعقد بكثير من بساطة وحش. سنوات بعد ذلك كان دانتي يحتضر في رافينه وحيدا وغير مبرر مثل أي رجل آخر. وفي رؤيا منام أطلعه الله علي الهدف الخفي من حياته وعمله فعلم مندهشا في نهاية المطاف من كان وماذا كان وبارك مرارته. يروي في الأثر أنه عندما استيقظ شعر بأنه استلم شيئا غير متناه ثم أضاعه. شيئا لم يكن بإمكانه استرجاعه ولا حتى إلقاء نظرة عجلى عليه لأن آلة العالم أكثر تعقيدا من بساطة الناس.

***

لغز

لنتخيل أنهم وجدوا في طليطلة علي ورقة بها نقش لحروف عربية يعترف المختصون في الكتابات القديمة بأنه كتب بيد وخط السيد أحمد بن الغالي الذي استمد منه سيرفانتس دون كيخوته. كلام النص المكتوب يقول أن البطل (الذي كان كما هو شائع عنه يقطع طرقات أسبانيا مسلحا بالسيف والحربة ويتحدى الكل لأي سبب) قد اكتشف بعد إحدى معاركه العديدة أنه أجهز علي رجل. عند هذا الحد يتوقف المقطع والمسألة هي أن علينا أن نتنبأ أو نخمن كيف كان رد فعل دون كيخوته. هناك على حد علمي ثلاث إجابات محتملة: أولاها من صنف سلبي:إذ لا يحدث أمر يذكر لأن الموت في عالم دون كيخوته المهلوس ليس أقل ابتذالا من السحر وقتل رجل ما كان له أن يربك من كان يقاتل أو يظن أنه يقاتل التنانين والسحرة.والإجابة الثانية مؤثرة: ذلك أن دون كيخوته لم يتمكن قط من نسيان أنه مجرد انعكاس لألونسو كيخانو قارئ الحكايات الخرافية إن رؤيته الموت وإدراكه أن حلما قد عرضه لارتكاب خطيئة قابيل يوقظانه من جنونه الاتفاقي ربما إلي الأبد. ولعل الإجابة الثالثة هي أكثر الإجابات احتمالا: فعندما يموت الرجل لا يستطيع دون كيخوته القبول بأن الفعل الشنيع نتيجة هذايات ذلك أن واقعية المعلول تجعله يفترض وجود طرف ثان هو واقعية العلة فلا يبرح دون كيخوته جنونه علي الإطلاق. يبقي تخمين آخر لا يمت بصلة إلي المدار الأسباني ولا حتى المدار الغربي ويتطلب مجالا أكثر قدما وأشد تعقيدا وأبلغ إرهاقا. فإزاء جثة العدو يحدس دون كيخوته -الذي يغدو حاليا أحد ملوك الهندوستان- بأن القتل والإنجاب عملان إلهيان أو سحريان يتعاليان علي نحو بيّن فوق الشرط البشري فيدرك بأن الميت مجرد وهم مثلما هي أوهام ذلك السيف المدمي الذي يُثقل قبضته وهو عينه وكل ما مضي من حياته الآلهة الشاسعة والكون.

***

مفارقة

بحث جندي عجوز من جنود الملك- عندما ألمت به السامة من أرض أسبانيا- عن سلواه في جغرافيات أريوسطو الممتدة للأبد وفي وادي القمر حيث الزمن الذي تبذره الأحلام وكذا في وثن ذهبي للنبي محمد كان مونطالبان قد استولى عليه خلسة. هكذا تخيل في سخرية بريئة من ذاته رجلا ساذجا أربكته قراءة الأعاجيب فخرج ينشد المفاخر والعزائم في مكانين مبتذلين هما توبوسو ومونتيل. وحينما هزمه الواقع ودحرته أسبانيا قضي دون كيشوت نحبه في القرية التي كان بها مسقط رأسه بالقرب من عام 1614 ميلادية. ولم يعش ميكيل دي سرفانتيس بعده إلا أمدا قصيرا. لقد كانت هذه الحبكة بالنسبة للرجلين: الحالم والمحلوم به مواجهة بين عالمين: عالم كتب الفروسية اللا واقعي والعالم اليومي والعادي المُعاش للقرن السابع عشر. لم يخامرهما الشك في أن السنين ستؤدي إلي وهن الخلاف وتلاشيه كما لم يرتابا في أن إقليمي لامانتشا ومونتيل وهيأة الفارس النحيل سوف لن تقل شاعرية في المستقبل عن رحلات سندباد ولا عن جغرافيات أريوسطو الشاسعة. ففي فجر الأدب هناك الأسطورة وكذلك في غروبه. مثل القصر في ذلك اليوم عرض الإمبراطور الأصفر علي الشاعر قصره. كانا يخلفان وراءهما في استعراض طويل السقيفات الغربية الأولى التي تنحدر مثل درجات مدرج يكاد يكون متعذر رؤيته لشساعته، صوب الجنة أو بستان تشخّص المتاهة على نحو مسبق مراياه المعدنية وسياجاته المتشابكة من نبات العرعر، ضلا بعذوبة فيها؛ فكانا بادئ الأمر كما لو استمرءا لعبة ثم ساورهما بعض القلق فيما بعد لأن ممرات المتاهة كانت تعتل بانحناءة بالغة الرخاوة وإن كانت متواصلة وتشكل خفية مجموعة دوائر عند منتصف الليل مكنتهما ملاحظة الكواكب وتقديم سلحفاة قربانا مناسبا من أن ينعتقا من تلك المنطقة التي بدت لهما فاتنة لكن ليس من الشعور الذي رافقهما إلي النهاية بأنهما تائهان. عبرا فيما بعد قاعات انتظار وأبهاء ومكتبات وغرفة سداسية الزوايا بها ساعة مائية وذات صباح لمحا من فوق صومعة رجلا من حجر قُد ثم فقداه بعد ذلك إلي الأبد. قطعا العديد من الأنهار اللامعة في زوارق من صندل أو قطعا نفس النهر مرارا وتكرارا. يمر الموكب الإمبراطوري فيسجد الناس لكنهما يصلان ذات يوم إلي جزيرة لم يسجد فيها ساكن لكونه لم يمر ابن السماء مطلقا فكان على الجلاد أن يحز عنقه. رأت عيناهما بلا مبالاة شعورا كالحة ورقصات سوداء وأقنعة معقدة من ذهب فكان الواقعي يختلط بالحلم أو كان الواقعي بعبارة أدق صورة أخرى من صور الحلم. كان يبدو من رابع المستحيلات أن تكون الأرض شيئا آخر غير حدائق ومياه وعمائر وأشكال بهاء. في كل مائة خطوة تخترق الفضاء صومعة ولون الصوامع بالنسبة للبصر هي الألوان ذاتها المعروفة بيد أن أولاهن جميعا كانت صفراء والأخيرة قرمزية فتدرج الألوان بالغ اللطف والسلسلة بالغة الامتداد.

عنـد قاعـدة الصومعـة مـا قبـل الأخـيرة ألقـى الشـاعر (الـذي كان يبـدو غـير عـابيء للمشـاهد التـي كانـت سـحر بـصر الجميـع) إنشـاءه الوجيـز الـذي نقرنـه اليـوم إلي اسـمه عـلى نحـو وثيـق لا تنفصـم عـراه والـذي أمـده كـما يكـرر أكـثر المؤرخـين أناقـة بالخلـود والمـوت. لقـد ضـاع النـص فهنـاك مـن يعتقـد بأنـه بيـت مـن الشـعر ويعتقـد آخـرون بأنـه كلمـة واحدة.لكـن الؤكـد المتعـذر التصديـق هـو أن القصيـدة كانـت تسـتوعب القـصر الهائـل كامـلا ومدققـا بـكل آنيـة خـزف عتيقـة وكل رسـم في كل آنيـة خـزف والعتـمات وأضـواء الغسـق وكل لحظـة شـقية أو سـعيدة مـن حيـاة السـلالات المجيـدة –سـلالات الفنانـين أو الآلهـة أو التنانـين الناريـة التـي سـكنته منـذ المـاضي الـلا متناهـي، منـذ الأزل. سـكت الجميـع لكـن الإمبراطـور صرخ: لقـد سـلبتني القـصر! فحصـد سـيف الجـلاد الحديـدي حيـاة الشـاعر. يـروي آخـرون هـذه القصـة عـلي نحـو مختلـف تمامـا. ففـي العـالم لا مجـال لوجـود شـيئين متناظريـن لـذا كان يكفـي (كـما أخبرونـا) أن يتلفـظ الشـاعر بالقصيـدة حتـى يتـلاشى القـصر كـما لـو أن المقطـع الأخـير منهـا محـاه أو محقـه. مـن الواضـح أن حكايـات مـن هـذا النـوع لا تعـدو أن تكـون تخيـلات أدبيـة: لقـد كان الشـاعر عبـدا للإمبراطـور ومـات كذلـك ووقـع إنشـاؤه موقـع النسـيان لأنـه كان جديـرا بالنسـيان. ومـا زالـت ذريتـه تكـد باحثـة عـن كلمـة الكـون- التـي لـن تعـثر عليهـا. غرفـة التماثيـل كانـت بمملكـة الأندلسـيين في الأيـام الغابـرة. مدينـة سـكنها ملوكهـم وكان اسـمها لبطيـط أو سـبتة أو جيـان. وكان بهـذه المدينـة حصـن منبـه لم تكـن أبوابـه ذات المصراعـين لتسـتعمل لا للدخـول ولا حتـى للخـروج وإنمـا لـكي تظـل موصـدة. وكلـما قـضي ملـك وورث آخـر عرشـه السـامق النبيـل أضـاف هـذا بيديـه قفـلا جديـدا لتلـك البـاب إلي أن بلـغ عـدد الأقفـال أربعـة وعشريـن لـكل ملـك قفـل. حينئـذ حـدث أن اسـتولى عـلى السـلطة رجـل شريـر لم يكـن مـن نسـل المملـوك وعـوض إضافـة قفـل أراد أن تفتـح لـه الأقفـال الأربعـة والعـشرون حتـى ينظـر إلى مـا في جـوف ذلـك الحصـن. توسـل إليـه الوزيـر والأمـراء ألا يقـترف ذلـك الأمـر وأخفـوا عنـه حلقـة المفاتيـح الحديديـة وقالـوا لـه بـأن إضافـة قفـل واحـد أسـهل مـن اغتصـاب أربعـة وعشريـن، بيـد أنـه كان يكـرر وبخبـث مدهش:أريـد معاينـة محتويـات هـذا الحصـن . إذ ذاك عرضـوا عليـه كل الـثروات التـي أمكـن جمعهـا مـن قطعـان وأوثـان مسـيحية وذهـب وفضـة غـير أنـه لم يرعـو فعالـج فتـح البـاب بيـده اليمنـى (التـي سـتحترق إلي أبـد الآبديـن). كانـت هنالـك بالداخـل هيـآت لأعـراب صيغـت مـن معـدن وخشـب قـد امتطـوا نوقهـم السريعـة وجيادهـم وعماماتهـم تتمـوج عـلي ظهورهـم وسـيوفهم المحدبـة علقـت في الأحزمـة والسـهم المسـتقيم عـن أيمانهـم. وكانـت الهيـآت كلهـا مـن طـرود فكانـت تلقـي عـلى الأرض ظـلالا وكان باسـتطاعة أعمـى أن يتعـرف عليهـا بواسـطة اللمـس فقـط ولم تكـن حوافـز الخيـول الأماميـة تحـاذي الأرض ولم تكـن تسـقط فكأنهـا قـد شـبت. لقـد أحدثـت هـذه الهيئـات المتقنـة الصنـع لـدى الملـك هلعـا عظيـما. وأحـدث أكـثر مـن ذلـك النظـام والصمـت البديـع الـذي تحافـظ عليـه إذ كانـت كلهـا تنظـر إلي نفـس الوجهـة التـي هـي المغـرب ولم يكـن

يسمع صوت ولا نفير.

ذلك ما كان بالغرفة الأولى من الحصن. وكانت بالثانية مائدة سليمان بن داوود-عليهما السلام- قد نحتت من حجرة زمرد لونها كما يعلم أخضر وميزاتها الخفية أصيلة ولا يمكن وصفها: فهي تهدئ العواصف وتحافظ علي عفة حاملها وتفزع الزحار والأرواح الشريرة وتعين علي كسب النزاعات وتنجد في حالات النفاس أعظم النجدة وعثروا في الغرفة الثالثة علي كتابين: كتاب للعلاج وكذا كيفية تحضير السموم والسموم المضادة والآخر أبيض لكن أحدا لم يتمكن من فك رموز تعاليمه رغم أن الكتابة كانت بينة فيه.ووجدوا في الغرفة الرابعة خارطة للعالم حيث الممالك والمدن والبحار والحصون والأخطار وجميعها يحمل اسمه الحقيقي ورسمه الدقيق التفصيلي. ووجدوا في الغرفة الخامسة مرآة في شكل دائري من صنع سليمان بن داوود-عليهما السلام-لا تقدر قيمتها بثمن لأنها صيغت من معادن مختلفة فمن نظر في قمرها رأى وجوه آبائه وأبنائه وأبناء أبنائه منذ آدم أول الخلق إلى من سيسمع صوت النفخ في الصور. وكانت السادسة مليئة بالإكسير بحيث يكفي النزر اليسير منه لتحويل ثلاث الآف أوقية من فضة إلي ثلاث آلاف أوقية من ذهب بغير نقصان. وبدت لهم الغرفة السابعة خالية وكانت بالغة الطول إلى درجة أن أكثر القواسين دربة إذا صوب سهما من عند الباب لم يتمكن من إيصاله إلى منتهاها. ورأوا علي الحائط الأخير نقشا به كتابة رهيبة. فحصها الملك وأدرك مغزاها فإذا هي تقول ما معناه: لو أن يدا فتحت باب هذا الحصن فإن مقاتلين من لحم ودم علي صورة مقاتلي المعدن الموجودين في مدخله سيهجمون على المملكة . وقعت هذه الأمور في العام التاسع والثمانين لهجرة المسلمين. وقبل نهاية العام استولى طارق على ذلك الحصن وهزم ذاك الملك وباع نساءه وأولاده ودمر أراضيه. هكذا شرع العرب في الانتشار بمملكة الأندلس حيث أشجار التين والبساتين المروية بعنياة والتي لا يظمأ فيها أحد. أما ما جري للكنوز فقد غدا مشهورا أن طارق بن زياد سلمها إلى سيده الخليفة الذي أخفاها في قلب هرم.

***

رؤيا

يعرف التاريخ أن أشد حكام السودان قسوة كان يعقوب العليل الذي سلم بلاده لظلم جباة الضرائب المصريين ومات في إحدى غرف القصر في اليوم الرابع عشر من شهر برمهات سنة 1842. يلمح البعض إلى أن كاتب الرقي عبد الرحمن الصمدي أجهز عليه بخنجر أو دس له السم بيد أن الموت الطبيعي هو ما يبدو الأقرب للذهن- إذ كان الرجل يُعرف بالعليل. ومع ذلك فقد تحدّث النقيب ريتشارد فرانسيس بورتون إلى كاتب الرقي المذكور سنة 1853 ميلادية وحكى بأنه روي له ما ننقله هنا عنه حرفيا: حقيقة عانيت الأسر في قصر يعقوب العليل بسبب المؤامرة التي دبرها أخي إبراهيم والنجدة الخادعة الباطلة التي قدمها زعماء زنوج كوردفان الذي وشوا به. مات أخي ضربا بالسيف علي جلد دم العدالة بيد أني ارتميت عند قدمي العليل القذرتين وقلت له بأني كاتب رقي وأنه لو أبقاني علي قيد الحياة لأريته أشكالا وأطيافا أشد روعة من تلك التي تشع من فانوس خيال الظل. طالبني بالدليل في الحال، فالتمست قلما من قصب ومقصا وورقة كبيرة من ورق البندقية وقرن طافح بالمداد ومجمرة وبذور كزبرة وأوقية من لبان الجاوي. قطعت الورقة إلي ستة شرائط مستطيلة متساوية فكتبت طلاسم وأدعية في الشرائط الورقية الخمسة الأولي وكتبت في الشريط الباقي هذه الآية الكريمة التي وردت في القرآن: وكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد . بعد ذلك رسمت مربعا سحريا في يمين يعقوب وطلبت منه أن يجوفها ثم صببت دائرة من الحبر في وسط المربع. سألته عما إذا كان يبصر رسمه في الدائرة بوضوح فأجاب غائبا أن نعم. قلت له بألا يرفع عينيه. أشعلت الجاوي والكزبرة ثم أحرقت الأوراد في المجمرة. طلبت منه أن يسمي الهيأة التي يريد رؤيتها ففكر ثم قال لي بأنه يريد رؤية فرس متوحش من أجمل ما يرعى في المراعي في امتداد الصحراء. نظر فرأى الحقل الأخضر الساجي ثم أبصر فرسا يدنو خفيف الحركة مثل فهد وعلي غرته نجمة بيضاء. طلب مني رؤية قطيع. أدركت إذ ذاك أني نجوت بحياتي. بمجرد ما بزغ ضوء الفجر دخل جنديان إلى زنزانتي وقاداني إلى غرفة العليل. حيث كان البخور والمجمرة والحبر في انتظاري هكذا شرع يطالبني وأخذت أعرض عليه جميع أطياف العالم. لقد كان في يد هذا الرجل الفاني الممقوت من كل ما رآه الرجال الأموات وكل ما يراه الأحياء: المدن والأقاليم والممالك التي تنقسم الأرض إليها والكنوز المخبأة في المركز والسفن التي تعبر البحر وعدة الحرب وسلم الموسيقى ومباديء التشريح والنساء الجميلات والنجوم الثابتة والكواكب والألوان التي يستعملها الكفار في رسم لوحاتهم الفاحشة والمعادن والنباتات التي تنطوي علي أسرار وفضائل وملائكة الفضة الذين يقتاتون من مدح الله وتسبيحه وتوزيع الجوائز في المدارس وتماثيل الطيور والملوك الموجودة في قلب الأهرامات والظل الذي يصدر عن الثور الذي

يحمل الأرض وظل السمكة التي أسفل الثور وصحاري الإله الرحيم. رأى أمورا يعجز عنها الوصف مثل الشوارع التي تضاء بالغاز ومثل الحوت الذي يلقى حتفه إذا سمع صراخ ابن آدم. ذات مرة أمرني بأن أريه الأرض التي تدعي أوروبا فأريته الرئيسي من شوارعها وأظن أنه في خضم نهر الرجال ذاك وكلهم تزين بالسواد وبعضهم حمل منظارا أبصر وجه المقنع للمرة الأولي. منذ ذلك الحين تسربت تلك الصورة إلى المرئيات تارة في زي سوداني وتارة في بدلة موحدة وفي جميع الأحوال كانت تتدلى على الوجه قطعة ثوب. لم يكن يخلف ولم نخمن من يكون. ومع ذلك فأطياف مرآة الحبر التي كانت موقوتة وثابتة في البداية غدت الآن أكثر تعقيدا. لم تكن تتأخر في تنفيذ أوامري وكان المستبد يتتبعها بوضوح واهتمام. من المؤكد أننا كلانا تعودنا علي الإرهاق الذي يعقب ذلك وكانت الخاصية الفظيعة للمشاهد منبعا آخر للتعب فلم تكن غير عقوبات وحبال وعمليات بتر ملذات للجلاد والطاغية. هكذا نصل إلى فجر اليوم الرابع عشر من شعر برمهات. لقد رسمت دائرة الحبر في الكف وألقي لبان الجاوي والكزبرة في المجمرة وأحرقت الأدعية حيث كنا بمفردنا وأمرني العليل بأن أعرض عليه عقابا عادلا متعذر الاستئناف لأن قلبه كان في ذلك اليوم يتشهي رؤية موت. أريته الجنود بطبولهم وجلد عجل ممطوطا والأشخاص الذين يسرهم النظر والجلاد بيده سيف العدالة البتار. تعجب عند رؤيته وقال لي: إنه أبو قير منفذ حكم الإعدام في أخيك وخاتم مصيرك عندما يوهب لي علم استدعاء هذه الهيآت دون معونتك . طلب مني استقدام المحكوم عليه وعندما أحضروه بهت إذ كان عين الرجل المتعذر الشرح ذي الثوب الأبيض. أمرني أن ينزع قناعه قبل قتله فألقيت نفسي عند قدميه وقلت: آه يا ملك الزمان وجماع العصر وجوهره. ليس هذا الوجه مثل بقية الوجوه فلا نعلم اسمه ولا اسم أبويه ولا اسم المدينة التي هي وطنه لذلك لا أجرؤ علي مسه حتى لا أرتكب جريرة يجب أن أحسب حسابها . ضحك العليل ثم أقسم بحق السيف والقرآن أنه سيحتمل تبعات الإثم إن كان هنالك من إثم. عندئذ أمرت بأن ينضى المتهم من ملابسه ويربط إلى جلد العجل الممطوط وينزع قناعه. نفذت هذه الأوامر فتمكنت عينا يعقوب المرتعبتان من رؤية ذلك الوجه أخيرا –فكان وجهه هو. تلبسه الخوف والجنون فأمسكت يمينه المرتعشة بيميني التي كانت ثابتة وأمرته أن يواصل التحديق إلى طقس موته. كان قد أصابه مس من المرآة فلم يحاول حتى رفع عينيه أو بعثرة المداد. وعندما انهال السيف في المشهد علي رأس الجاني انتحب بصوت لم يثر شفقتي ثم تدحرج علي الأرض ميتا. سبحان الحي الذي لا يموت من بيده مفاتيح المغفرة اللا محدودة والانتقام الأبدي .

***

سور الكتب

قرأت في الماضي البعيد أن الرجل الذي أمر ببناء سور الصين الذي يكاد لا ينتهي كان ذلك الإمبراطور الأول (شي – هوانك – تي) الذي أمر أيضا بإحراق كل الكتب السابقة على عهده. إن صدور العمليتين الشاسعتين-إقامة خمسمائة أو ستمائة فرسخ من حجر في مواجهة البرابرة وإبادة شاملة للتاريخ أي الماضي-عن شخص واحد فتكونا على نحو من الأنحاء ميزتين له. قد طمأنني وأقلقني في الوقت عينه وعلى نحو معقد للغاية. إن استقصاء علل هذا الشعور هو المقصود من هذه الملاحظة. من الناحية التاريخية ليس هناك سر غامض وراء الإجراءين. فيما أنه كان معاصر الحروب هانيبال أخضع (شي – هوانك – تي) ملك الممالك الست لسلطانه وقضى على النظام الإقطاعي بالكامل ومن الجذور. أقام السور لأن الأسوار كانت تحصينات وأحرق الكتب لأن المعارضة كانت تعتمد عليها في الزهو بالأباطرة الأقدمين. إن إحراق الكتب وإقامة التحصينات مسألة شائعة في مهام الأمراء والأمر الوحيد الشاذ في تصرف (شي – هوانك – تي) هو المدى الذي عمل فيه. ذلك ما لمح إليه بعض المختصين بالشئون الصينية غير أني أشعر بأن الوقائع التي رويت هي أكثر من مغالاة أو من مبالغة غير أمينة الغرض. إنه لأمر عادي تسوير بستان أو جنة وليس كذلك تسوير إمبراطورية. كما أنه ليس من المبتذل الزعم بأن أكثر السلالات عراقة يمكن أن تنبذ ذاكرة ماضيها أسطوريا كان أم حقيقيا. لقد سلخ الصينيون من التاريخ ثلاثة آلاف سنة (وفي تلك السنون ظهر الإمبراطور الأصفر وتشوانكـ تزو وكونفوشيوس ولاوتزو) حينما أمر (شي – هوانك – تي) بأن يستهل التاريخ به. كان (شي – هوانك – تي) قد أمر بنفي أمه بسبب نشاطها الداعر ولم ير المحافظون في عدالته القاسية شيئا غير الشدة. ربما (شي – هوانك – تي) أراد إبادة الكتب الشرعية لأنها تدينه أو لعل (شي – هوانك – تي) أراد الضرب صفحا عن الماضي بأسره بغية محو ذكرى واحدة: فجور أمه (وهو في هذا لا يختلف عن ملك يهودي أمر بذبح طفل واحد). إن هذا التخمين جدير بالاهتمام بيد أنه لا ينبئنا عن السور وجه الأسطورة الآخير. وحسب رواية المؤرخين فإن (شي – هوانك – تي) حظر ذكر الموت، وجد في طلب إكسير الحياة الذي يهب الخلود واعتزل في قصر مجازي يتكون من عدد من الحجرات يعادل ما في السنة من أيام. وهذه الوقائع توحي بان السور في الحيز والنار في الزمان كانا حاجزين سحريين هدفهما إيقاف زحف الموت. لقد كتب باروخ سبينوزا بأن كل الأشياء تنشد البقاء في ذواتها ولعل الإمبراطور اعتقد هو وسحرته بأن الخلود أمر متأصل في الذات وأن الفساد لا يمكن أن يتسرب إلى فلك مغلق. لعل الإمبراطور أراد إعادة خلق مبدأ الزمن فتسمى الأول ليكون الأول في الواقع وتسمي (شي – هوانك – تي) ليكون علي نحو ما (شي – هوانك – تي) الإمبراطور الخرافي الذي ابتدع الكتابة والبوصلة. لقد منح هذا الأخير الأشياء أسماءها

الحقيقة حسب ما ورد في كتاب الطقوس وبموازاة ذلك فاخر (شي – هوانك – تي) في نقوش لا تزول بأن كافة الأشياء في عهده كانت لها الأسماء الصحيحة. حلم بإقامة سلالة ملكية خالدة فأمر بأن يحمل ورثته ألقاب الإمبراطور الثاني والإمبراطور الثالث والإمبراطور الرابع وهكذا إلي ما الأبد. لقد تحدثت عن غرض سحري ويجوز الافتراض كذلك بأن إقامة السور وإحراق الكتب لم يكونا فعلين متزامنين. فذلك (حسب النظام الذي تختار) يمكن أن يعطينا صورة لملك بدأ بالتدمير ثم استسلم للحفظ والترميم أو صورة لملك خاب أمله فدمر ما كان من قبله. وكلا التخمينين مؤثر وفاجع لكن كلاهما فيما أعلم يفتقر إلى سند تاريخي. يروي هربرت ألن جيلز بأن الذين خبأوا الكتب عملوا بحديدة حامية وحكم عليهم ببناء السور الخارق إلى يوم يهلكون. وهذا النبأ يدعم تأويلا آخر أو يتقبله بتسامح. فلعل السور كان مجازا ولعل (شي – هوانك – تي) حكم علي الذين يقدسون الماضي بعمل يعادل الماضي في امتداده وجبروته كما يعادله في بذاءته ولا جدواه. لعل السور كان تحديا ففكر (شي – هوانك – تي): إن القوم يحبون الماضي ولست أستطيع ولا جلادي دفعا لذلك الحب لكن سيأتي ذات يوم رجل يشعر بمثل شعوري فيحكم سوري مثلما حطمت الكتب ويمحو ذكراي فيصير ظلي ومرآتي وهو لا يدري . لعل (شي – هوانك – تي) سوّر الإمبراطورية لعلمه بأنها كانت هشة ودمر الكتب لما علم أنها كانت كتبا مقدسة أي تعلم ما يعلمه الكون بأسره أو ضمير كل إنسان. ولعل إحراق المكتبات وبناء السور عملان ينفي أحدهما الآخر علي نحو سري. إن السور العنيد الذي يلقي في هذه اللحظة وفي كل لحظة منظومة ظلاله على أرض لن أراها هو ظل ذلك القيصر الذي أمر أن تحرق ماضيها أكثر الأمم وقارا وإنه لمن المحتمل أن تؤثر فينا الفكرة في بغض النظر عن التخمينات التي توحي بها (ويجوز أن تكون فضيلتها قائمة في التعارض بين البناء والتدمير علي نطاق هائل). فإذا عممنا انطلاقا من الحالة الراهنة كان بوسعنا أن نستنتج بأن كافة الأشياء تتوفر على فضيلة في كينونتها وليس في أي محتوى تقديري. إن هذا يوافق أطروحة بينيديتو كروشي ولقد أثبت من قبل في 1877 بأن جميع الفنون تطمح إلي وضعية الموسيقي فالموسيقي وحالات البهجة وحب الخرافة والوجوه التي أعمل الدهر إزميله فيها وبعض مشاهد الغروب وبعض الأماكن -كل ذلك يحاول أن يخبرنا بمسألة مهمة أو لعله أخبر بمسألة مهمة كان علينا ألا نفقدها أو لعله يستعد لإخبارنا بمسألة مهمة. ولعل هذا الكشف الوشيك الذي لا يقع أن يكون الفعل الشامل للمسألة.

***

المرآة والقناع

عندما طاش غبار المعركة التي سحل فيها النرويجيون تحدث الملك السامق إلى الشاعر فقال له: - سأكون إينياك وتكون فرجيلي. إن المأثورات الأكثر لتفقد بريقها ما لم تصك في كلمات، أريد أن تغني انتصاري في مديح فاخر! فهل تعتقد أنك أهل لإنجاز هذه المهمة التي ستجعلنا كلينا في الخالدين؟ فرد الشاعر:- أجل يا مولاي إنني أنا أويان، أمضيت اثني عشر شتاء في دراسة فن العروض. أحفظ عن ظهر قلب الستين وثلاثمائة خرافة التي يقوم عليها صرح الشعر الحقيقي. شربت صنعة الفن من أولستر ومونستر. وتسمح لي القواعد باستعمال أكثر كلمات اللغة عراقة وعتاقة وأشد المجازات دقة وغرابة. أمسك بزمام الكتابة السرية التي تربو بفننا فوق محاولات الدهماء. يمكن أن أمدح الغراميات وسرقات المواشي والرحلات والحروب. أعرف الأنساب الأسطورية لكل الأسر المالكة في أيرلندا. أحيط علما بفضائل الأعشاب والتنجيم والأرقام والرياضيات والقانون الشرعي. هزمت أعدائي في مباريات ومناظرات شهيرة. تدربت علي الهجاء الذي يسبب أمراض البشرة بما في ذلك الجذام. أتقن استعمال السيف كما برهنت علي ذلك في المعركة. لكن أمرا واحدا أجهله؛ وهو شكرك على الشرف الذي تمنحني إياها. قال له الملك بارتياح وكان ممن يضجر بسهولة من الخطب الطويلة التي يلقيها الآخرون:- أعرف جيدا هذه الأمور. لقد أخبروني منذ وهلة بأن العندليب قد غرد في إنجلترا. فعندما تمر الأمطار والثلوج وحينما يعود العندليب من أراضيه الجنوبية عليك أن تلقي مديحك أمام الحاشية وأمام محفل الشعراء. أعطيك مهلة عام كامل وسيكون عليك أن تصقل كل حرف وكل كلمة. أما المكافأة فلن تكون كما تعلم دون جدارة عادتي الملكية ولا سهراتك الحالمة. قال الشاعر الذي كان أيضا أحد أفراد الحاشية:- أيها الملك إن أروع مكافأة هي التملي بطلعتك البهية. عندما انصرم الأجل وكان فترة أوبئة وفتن قدم الشاعر قصيدة المديح تلاها باطمئنان بطئ دون أن يعير المخطوط التفاتة واحدة وكان الملك يهز رأسه موافقا فكان الجميع يصنع صنيعه حتى أولئك الذين تزاحموا لدى الباب ولم يكونوا ليسمعوا شيئا. في الختام نطق الملك: - نلت الرضا وحظي عملك بالقبول. إنه نصر آخر مبين. لقد منحت كل صوت مدلوله وكل موصوف وصفه كما أنزل وكما عرف أوائل الشعراء. ليس في المديح كله صورة واحدة لم يستعملها القدماء: فالحرب هي لباس الرجال الجميل والدم هو ماء السيف. للبحر إله وإن السحب لتتنبأ بالمستقبل. لقد عالجت القافية بحذق وكذا الجناس الصوتي والسجع والكميات وزخارف علم البديع والتناوب الماهر بين الأوزان. فلو أن أدب أيرلندا ضاع كله لأمكن إعادة بنائه دون هدر بواسطة مديحك الكلاسيكي. سننسخه ثلاثون ناسخا مرتين. وصمت الجميع في مهابة وجلال ثم واصل الملك:- كل ما صنعت رائع وبديع ومع ذلك لم تقع واقعة. ففي المعاصم لا يجري الدم بأسرع مما

يجري والأيدي لم تنفع طليا للأقواس. لم يشحب لون أحد ولا ند عن امرئ صريخ المعركة ولا أحد واجه الفايكنج بصدره. بعد مهلة سنة سنصفق لمديح آخر منك أيها الشاعر. وللتعبير عن رضانا خذ هذه المرآة التي صنعت من فضة. قال الشاعر:- أشكركم وأفهم ما تقصدون من وراء حكمتكم الغالية. عادت نجوم السماء لاختراق طريقها للحب. غنى العندليب مرة أخرى في الأدغال الساكسونية فعاد الشاعر بمخطوطه وكان أقل طولا من سابقه. لم يكن يستظهر النص بل قرأه بقلق ملحوظ متجاهلا مقاطع معينة كما لو كان هو ذاته لا يدرك مغزاها أو لم يكن يريد لحرمته تدنيسا. ففي فوضاها الحربية يضطرب الرب الذي هو الثلاثة وهو الواحد إلي جانب آلهة أيرلندا الوثنية فضلا عمن سيحاربون مئات السنين بعد ذلك في مستهل المعركة الكبرى ولم يكن الشكل بأقل غرابة من ذلك؛ فالاسم المفرد يمكن أن يتحكم في فعل مسند إلي الجمع والحروف كانت ضد كل القواعد العامة والفظاظة تناوب العذوبة والمجازات متعسفة أو لعلها بدت كذلك. بادل الملك أهل الأدب المتحلّقين من حوله بضع كلمات ثم تحدث هكذا:- أستطيع أن أؤكد بصدد مديحك الأول أنه كان تلخيصا ناجحا لكل ما أنشد في أيرلندا. أما مديحك هذا فيفوق كل ما سبق كما يمحوه كذلك. إنه يعطله ويبطله ويزيل لمعانه. لذا فليس يستحقه الجهلة وإنما العارفون من النخبة. سيكون صندوق من عاج حارسا للتحفة النادرة. وإننا لنرجو من القلم اليتيم الذي صاغ أثرا بهذه النباهة البالغة أثرا يبزّه رفعة. ثم أضاف بابتسامة:- كلنا شخصيات في خرافة ومن الصائب التذكير بأن الرقم ثلاثة له الزعامة في الخرافات. تجرأ الشاعر علي التفوّه: نزوات الساحر الثلاث والتثليثات والثالوث الذي هو فوق كل جدال. فواصل الملك :- وبرهانا على غبطتنا بك خذ هذا القناع المصنوع من ذهب. قال الشاعر:- لكم جزيل الشكر ولقد فهمت ما تقصدون. عادت الذكرى السنوية ولاحظ حراس القصر أن الشاعر لم يحضر مخطوطا. نظر الملك إليه ليس دونما ذهول إذ كان يبدو شخصا آخر. أمر ما ليس الزمن بالضرورة حدد ملامحه وبدل أحوالها فبدت العينان وكأنهما ترنوان إلي بعد سحيق أو كأنهما عميتا. التمس الشاعر أن يتحدث إلي الملك ببضع كلمات فأخلى الحراس القاعة.

استفسر الملك:

- ألم تكتب القصيدة؟

فقال الشاعر بحزن:

- بلى. وليت العلي القدير منعني من إنجازها.
- إذن فلتبدأ بالتلاوة؟
- لست أجرؤ .

فأعلن الملك:

- لك مني الأمان الذي أنت بحاجة إليه.

قرأ الشاعر القصيدة. وكانت سطرا واحدا. ودون أن يتحمسا لقراءتها جهرا فقد نبسها الشاعر وملكه كما لو أن الأمر ابتهال سري أو سُبّة. ولم يكن الملك أقل اندهاشا من صاحبه ولا أقل انكسارا. نظر كلاهما إلى الآخر ووجهاهما شاحبان.

قال الملك:

- في سني شبابي أبحرت جهة المغيب فرأيت بإحدى الجزر كلابا سلوقية من فضة تلتهم خنازير برية من ذهب. وفي جزيرة أخري طعمنا من شذا البرتقال المسحور. وأبصرت في جزيرة غيرهما أسوارا عالية من ألسنة اللهيب. وفي أكثر تلك الجزر بعدا كان نهر كالقوس ومعلق يخترق السحاب تسبح في مياهه أسماك ذهبية وتبحر سفن في قبة السماء. إن هذه أعاجيب نادرة لكنها لا شيء أمام قصيدتك التي لابد أنها تحتويها جميعا. فأي سحر أوحى لك بها؟

قال الشاعر:

- تذكرت عند السحر أنني قلت كلمات لم أدرك مغزاها في البداية وهذه الكلمات كانت قصيدة. شعرت بأنني اقترفت زلة ربما تلك التي لا يغفرها الفكر .

غمغم الملك:

- الزلة التي نتقاسمها معا وهي أننا عرفنا حدود الجمال، هذه الهبة المحظورة على من لم يكتب لهم الخلود. آن لنا أن نكفّر عن ذلك. لقد منحتك من قبل مرآة وقناعا من ذهب وها هي الهدية الثالثة التي ستكون الأخيرة.

ثم أنه دس في يمين الشاعر خنجرا. نعلم عن هذا أنه ذبح نفسه فور خروجه من بوابة القصر، أما الملك فقد طاف شحاذا في طرقات أيرلندا التي كانت مملكته وأنه لم يعد تلاوة القصيدة البتة.

مسرحية
يولف الصغير
تأليف: هنريك إبسن

المؤلف

ولد هنريك إبسن في سكيين بالنرويج عام 1828 م، وعندما صار طفلاً كانت عائلته قد غرقت في الديون، وعانى هو من هذا الفقر المدقع لعده سنوات.

كان طموحه الأول هو الطب، لكنه هجره إلى الكتابة والعمل في المسرح .. ويذكر عالم المسرح الآن جيداً أولى مسرحياته (محاربو الفايكنج عند ملجلاند).. طبعت هذه المسرحية عام 1858 م، وفي العام نفسه تزوج إبسن من سوزانا ثوريثون ابنه أحد رجال الدين المسيحي.

واستطاع إبسن بواسطة منحة دراسية، عن طريقها تمكن من السفر إلى روما عام 1864 م وفي إيطاليا كتب مسرحية (اسم تجاري) عام 1866 م، التي ربح عن طريقها مبلغاً مناسباً، تم كتب (بيير جينت) عام 1867 م التي كتب لها الموسيقي فيما بعد الموسيقار (جريح). هاتان المسرحيتان ساعدتاه على تثبيت قدميه على أرض صلبة، مما أعطى اسمه بريقاً من نوع ما. وعدا زيارتان قصيرتان إلى النرويج، فقد عاش إبسن في إيطاليا وألمانيا حتى عام 1891 م.

بدءاً من رابطة الشباب عام 1869م وإبسن يكتب المسرحية الشعرية، وكان هذا في أشد اللحظات الحرجة التي مر بها وهو يكتب مسخراً قلمه لقضايا معينة، مثل تحرير المرأة، في أزمات نقدية شديدة، حتى قال أحد النقاد عن مسرحيته (بيت دمية)؛ إن صوت الباب الذي أغلقته (نورا)-بطله المسرحية-بعد شجارها مع زوجها- خلفها وهي خارجة من بيتها إلى حريتها .. صوت هذا الباب قد هزّ القرن التاسع عشر كله!

ومسرحيات أخرى تشمل أعمدة المجتمع ، البطة المتوحشة ، السيدة من البحر ، هيدا جابلر ، السيد البناء ، جون جابرييل بوركمان و عندما استيقظنا من الموت وعندما قاربت حياته من الانتهاء، فإن (إبسن)-أحد أعظم كتاب الدراما في العالم قد عانى من الشلل الدماغي الذي دمر ذاكرته للكلمات وحتى أحرف الهجاء..

حتى توفى عام 1906 م في أوسلو-التي كانت تسمى (كريستيانا) وقتها.

غرفة غاية في الأناقة، تقوم في وسط حديقة. ممتلئة بالأثاث الباهظ المنسق بعناية والنباتات والزهور بمختلف الألوان والأشكال. في الجهة الخلفية منها، ثمة أبواب زجاجية مفتوحة تقود إلى شرفة واسعة، من خلالها يرى منظراً شاملاً للخليج. وبالباحة أعمدة خشبية يقوم عليها سقف الغرفة. وعلى جانب كل حائط كان هناك باباً آخر .. وإلى جهة اليمين بابان وآخر عند المؤخرة .. ثمة منصة خشبية مرتفعة قليلاً عن الأرض، تراصت عليها أصص النباتات والزهور صفراء وحمراء وأخرى متسلقة على أعمدة خشبية. وتحت المنصة مباشرة توجد أريكة تبعثرت عليها الوسائد وبعض المفروشات الصغيرة الموشاة برقة. كانت هناك كذلك مقاعد وأيضاً منضدة صغيرة عند ركن الأريكة الأيمن. وعند يسار المنصة كانت هناك منضدة أكبر مع مقاعد ذات مساند للزراعين. وهنا وهناك كانت أوعية فخارية صغيرة بها عدد أقل من الزهور. وعلى المنضدة كانت هناك حقيبة سفر مفتوحة. إنه باكر يوم صيفي دافئ ذو طقس مشمس.

(ريتا إلميرز) تقف أمام المنضدة وهي تولي ظهرها للباب الأيمن إذ طفقت تفتح الحقيبة.. امرأة جميلة هي، مظهرها جيد جداً، في حوالي الثلاثين من العمر معتدلة القوام، نشطة، حيوية الحركة .. وكانت ترتدي ثياباً فاتحة اللون لتناسب وقت الصباح.

بعد دقيقة تأتي (آستا إلميرز) من الباب الأيمن .. كانت نحيفة العود، متوسطة الطول، لها شعر أسود وعينان عميقتان لا مزاح فيهما .. عمرها خمس وعشرون عاماً تقريباً .. كانت ترتدي كذلك ثوباً صيفياً لونه بني فاتح وأيضاً قبعة ومعطف ومظلة شمس وتحمل تحت زراعها حقيبة واسعة أنيقة ومغلقة .. تهم بتحية (ريتا).

آستا:

إذ هي واقفة عند مدخل الباب:

-عزيزتي (ريتا)! .. صباح الخير.

ريتا:

تلتفت خلفها وتومئ برأسها نحو القادمة:

-أوه .. أهو أنت يا (آستا)؟! .. لقد جئت من المدينة مبكراً إذن .. يا إلهي! كل هذا الوقت بالخارج!

آستا:

تضع أغراضها على أقرب مقعد:

-لم أشعر بالأمان قط .. ولم يكف رأسي أبداً عن القلق .. أنت تفهمين هذا الشعور بالطبع! .. من ثم وجدت أنني يجب أن أخرج لألقى نظرة على (يولف) الصغير .. وعليك أنت أيضاً.

تضع الحقيبة على المنضدة المجاورة للأريكة وتكمل:

-وهكذا جئت بواسطة القارب البخاري.

ريتا:

تبتسم إليها:

-وبالطبع يمكنني التخمين أنك قد سعدت بمقابلة صديق وسيم في هذه الرحلة ..؟

واستدركت في مرح:

-أعني بالصدفة طبعاً.

آستا:

بلهجة باردة:

-كلا .. لم يحدث شيئاً من هذا القبيل .. لم ألتق بأي شخص أعرفه على الإطلاق.

وأشارت إلى الحقيبة:

-ما هذا يا ترى؟

ريتا:

وهي تتجه إلى الحقيبة المفتوحة:

-إنها حقيبة سفر (إلفريد).

والتفتت إليها متسائلة:

-ألا تعرفينها؟

آستا:

تتهلل أساريرها وهي تقترب أكثر:

-ماذا؟ .. هل عاد (إلفريد)؟

ريتا:

بسعادة:

-نعم .. تخيلي هذا! .. جاء على غير انتظار في قطار الليل.

آستا:

تشرد قليلاً:

-أوه .. إذن هذا هو ما شعرت به! .. هذا هو ما دفعني إلى المجيء إلى هنا!

وتتساءل مواجهة (ريتا):

-وهو؟ .. ألم يكتب شيئاً على الإطلاق؟ .. ألم يرسل حتى بطاقة بريدية؟

ريتا:

تهز رأسها نفياً:

-ولا حتى كلمة واحدة.

آستا:

تتسائل مندهشة:

-ولم يرسل حتى برقية صغيرة؟

ريتا:

تهتف كالمتذكرة:

-بلى .. قبل ساعة من وصوله .. برقية قصيرة جداً .. وباردة جداً!

ثم وهي تضحك:

-لم يتغير فيه شيء بعد .. أليس كذلك؟

آستا:

تهز رأسها موافقة:

-نعم .. هو دائماً هكذا .. هادئ وبارد حيال كل شيء.

ريتا:

وهي تضحك في جزل طفولي:

-ولكن الطريف في كل هذا .. أنني قد استعدته ثانية.

آستا:

تبتسم بدورها:

-أجل .. لقد استعدتيه ثانية بالتأكيد.

ريتا:

بعد أن تتنهد:

-قضيت ليلة بأكملها لا أتوقع حضوره.

آستا:

كأنها لم تنتبه للعبارة الأخيرة:

-وكل شيء على ما يرام معه؟ .. لم يكن محبطاً .. أليس كذلك؟

ريتا:

تغلق الحقيبة وتبتسم:

-لقد بدا متألقاً تماماً وهو يقف عند مدخل الباب.

آستا:

تعلو شفتيها ابتسامة:

-ولا حتى متعباً من وعثاء السفر؟!

ريتا:

بلهجة جادة نوعاً:

-آه، نعـم، أعتقـد أنـه كان متعبـاً .. كلا .. كان متعبـاً للغايـة .. ولكـن -يـا عزيـزي المسـكين- يبـدو كـما لـو كان قـد سـار طريـق العـودة بأكملـه عـلى قـدم واحـدة.

آستا:

تسأل بجدية هذه المرة:

-والهواء عند المرتفعات العالية ... لابد أنه قد كان له تأثير كبير عليه!

ريتا:

تهز رأسها نفياً:

-كلا .. لا أعتقد هذا .. فلم أسمعه يسعل قط.

آستا:

تهز رأسها موافقة:

-حسناً .. كما تقولين .. فلقد حثه الطبيب على رحلة موفقة.

ريتا:

يبدو على وجهها شيئاً من التأثر:

-نعـم .. كل هـذا صحيـح .. حسـناً- ولكـن .. هـل يمكننـي أن أخـبرك يـا (آسـتا) كـم كان هـذا وقتـاً شـديد القسـوة مـربي .. لم أشـعر أبـداً بالرغبـة في الحديـث عـن هـذا الموضـوع .. كـما أنـك -إلى جانـب كل هـذا- نـادراً مـا تـأتي لزيـارتي .. كـما تفعلـين اليـوم.

آستا:

تبتسم مشجعة:

-آه .. نعم .. بالتأكيد .. بالرغم أن هذا لم يكن جيداً بالنسبة لي .. ولكن ..

ريتا:

تقاطعها:

-حسناً .. حسناً .. رغم كل شيء .. لديك المدرسة هناك في المدينة ..

ثم وهي تبتسم قائلة في لهجة ذات مغزى:

-والمشرف على الطرق .. لقد ذهب بعيداً هو كذلك ..

آستا:

متضايقة، لكنها تقول في مرح:

-أواه .. توقفي عن هذا يا ريتا:

ريتا:

ضاحكة:

-حسناً، حسناً. كما تشائين .. لا تقلقي بشأن مشرف الطرق ولكن يا (آستا) .. كم افتقد (إلفريد)! .. كما يبدو هذا المكان موحشاً! مثيراً للشجون! أوه .. لقد كان يبدو كما لو أن هناك جنازة بالدار!

آستا:

تقطب حاجبيها في دهشة:

-ولكن .. يا لرحمة الله .. لم تكن سوى ست أو سبع أسابيع!

ريتا:

وهي تهز رأسها موافقة:

-نعم ولكن يجب أن تتذكري أن (إلفريد) لم يبتعد عنى من قبل أبداً .. ليس أكثر من يوم وليلة طيلة العشر سنوات التي عشناها سوياً.

آستا:

في جدية:

-كلا .. ولهذا أراه وقتاً عجيباً طويلاً منذ ذهب في جولة السير بين الجبال قليلاً هذا العام.

ريتا:

وعلى شفتيها نصف ابتسامة:

-آه .. نعم .. من السهل بالنسبة لك أن تتحدثي على هذا النحو يا عزيزتي .. لو كنت مكانك-أعني شديدة الحساسية مثلك – لكنت تركته سريعاً .. ربما .. لكني لن أشعر أبداً بما يجب أن أشعر به .. سأفكر بعد استعارته .. أنت تفهمين هذا .. أليس كذلك؟

آستا:

تهز كتفيها في حيرة:

-كلا .. ولكن معظمه .. ربما لأنه لم يكن لدي ما أخسره.

ريتا:

بابتسامة مشاكسة:

-حقاً .. لا أحد .. لا أحد على الإطلاق!

آستا:

تمط شفتيها:

-لست أرى الأمر من تلك النظرة..

ثم تقول محاولة تغيير الموضوع:

-ولكن أخبريني يا (ريتا)، أين (إلفريد)؟ .. هل هو نائم؟

ريتا:

في ضيق:

-كلا .. لم يذق طعم النوم .. نهض مبكراً كعادته اليوم.

آستا:

يبدو عليها التأثر:

-أوه .. حسناً إذن .. إنه ليس مجهداً تماماً برغم كل شيء.

ريتا:

تهز رأسها علامة الموافقة:

-نعم .. لقد كان كذلك الليلة الأخيرة .. عندما كان هنا، لكنه أخذ يولف معه لأكثر من ساعة.

آستا:

في شيء من الشفقة:

-هذا الصبي العليل المسكين شاحب الوجه! .. هل بدأ التعلم مرة أخرى؟

ريتا:

تهز كتفيها:

-إن (إلفريد) يعتقد أن هذا مهماً جداً بالنسبة له، وهو يصر على ذلك كما تعرفين.

آستا:

في اهتمام:

-نعم .. ولكن أعتقد أنك يجب أن تفعلي شيئاً حيال ذلك.

ريتا:

بشيء من نفاذ الصبر:

-كلا .. كما تعلمين .. فهذا أمر لا يمكنني التدخل فيه، لابد وأن (إلفريد) يعرف الكثير عن هذا.

ثم تتنهد:

-إنه يعرف أفضل مني على كل حال، ثم ماذا تتوقعين من (يولف) أن يفعل في حاله هذه؟ .. لا يمكنه أن يعدو أو يلعب أو يجري هنا وهناك كما يفعل أترابه.

آستا:

بثبات:

-سوف أتحدث مع (إلفريد) بخصوص هذا الأمر.

ريتا:

وهي تشرد ببصرها جهة اليسار:

-حسناً يا عزيزتي .. فلتفعلي هذا .. آه .. ها هو قد جاء.

يأتي (إلفريد الميرز) من جهة الباب الأيسر، يرتدي ملابس خفيفة مناسبة لفصل الصيف، وهو رجل معتدل القوام، نحيل بعض الشيء، يبلغ من العمر حوالي الستة والثلاثين أو السبعة والثلاثين من الأعوام، نظره ضعيف، ويبدو ذلك من عينيه المرهقتين، وجفنيه الذابلين، كان له شعر كستنائي خفيف وكذلك اللحية كانت من الشعر البني الرفيع، وكان على وجهه تعبير من الجدية والفهم وحكمة السنون، ورزانة تناسب سنوات عمره وكهولته..

كان يقود طفلاً من يده .. هذا الطفل هو (يولف) الصغير، وهو يرتدي سترة صنعت خصيصاً كي تبدو في هيئة زي رسمي، لها أزرار طريفة على شكل ضفادع ذهبية صغيرة .. كان الطفل يعرج، متوكئاً على عكاز تحت إبطه الأيسر وهي جهة قدمه العرجاء .. لم يكن حجمه متناسباً مع عمره .. وكان يبدو مريضاً واهن البدن إلى درجة كبيرة، إلا أنه-بالرغم من ذلك- كانت لديه عينين تشعان بنور الذكاء.

الميرز:

يترك (يولف)، فارداً كلتا زراعية لـ(آستا) وعلى وجهة تعبير من السرور البالغ:

-(آستا)! .. عزيزتي الغالية (آستا)! .. كنت أفكر في أن أراك بيننا قريباً جداً .. وها أنت هنا أخيراً.

آستا:

تبتسم في سعادة مماثلة:

-رأيت أنه من الواجب عليّ أن أكون هنا .. بينكم .. مرحباً في منزلك مرة أخرى!

الميرز:

يصافحها بشدة:

-أشكرك .. أشكرك كثيراً.

ريتا:

-ألا يبدو في أفضل أحواله؟

آستا:

تتفرسه في أمعان:

-بل أكثر من رائع! .. أنظري كم تبدو عيناه متألقتان! .. نعم، لابد أنك قد استغرقت في الكتابة عندما كنت بعيداً هناك.

وبلهجة مرحة للغاية تقول وهي منتعشة بالسعادة:

-لعلك أنهيت كتابك كله .. هل فعلت حقاً يا (إلفريد)؟

الميرز:

يهز كتفيه ويتحشرج صوته قليلاً:

-أي كتاب؟ .. آه، نعم .. الكتاب .. هذا الـ ..

آستا:

تقاطعه:

-نعم .. لقد كنت على يقين من أن الأمر سيغدو أكثر يسراً إذا أنت ذهبت بعيداً وبدأت تعمل فيه بجدية .. أليس كذلك يا (إلفريد)؟

الميرز:

يهز رأسه موافقاً:

-بلي .. لقد فكرت في هذا أيضاً .. لكنك تعرفين يا عزيزتي .. إن الأمر يصير مختلفاً تماماً ..

ثم يبتلع ريقه بصوت مسموع:

-الحقيقة أنني لم أخط في الكتاب حرفاً!

آستا:

باندهاش

-لم تكتب؟

ريتا:

تغمغم في فهم:

-الأمر كذلك إذن! .. هذا هو السبب في أن الأوراق لا زالت في الحقيبة لم تمس أي منها!

آستا:

تتساءل ولم تفارقها الدهشة:

-ولكن يا عزيزي (إلفريد) .. ماذا كنت تفعل طوال هذا الوقت؟!

الميرز:

يبتسم

-فقط كنت أفكر .. وأفكر .. وأفكر ...

ريتا:

تلف زراعيتها حول عنقه:

-وهل فكرت- ولو قليلاً - في أهل بيتك؟

الميرز:

يبتسم في حنان:

-نعم .. يمكنك أن تثقي بهذا .. كل يوم كنت أفكر.

ريتا:

تتركه:

-آه .. حسناً ..إذن، كل شيء على ما يرام.

آستا:

تسأل في اهتمام:

-ولكن-بالرغم من أنك لم تخط حرفاً في الكتاب فإنك مازلت تبدو مشرقاً بالسلام النفسي .. إنك لا تتبع تلك القاعدة التي عشت عليها طويلاً .. أعني عندما يتجه عملك إلى منحنى سيء.

الميرز:

يهز رأسه موافقاً:

-إنك محقه تماماً في هذا .. لأنني-كما ترين- كنت غبياً حتى الآن .. هذا العمل المستمر في التفكير .. إنه يستهلك أفضل ما لديك .. ثم أن ما يتم وضعه على الورق لا يستحق كل

هـذا العنـاء.

آستا:

بصيحة اعتراض:

-لا يستحق كل هذا العناء؟!

ريتا:

تضحك:

-هل جننت يا (إلفريد)؟

يولف:

يرفع عينيه إلى أبيه ويقول بثقة:

-ولكن يا أبي .. إن ما تكتبه يستحق الكثير:

الميرز:

يربت على شعر ابنه بحنان:

-حسـناً، حسـناً .. كـما تقـول .. ولكـن صدقنـي، ثمـة شـخص مـا سـوف يـأتي سـيكون قـادراً عـلى فعـل هـذا بشـكل أفضـل.

يولف:

وعلى وجه حيرة طفولية:

-من يا ترى؟ .. هيا أخبرنا؟

الميرز:

يبتسم مجيباً ابنه:

-لا تتعجل يا بني .. سوف يأتي ليعلن عن نفسه في الوقت المناسب.

يولف:

يسأل والده وتزداد أمارات الحيرة على وجهه:

-إذن .. ما الذي سوف تفعله أنت؟

الميرز:

تكسو الجدية وجهه:

-سوف أذهب إلى المرتفعات مرة أخرى.

ريتا:

معترضة:

-(إلفريد) .. يجب أن تخجل من تفكيرك على هذا النحو!

الميرز:

كمن يتحدث إلى نفسه وكأن الباقين لا وجود لهم:

-هناك .. بين أعالي الجبال .. والبراري الخضراء بأقصى اتساع لها..

يولف:

يقول فجأة:

-هل تعتقد يا أبي أنني سوف أتعافى عما قريب، وأنني سوف أكون قادراً على الذهاب معك؟ .. هناك إلى المرتفعات!

الميرز:

يبدو عليه التأثر ويغمغم:

-ربما يحدث هذا يا بني .. ربما.

يولف:

في جزل وسعادة يهتف:

-سوف يكون أمراً رائعاً وعظيماً أن أذهب أنا الآخر .. وإذا استطعت أن أتسلق الجبال أنا أيضاً.

آستا:

تحاول تغيير الموضوع:

-أوه .. كم تبدو جميلاً وأنيقاً اليوم يا (يولف)!

يولف:

يجيب وعلى شفتيه ابتسامة كبيرة:

-نعم يا عمتي .. ألا تعتقدين هذا أنت أيضاً؟ .. إنها الثياب الجديدة.

آستا

-بالطبع .. وهل ارتديت هذه الثياب الجديدة من أجل والدك؟

يولف:

يجيب:

-نعم .. لقد طلبت من أمي أن تدعني ألبسها كي يراها أبي.

الميرز:

يميل نحو (ريتا) متمتماً:

-ما كان يجب أن تعطى له هذه الثياب .. وهذا النوع بالذات.

ريتا:

بصوت خافت:

-عندك حق .. ولكنه ظل يلح علىّ في طلبها وتوسل إلىّ من أجلها؛ فلم يعطني أية فرصة للاعتراض أو التفكير في أمر بديل.

يولف

يقول في فخر لوالده:

-هل تعرف يا أبي؟ .. لقد جلب لي السيد (بروغيم) قوساً .. وكذلك علمني كيف أطلق منه السهام.

الميرز

يصيح في دهشة مفتعله:

-حقاً؟! .. كم هذا بديع يا صغيري! .. هذا هو المناسب لك تماماً.

يولف

في حماس

-وعندما يأتي المرة القادمة؛ سوف أطلب منه أن يعلمني السباحة.

الميرز

في دهشة حقيقية:

-السباحة؟! .. ولماذا تريد أن تتعلم السباحة؟

يولف

في استنكار:

-لماذا؟ .. لأن جميع الصبية يذهبون إلى الشاطئ .. وكلهم يجيدون السباحة .. أنا الوحيد الذي لا يستطيع ذلك.

الميرز

مكتئباً يضع ذراعه حول كتفي ابنه:

-سوف تتعلم كل ما تحبه يا بني .. وسوف تستطيع عمل كل ما ترغب فيه.

يولف

تتألق عيناه وهو يقول

-أوه .. هل تعرف يا أبي ما الذي أرغب فيه أكثر من أي شيء آخر؟

الميرز

يبتسم وهو يسأل متظاهراً بالحيرة:

-ماذا؟ .. أخبرني.

يولف

في جدية حاول أن يجعلها أكبر من سنه:

-أكثر شيء أتمناه هو أن أصير جندياً.

الميرز

يندهش لكنه يقول بسرعة:

-أوه .. يا عزيزي (يولف) .. ولكن هناك أشياء كثيرة تناسبك أكثر من أن تكون جندياً.

الميرز

يحاول أن ينهي الأمر سريعاً:

-حسناً .. حسناً .. سوف نرى.

آستا

تجلس عند المنضدة إلى جهة اليسار:

-(يولف) .. اقترب منى .. هناك ما سوف أخبرك به .. هل تعرف ماذا؟

يولف

يعبر المكان إليها:

-ماذا يا عمتي؟

آستا

محاولة إثارته:

-هل تتخيل يا عزيزي (يولف)؟ .. لقد رأيت المرأة الفأر!

يولف

يصيح غير مصدق:

-حقاً! .. تقولين أنك رأيت المرأة الفأر .. إنك تمزحين بالتأكيد.

آستا

تنظر إليه في لوم مرح:

-كلا .. لا أمزح .. هذا حقيقي .. لقد رأيتها بالأمس.

يولف

بانفعال:

-وأين رايتيها؟

آستا

تجيبه في هدوء وثقة:

-خلف حدود المدينة.

الميرز

يدخل الحوار قائلاً في هدوء:

-وأنا أيضاً رأيتها .. ذلك في مكان خارج حدود البلاد.

ريتا

بعد أن جلست على الأريكة:

-إذن .. يمكننا نحن أيضاً رؤيتها يا (يولف).

يولف

الذي لازال يوجه كلامه لـ(آستا):

-عمتي .. ألا ترين انه من الغريب أن تسمي بهذا الاسم .. (المرأة الفأر)؟

آستا

مفسره:

-إنهم يدعونها بهذا الاسم فقط لأنها تخرج حول المدينة وتقود كل الفئران خلفها.

الميرز

مصححاً:

-الآنسة (وير) .. أعتقد أن هذا هو اسمها الحقيقي.

يولف

مندهشاً

-(وير)؟ .. ولكن هذا يعني .. (ذئب)!

الميرز

يضربه بخفه على رأسه مداعباً:

-إذن فأنت تعرف هذا يا (يولف) .. أليس كذلك؟

يولف

يعقد حاجبيه مفكراً:

-نعـم .. ربمـا كان هـذا صحيحـاً رغـم كل شيء .. إنهـا تتحـول إلى ذئـب عنـد منتصـف الليـل .. هـل تصـدق هـذا يـا أبي؟

الميرز

يرفع حاجبيه دهشة:

-آه .. كلا بالطبع .. لا أصدق حرفاً واحداً من هذا ..

وتتغير لهجته نوعاً ما:

-ولكن .. ألا يجدر بك الآن أن تذهب إلى الحديقة لتلعب قليلاً.

يولف

يسأل والده في شيء من الخجل:

-أليس من الأفضل أن أخذ بعض الكتب معي؟

الميرز

يهز رأسه نفياً:

-كلا .. لا كتـب في المسـتقبل .. اذهـب إلى الشـاطئ بـدلاً مـن هـذا .. أذهـب لتلعـب مـع بقيـة الأولاد.

يولف

في شيء من الحرج:

-كلا يا أبي .. لا أريد أن أذهب مع الأولاد اليوم.

الميرز

متسائلاً:

-ولماذا؟

يولف

يتضاعف حرجه:

-أوه .. لأنني .. لأنني ارتديت هذه الثياب.

الميرز

متعجباً:

-ولكنها ثياب جميلة .. لماذا تظن أنهم سوف يسخرون منك؟

يولف

بسرعة:

-كلا .. إنهم لا يجرؤن؛ لأنهم لو فعلوا، سوف أضربهم جميعاً.

الميرز

يتساءل مندهشاً:

-إذن ما الأمر؟

يولف

في ضيق:

-إنهم مزعجون جداً هؤلاء الأولاد .. يقولون أنني لن أستطيع أن أصير جندياً أبداً

الميرز

محاولاً ضبط غضبه:

-ولماذا يقولون هذا؟ .. لماذا تظن أنهم يقولون هذا؟

يولف

في شيء من الزهو:

-أعتقد أنهم يغارون مني .. نعم يا أبي .. لأنهم فقراء .. إنهم يسيرون على أقدامهم الحافية!

الميرز

بصوت حاد ولكنه خافت:

-أوه يا (ريتا) .. إن هذا يمزق نياط قلبي .. كل هذا!

ريتا

تنهض بمنتهي الهدوء:

-هناك .. هناك .. هناك!

الميرز

مهدداً:

-ولكن، هؤلاء الأولاد .. يجب أن يتذكروا تلك الأيام، عندما كان هناك صرحا لهذا الشاطئ.

آستا

تنصت:

-ثمة من يطرق الباب.

يولف

بلهفة:

-لابد وأنه السيد (بروغيم)!

ريتا

تدعو الطارق:

-تفضل بالدخول!

المرأة الفأر تدخل المكان، بمنتهي الهدوء والنعومة، من جهة الباب الأيمن .. هي كائن رقيق، هش، ضامرة البدن، نحيلة العود، عجوز، بيضاء الشعر، لها عينان عميقتان لهما نظرة نفاذة، ترتدي ثوباً مزركشاً بالزهور من عهد سحيق وأيضاً قبعة وياقة سوداوان وفي يدها مظلة كبيرة حمراء وكذلك تعلق في ذراعها حقيبة سوداء.

يولف

يهمس جاذباً طرف ثوب (آستا):

-عمتي! .. لابد أنها هي!

المرأة الفأر

إذ هي واقفة في مكانها عند الباب:

-إنني آسفة جداً .. ولكن .. هل ثمة ما يضايق السيد والسيدة هنا في المنزل؟

المرز

يهز رأسه نفياً:

-نحن؟ .. كلا .. لا أظن ذلك.

المرأة الفأر

تبتسم:

-لأنهما لو كانا كذلك، فسيكون من دواعي سروري أن أساعدهما على التخلص منه.

ريتا

بامتنان:

-نعم .. نحن نقدر لك هذا .. ولكن، ليس لدينا شيء من هذا القبيل:

المرأة الفأر

تغمغم في رضا:

-هـذه أخبـار عظيمـة، لأننـي ذاهبـة للتـو إلى جولتـي واللـه وحـده يعلـم متـى أكـون هنـا ثانيـة .. يـا إلهـي .. كـم أنـا متعبـة!

الميرز

مشيراً إلى أحد المقاعد:

-نعم .. إنك تبدين متعبة حقاً!

المرأة الفأر

تتنهد:

-لا ينبغـي للمـرء أن يتعـب أبـداً مـن أداء الأشـياء اللطيفـة للقـوم المسـاكين الضئيلـين، بالرغـم مـن أن كراهيتهـم ومخاوفهـم قـد تبـدو شـديدة القسـوة أحيانـاً .. إلا أنهـا تقـوى مـن عزيمـة المـرء أيضاً.

الميرز

يكرر:

-ألا تجلسين قليلاً لنيل قسط من الراحة؟

المرأة الفأر

تجلس على مقعد بين الباب والأريكة:

-أشكرك كثيراً .. لأنني كنت بالخارج في العمل طيلة الليل.

الميرز

يرفع حاجبيه

-أوه .. حقاً؟!

المرأة الفأر

تتنهد قائلة:

-نعـم .. بجميـع أنحـاء الجزيـرة يرسـل النـاس في طلبـي، ولقـد كرهـوا اضطرارهـم لفعـل ذلـك، ولكـن لا حيلـه لديهـم .. لا شيء آخـر يفعلونـه .. لقـد فعلـوا أفضـل شيء في الموضـوع .. وقضمـوا التفاحـة المعطنـة.

تنظر إلى (يولف) وتهز رأسها:

-تفاحة معطنة أيها السيد الصغير .. تفاحة معطنة.

يولف

مسلوب الإرادة وبآلية بحتة:

-ولماذا هم مضطرون لفعل ذلك؟

المرأة الفأر

تسأله باسمة:

-فعل ماذا؟

يولف يردد:

-قضم التفاحة العطنة!

المرأة الفأر

ببساطة:

-لماذا؟ .. لأنه ليس لديهم شيء آخر يعيشون عليه .. بسبب الفئران .. كما ترى أيها السيد الصغير .. بسبب كل الفئران الصغيرة.

ريتا

آسفة:

-أوه .. يا للقوم المساكين! .. هل عددهم كبير؟ .. أعنى تلك التفاحات العطنة.

المرأة الفأر

تضحك بملء فيها:

-لقد نزلت عليهم كالوبال .. كسرب من الجراد .. يكرمونها فوق الفراش طوال الليل .. ويشحنوها في أحواض اللبن، بينما هي تتدحرج على الأرض وتتكدس عند مفترقات الطرق.

يولف

يهمس لـ(آستا):

-لن أذهب إلى هناك أبداً يا عمتي.

المرأة الفأر

في مودة:

-لكني جئت أخيراً وهناك شخص معي .. إننا دوماً نأخذهم بعيداً معنا .. المخلوقات الصغيرة العزيزة! .. إننا نتدبر أمرها جميعاً.

يولف

يصرخ:

_أبي .. انظر .. انظر!

ريتا

تنبهه:

-تأدب يا (يولف)!

الميرز

يستفهم عما هنالك:

-ما الخطب؟

يولف

يشير بيده

-هناك شيء ما يتحرك في داخل تلك الحقيبة.

ريتا

تصرخ وهي تتنح إلى اليسار:

-آه .. أخرجها من هنا يا (ألفريد)!

المرأة الفأر

تضحك:

-أوه يا سيدتي المحترمة .. لا يجب أن تخافي من رفيق صغير مثله.

الميرز

مندهشاً:

-ولكن .. أي شيء هو؟

المرأة الفأر

-إنه (جو بسمنت)!

وتحل الحبل الذي يربط الحقيبة:

-هيا .. أخرج للنور يا صديقي الصغير

(كلب صغير ذو أنف أسود مفلطح يمد رأسه خارج الحقيبة)

المرأة الفأر

تهز رأسها وتشير لـ(يولف):

-اقترب أكثر أيها الجندي الصغير الجريح .. اقترب ولا تخف .. إنه لا يعض .. هيا .. هيا.

يولف

يتشبث بـ(ريتا):

-لا .. إنني لا أجرؤ.

المرأة الفأر

في حنان:

-ألا ترى يا سيدي الصغير أن له تعبيراً في غاية الروعة وفي غاية الرقة، مرتسماً على ملامح وجهه؟

يولف

يشير مندهشاً:

-هذا الشيء هناك!

زوجة الفأر

تومئ برأسها:

-نعم .. إنه هو.

يولف

يتشجع قليلاً ويحدق في الكلب:

-أعتقد أنه يملك أكثر تعبير مقزز رأيته في حياتي.

المرأة الفأر

تغلق الحقيبة:

-سوف يأتي .. سوف يأتي.

يولف

يبدو متردداً قليلاً، لكنه يعبر الحجرة ويربت على الحقيبة برقة:

-جميل .. إنه جميل بالرغم من كل شيء.

المرأة الفأر

في لهجة حزينة:

-لكنه الآن-المسكين-متعب للغاية .. منهك للغاية.

تنظر إلى (الميرز)

-ولأنك تصدقني يا سيدي الصغير .. سوف أقول لك .. إنه يستعمل القوة الشخصية .. هذه الحيلة القديمة ..

الميرز

يتساءل:

-أي حيلة تعنين؟

المرأة الفأر

في غموض:

-إلقاء التعاويذ!

الميرز

يهز رأسه عجباً:

-وهل يجب أن أفترض أن هذا الكلب قادر على إلقاء التعاويذ على الفئران؟!

المرأة الفأر

تهز رأسها:

-إننا نفعلها معاً .. أو مع (موبسانت) .. إن الأمر لو تأملته تجده غاية في البساطة .. فهو لديه خيطاً حول رقبته ومنه أقوده أنا حول الدار ثلاث مرات ونلهو عند المواسير وعندما يسمعون ذلك، يهرولون من القبو ويتساقطون من السقف ويخرجون من الشقوق .. كل هذه المخلوقات الرائعة.

يولف

في انبهار:

-وهل يعضهم بعد ذلك حتى الموت؟

المرأة الفأر

تبتسم قائلة:

-أوه .. كلا .. على الإطلاق .. إننا ننزل إلى القارب .. معاً .. وهم يأتون خلفنا .. كبار السن منهم والأطفال.

يولف

تزداد استثارته:

-وماذا يحدث بعد ذلك؟ .. أخبرينا!

المرأة الفأر

تستطرد:

-ثم أننا نبتعد عن الأرض .. يأخذنا القارب بعيداً عن الشاطئ .. ويشق المجداف الماء بينما أنفخ في الناي و(موبسانت) يسبح خلفنا ..

وتغمز بعينها:

-وكل تلك المخلوقات الظريفة البديعة .. تتبعنا في الماء .. في عمق الماء .. لأنهم مضطرون لفعل ذلك.

يولف

يتساءل

-ولماذا هم مضطرون؟

المرأة الفأر

في صوت خفيض:

-لأنهم لا يريدون ذلك! .. لأنهم يموتون رعباً من الماء .. هذا هو سبب ذهابهم بعيداً فيه!

يولف

في حيرة:

-هل تراجعوا إذن؟

المرأة الفأر

في صوت أكثر انخفاضاً:

-كلهم .. ثم صار كل شيء هادئاً .. وديعاً .. مظلماً .. مناسباً لهم .. تماماً كما أرادوه .. تلك الأشياء الصغيرة الجميلة .. كلهم ناموا هنا .. نوماً عميقاً هانئاً .. كلهم .. تلك التي يمقتها البشر ويحتقرها.

تنهض:

-وكان يا ما كان .. عندما لم أعد في حاجة إلى (موبسانت)، صرت ألقي التعاويذ بنفسي.

يولف

ينظر في عينيها ويسأل:

-وأي نوع من الأشياء تسحرين؟

زوجة الفأر

بغموض:

-الرجال .. واحد بعينه!

يولف

متلهفاً:

-ومن هو يا ترى؟

المرأة الفأر

تضحك:

-إنه من كان حبيبي .. محطم القلوب الصغيرة!

يولف

يسأل عاقداً حاجبيه:

-وأين هو الآن إذن؟

المرأة الفأر

في لهجة حادة:

-هناك .. أسفل هناك .. مع كل الفئران.

ويعود صوتها رقيقاً كما كان:

-والآن .. يجب أن أعود إلى عملي مرة أخرى.

وتقول موجهة كلامها لـ (ريتا):

-هل لدى السيد أو السيدة أي طلبات يريدون منى قضاؤها اليوم؟ ..لأنني-لو أن لديهم ما يأمرونني به-سوف أرى إن كان يمكنني تنفيذه ها هنا.

ريتا

برقة وامتنان:

-كلا .. لا أعتقد أن هناك ما نحتاجه .. شكراً لك.

المرأة الفأر

في غموض:

-آه .. حسناً يا سيدتي المحترمة .. لا يعرف المرء أبداً عن كانوا سيعثرون على أي شيء في هذا المكان يخمش أو يعبث أو يعض .. ثم يرسلون في طلبنا – أنا و(موبسانت)-وذلك منذ عهود قديمة جداً مضت.

(ثم ترحل خارجة من الباب جهة اليمين)

يولف

برقة ولكن بشيء من الانتصار لـ(آستا):

-هل تصدقين هذا يا عمتي؟ .. لقد رأيت (المرأة الفأر) .. أنا أيضاً رأيتها!

(ريتا) تخرج إلى الشرفة وتهز منديل يدها أمام وجهها كالمروحة لجلب الهواء وبعد

دقيقـة يتسـلل دون أن ينتبـه إليـه أحـد، خارجـاً مـن البـاب جهـة اليمـين.

الميرز

يتناول الحقيبة من المنضدة إلى الأريكة:

-(آستا)! .. هل هذه الحقيبة تخصك؟

آستا

تنظر إلى حيث يشير:

-نعم .. لقد وضعت فيها بعض الخطابات القديمة.

الميرز

يهز رأسه في فهم:

-آه .. نعم .. خطابات العائلة ..

آستا

مؤكدة

-نعم .. كما تتذكر .. لقد طلبت منى أن أجمعها لك بينما كنت خارج البلاد.

الميرز

يربت على رأسها في حنو بالغ:

-ومع ذلك أستطعت ان تجدي وقتاً لها .. بارك الله فيك!

آستا

في هدوء

-آه .. نعم .. لقد أنجزت بعضها هنا .. ثم أنني أكملت الباقي في بيتي بالمدينة.

الميرز

يسألها:

-أشكرك يا عزيزتي .. ولكن .. هل وجدت بها شيئاً هاماً؟

تخفض صوتها وتتكلم بلهجة حادة:

-وهذه الأوراق الموجودة داخل الحقيبة هي المرسلة إلى الوالدة.

الميرز

ينظر إليها مباشرة:

-آه .. طبعاً احتفظت بها لنفسك

آستا

بجهد:

-كلا يـا (الفريـد) .. أريـدك أن تعيـش خلالهـا أنـت أيضـاً وترتحـل فيهـا .. يومـاً مـا .. فيـما بعـد، ليـس الآن .. ولكنني-للأسـف الشـديد-لم أجلـب مـع مفتـاح الحقيبـة اليـوم وأنـا قادمة.

الميرز

مطمئناً:

-هذا لا يهم يا عزيزتي (آستا) .. لأنني-على أي حال-لن أقرأ خطابات أمك أبداً.

آستا

تتسع عيناها وهي تنظر إليه:

-إذن في يوم آخر .. في أمسية هادئة أخرى ... سوف أخبرك نبذة عن محتواها.

الميرز

موافقاً:

-نعـم .. يجـدر بـك أن تفعـلي .. ولكـن اسـتمري في حفـظ خطابـات أمـك بنفسـك .. إنـك لم تحصـلي عـلى الكثـير مـن الذكريـات التـي تركتهـا.

(يناول الحقيبة لـ (آستا) ... فأخذتها لتضعها تحت معطفها على المقعد

(ريتا) تأتي إلى الحجرة مرة أخرى.)

ريتا

بتقزز:

-أووع! .. أشـعر بالغثيـان، كـما لـو أن تلـك المـرأة المأفونـة قـد جلبـت معهـا رائحـة جثـة إلى هـذا المـكان.

الميرز

يوافقها:

-نعم .. لقد كانت أكثر من مقززة .. إنني اتفق معك في هذا.

ريتا

باشمئزاز وضح في ملامحها وصوتها:

-لقد واتتني رغبه في القيء إذ هي موجودة بيننا في هذه الحجرة.

الميرز

في شرود:

-كل الأمـور تتشـابه .. كأنهـا حلقـة مفرغـة .. أعتقـد أننـي قـد فهمـت القـوة التـي كانـت تتحـدث عنهـا وترسـم لنـا صورتهـا بالتفصيـل .. العزلـة فـوق .. بـين القمـم العاليـة .. وحتـى السـهول المنخفضـة تعـرف شـيئاً لـه نفـس المعنـى.

آستا

تنظر إليه نظرة فاحصة:

-ما هذا الذي حدث لك يا (الفريد)؟

الميرز

يبتسم:

-ما الذي حدث لي؟

آستا

تمط شفتيها:

-نعم، لقد حدث شيء ما .. يمكنك أن تقول أنه تحول .. (ريتا) لاحظت هذا أيضاً.

ريتا

موافقة:

-نعـم، لقـد لاحظـت هـذا فـور مجيئـك إلى هنـا، لكنه-عـلى الأقـل-شيء جيـد .. أليـس كذلـك يـا (الفريـد)؟

الميرز

يغمغم:

-ينبغـي أن يكـون كذلـك .. ينبغـي أن يكـون شـيئاً حسـناً .. هكـذا ينبغـي أن يكـون .. وهكـذا كان..

ريتا

بشيء من الدهاء:

-لقـد مـررت بـشيء مـا عندمـا كنـت هنـاك بعيـداً .. لا تقـل أن هـذا لم يحـدث، لأننـي أعـرف هـذا مـن عينيـك.

الميرز

يهز رأسه:

-لا شيء على الإطلاق .. لا شيء يستحق الذكر .. ولكن..

ريتا

بانفعال:

-.. ولكن ..؟

الميرز

بخفوت:

-لم يحدث شيء بالخارج، ولكن بالداخل .. كانت هناك ثورة صغيرة.

ريتا

تشهق:

-يا إله السماوات!

الميرز

يربت على يدها مطمئناً إياها:

-للأفضل يا (ريتا) العزيزة .. للأفضل فقط .. يمكنك الاطمئنان من هذا.

ريتا

تجلس على الأريكة:

-والآن .. يجب أن تخبرنا عن هذا في الحال .. كل شيء عن هذا الموضوع!

الميرز

يقول إلى (آستا):

-نعم .. دعينا نجلس أيضاً، ثم أحاول أن أخبركم .. سأبذل أقصى جهدي.

(يجلس على الأريكة بجوار (ريتا) .. (آستا) تسحب مقعداً وتجلس عليه على مقربة منهما .. ومرت ثوان لا بأس بها من الصمت.)

ريتا

تنظر إليه في انتظار أن يبدأ كلامه:

-حسناً! .. والآن؟

الميرز

ينظر أمامه مباشرة:

-عندما أسترجع ماضي حياتي في عقلي-ومصيري كذلك-في العشر سنوات أو الإحدى عشر سنة الأخيرة .. لماذا؟ ... لأنها تبدو مثل حدوته أو حلم .. إلا تعتقدين هذا يا (آستا)؟

آستا

مؤمنة على كلامه:

-نعم .. بشكل ما نعم.

الميرز

يتابع:

-عندما أفكر يا (آستا) في ما كناه قبل ذلك .. كنا فقيران .. يتيمان بائسان ..

ريتا

بنفاد صبر:

-ولكن .. كان هذا من زمن بعيد ..

الميرز

دون أن يعيرها انتباهاً:

-والآن هـا أنـا .. سـعيداً، هانئـاً .. كنـت قـدراً عـلى أن أتابـع طموحـي .. قـادر عـلى الدراسـة والعمـل ... تمامـاً كـما أردت ..

يعقد كفيه أمامه

-.. وكل هذه الثروة العظيمة الهائلة التي جمعناها لك يا عزيزتي (ريتا).

ريتا

تربت عليه وتقول معترضة بشيء من المزاج:

-والآن .. هلا توقفت عن هذه الطريقة اللطيفة في الحديث؟

الميرز

يغمغم:

-إنني فقط أنوه عن هذا .. فقط على سبيل التقديم ليس إلا.

ريتا

متجهمة نوعاً ما:

-إذاً .. فلننته من هذه المقدمة بسرعة!

الميرز

ملوحاً بكفه:

-(ريتـا)! .. لا تضعـي في اعتبـارك أن نصيحـة الطبيـب هـي التـي جعلتنـي أذهـب إلى أعـالي الجبـال ..

آستا

بهدوء:

-ألم تكن كذلك يا (الفريد)؟

ريتا

تكمل بدلاً منها:

-إذاً ما هذا الذي جعلك تذهب؟

الميرز

في شيء من الوجوم:

-ذلك أنني لم أعد أشعر بالسلام في عملي.

ريتا

مندهشة:

-لا تشعر بالسلام! ولكن يا عزيزي ما الذي يزعجك؟

الميرز

يهز رأسه:

-ليس شخصاً بعينه، ولكن كان لدي إحساساً بالاضطراب .. أو .. أنني أضيع مجهودي سدى .. وبأنني أبرر وقتاً كثيراً في لا شيء.

آستا

متسعة العينان:

-عندما كنت تجلس تكتب كتابك؟

الميرز

يومئ:

-لأنني لم أكن موهوباً إلا في هذا فقط، كان لابد أن أصبح قادراً على فعل شيء أو شيئين مختلفين .

ريتا

متوترة نوعاً:

-أكان هذا ما جعلك تجلس قلقاً على هذا النحو؟

الميرز

شاعت ابتسامة باهتة في تقاطيع وجهه القاسي:

-نعم .. كان لهذا النصيب الأكبر.

ريتا

قالت راضية عن ما فهمت:

-وكان هـذا هـو سـبب تصرفاتـك الشـاذة-حتى مـع نفسـك-في الآونـة الأخـيرة .. ونحـن أيضـاً .. نعـم .. لقـد كنـت كذلـك حقـاً.

الميرز

ينظر أمامه بثبات:

-جلسـت هنـاك .. انحنيـت عـلى مكتبـي .. كتبـت يومـاً بعـد يـوم .. وأحيانـاً حتـى منتصـف الليـل .. أكتـب أوراقـاً وأوراقـاً في هـذا الكتـاب العظيـم الضخـم عـن (مسـئولية الإنسـان).

آستا

تضع يدها على ذراعه:

-ولكن يا عزيزي .. هذا الكتاب هو عمل حياتك بأكملها.

ريتا

تؤمن على كلامها:

-نعم .. ذلك ما تحدثت عنه طويلاً.

الميرز

يمط شفتيه:

-هـذا هـو مـا ظننتـه عندمـا بـدأت انضـج، وكذلـك عندمـا بـدأت في جعـل الأمـر ممكنـاً ويحتمـل التنفيـذ.

ريتا

في استنكار:

-لا تكن سخيفاً!

الميرز

يبتسم لها:

-أنت و(ذهبك وغاباتك الخضراء ..)

ريتا

بضحكة متوترة:

-لو بدأت هذا الهراء مرة أخرى، توقع أنني سوف أضربك!

آستا

تنظر إليه وعلى وجهها تعبير منزعج:

-ولكن .. ماذا عن كتابك يا (الفريد)؟

الميرز

جاداً:

-لقد بدأ-كما ينبغي أن يحدث-يتسلل كالهواء من بين أصابعي .. ولكن التفكير في المسئولية الملقاة على عاتقي راح يقيدني أكثر وأكثر ويقترب مني ويلتصق بي تماماً ويعانقني!

ريتا

بعنين متألقتين، راحت تداعب كفيه:

-(الفريد)!

الميرز

بلهجة جافة باردة:

-إنني أعني (يولف) يا عزيزتي!

ريتا

تتألم وتترك يده:

-آه .. (يولف)!

الميرز

متأثر الآن:

-(يولف) الصغير المسكين قد استكان في أعمق ركن بأعماقي، بعد هذا السقوط التعس من فوق المائدة .. ومعظمنا أيقن أن الأمر لن يحتمل على الإطلاق ..

ريتا

تغمغم:

-ولكنك اعتنيت به يا (الفريد) .. اعتنيت به كأفضل ما يكون.

الميرز

بسخرية مريرة:

-كناظر مدرسة؟ نعم .. ولكن ليس كأب .. و(الأب) هو ما أريد أن أكونه بالنسبة لـ(يولف) في المستقبل.

ريتا

تنظر إليه وتهز رأسها:

-لا أعتقد أنني أفهم ما ترمي إليه.

الميرز

يلوح بكفه شارحاً:

-أعني أنني سوف أبذل قصارى جهدي وجل وقتي لأبعث الضياء والبهجة في حياته وأداوي ما لم يعالج كلما أمكنني ذلك.

ريتا

تمط شفتيها آسفة:

-ولكن، يا عزيزي، لا أعتقد-وأشكر الله على ذلك-أنه لا يشعر بمثل هذا الألم.

آستا

بانفعال واضح:

-أوه يا (ريتا) .. كلا .. إنه يشعر به بالتأكيد.

الميرز

مؤمناً على كلامها:

-نعم، يمكنك أن تتأكدي من أن هذا يؤلمه من الأعماق ..

ريتا

بنفاد صبر:

-ولكن، يا عزيزي، ماذا عساك أن تفعل من أجله؟

الميرز

بحماس:

-سوف أسعى لجلب النور إلى كل الأركان المظلمة في نفسه الطفولية .. كل بذور الحب بداخله؛ سوف أجعلها تزدهر وتثمر ثمارها البديعة ..

ينهض، يتحمس وينفعل أكثر:

-وسوف أفعل أكثر من هذا .. سوف أجعله يتعلم كيف ينسجم طموحه مع رغباته .. هذا ما ليس قادراً على فعله الآن .. وكل تركيبة عقله تنصرف إلى عاهته، بعيداً عن حياته؛ مما يجعلها مستحيلة ولا تطاق، لكني سأزرع بداخله غريزة الرغبة في السعادة.

يمشى في الحجرة جيئة وذهاباً وقد بلغ به الانفعال مدا بيما (آستا) و(ريتا) تتابعانه

بنظراتهـما:

ريتا

بإشفاق:

-لا ينبغي أن تجعل هذه الأشياء تحز في نفسك على هذا النحو.

الميرز

يتوقف إلى جوار المنضدة جهة اليسار وينظر إليهما:

-يجـب أن يأخـذ (يولـف) عمـل حيـاتي، يثبـت بهـا مـا يريـده، أو يختـار بكامـل إرادتـه الحـرة مـا يناسـبه منهـا، وربمـا أفضـل مـن ذلـك، ولكـن عـلى أي حـال سـوف أنحـي عقـلي جانبـاً.

ريتا

تنهض:

-ولكـن يـا عزيـزي (الفريـد) .. لا يمكنـك أن تعمـل مـن أجـل نفسـك كـما تعمـل مـن أجـل (يولـف)؟

الميرز

بانفعال:

-كلا .. لا يمكننـي ذلـك .. مسـتحيل .. لا يمكـن أن أفصـم نفـسي عـلى هـذا النحـو .. وهـذا هـو السـبب في أننـي يجـب أن ابتعـد .. يجـب أن يكـون (يولـف) هـو الهـدف الرئيـسي المتـوج لإنجـازات عائلتنـا .. وسـوف أجـد عمـل حيـاتي الجديـد بـأن أجعلـه ينجـح في أن يكـون كذلـك.

آستا

التي نهضت واتجهت إليه عبر الحجرة:

-لابد وأن كل هذا يسبب لك صراعاً داخلياً عنيفاً يا عزيزي؟

الميرز

يهز رأسه علامة الإيجاب ببطء:

-نعـم .. إنـه كذلـك .. لا ينبغـي أبـداً أن أتشـاحن مـع نفـسي، خاصـة هنـا في المنـزل، ولا ينبغـي أن أصـل بنفـسي إلى حافـة الجنـون وهاويـة الانهيـار ..

ريتا

بحنان:

-حسـناً إذا، مـا هـو ذلـك الأمـر الـذي ذهبـت مـن اجلـه بعيـداً في هـذا الصيـف؟ .. أهـو مـا تتحـدث عنـه الآن؟

الميرز

بعينين متألقتين:

-نعـم .. ولهـذا ارتحلـت بعيـداً إلى حيـث العزلـة المطلقـة الدائمـة، أتأمـل شروق الشـمس فـوق قمـم الجبـال .. أشـعر بنفـسي ألامـس النجـوم .. أو ممتزجـاً بهـا إذا أردت الدقـة .. وبـدأت أفهـم .. ثـم شـعرت بأننـي قـادر عـلى الإنجـاز!

آستا

تنظر إليه بأسى:

-لكنك لن تكتب مرة أخرى في ذلك الكتاب عن مسئولية الإنسان؟

الميرز

بهدوء:

-كلا .. أبـداً يـا (آسـتا) .. لا يمكننـي أن أشـطر نفـسي بـين أمريـن .. لكننـي سـأحمل مسـئوليتي الإنسـانية مـن خـلال حيـاتي الخاصـة ..

ريتا

باسمة:

-هل تعتقد أن بإمكانك تنفيذ شيء كهذا هنا في المنزل؟

الميرز

آخذاً بيدها:

-بالمشاركة معك ... يمكنني ذلك.

ويمد يده الأخرى:

-ومعك أنت أيضاً يا (آستا).

ريتا

تسحب يدها:

-معنا نحن الاثنتان؟ .. إذا فإن باستطاعتك أن تشطر نفسك .. هه؟

الميرز

مرتبكاً:

-ولكن يا عزيزتي (ريتا) ..

(ريتـا) تسـير مبتعـدة عنـه وتقـف عنـد بـاب الحديقـة .. شـخص مـا يطـرق البـاب برقـه وبسرعـة .. مـن البـاب جهـة اليسـار يدخـل (بورغيـم) .. مهنـدس شـاب في الثلاثـين مـن عمـره

تقريباً .. على وجهه تعبير من السعادة والحبور .. وعربه منتصبة.

بورغيم

محيياً بابتهاج:

-صباح الخير يا سيدة (الميرز)، صباح الخير!

يقف وعلى ووجه علامات المرح عند مشهد (الميرز)

-يا إلهي! .. ماذا أرى ها هنا؟ .. لقد عدت إلى دارك أخيراً يا سيد (المرز)؟

الميرز

يصافحه:

-نعم .. لقد عدت في الليلة السابقة.

ريتا

بحبور:

-لكنه لم يأخذ الأذن ليبقى قليلاً يا سيد (بورغيم).

الميرز

ملوحاً بكلتا يديه:

-آه .. كلا .. ليس تماماً يا (ريتا) ..

ريتا

تقترب أكثر:

-نعم .. هذا صحيح تماماً .. إن رحيله متوقع بين لحظة وأخرى.

بورغيم

بمرح:

-وهل تحتفظين بزوجك في هذه القبضة المحكمة يا سيدة (الميرز)؟

ريتا

بشيء من الجدية:

-إنني أتمسك بحقوقي .. وإلى جانب هذا .. كل شيء لابد له من الرحيل والانتهاء.

بورغيم

لازال مرحاً:

-أوه .. ليس كل شيء – كما أتمني على الأقل.

ويلتفت إلى (آستا)

-صباح الخير يا آنسة (الميرز).

آستا

بوقار:

-صباح الخير.

ريتا

تنظر إلى (بورغيم):

-هل تقول: ليس كل شيء ؟

بورغيم

باهتمام:

-إنني على الأقل أو من أن هناك شيئاً واحداً في هذا العالم ليس له نهاية.

ريتا

تسأله:

-أعتقد أنك تفكر الآن في الحب أو شيء من هذا القبيل؟

بورغيم

في لهجة دافئة:

-إنني أفكر في كل شيء رائع.

ريتا

كالحالمة:

-وهـذا الـشيء أبـدي لا نهايـة لـه .. حسـناً .. دعنـا نفكـر في هـذا ونتمنـى أن نحصـل عليـه .. كلنـا.

الميرز

يقترب منهم:

-إن مفترق الطرق لا ريب آت عما قريب ومعه النهاية.

بورغيم

متنهداً:

-لقـد انتهيـت بالفعـل، بالأمـس انتهيـت .. لقـد أسـتمر هـذا طويـلاً .. اسـتمر بمـا فيـه الكفايـة، ولكنه-والحمـد للـه- قـد انتهى.

ريتا

باهتمام:

-وأنت تشعر بالغبطة لذلك ..؟

بورغيم

دون مواربة:

-نعم .. بالتأكيد.

ريتا

رفعت يداً متعلقة:

-حسناً .. يجب أن أقول إذن ..

بورغيم

مستفهماً:

-ماذا يا سيده (الميرز)؟

ريتا

بصوت مبحوح:

-إنه ليس جيداً تماماً بالنسبة لك يا سيد (بورغيم).

بورغيم

باهتمام:

-ليس كذلك! .. ولم لا؟

ريتا

مفسرة:

-كلا .. لأنك لن تحصل على إنجاز كهذا كثيراً جداً في المستقبل.

بورغيم

عاقداً حاجبيه:

-كلا .. هذا حقيقي .. لم أفكر في هذا الأمر .. ولم يخطر ببالي شيء كهذا.

ريتا

باسمة:

-حسن ... يمكنك أن تأتي لزيارتنا وأن ترانا الآن ومرة أخرى .. في أي وقت.

الميرز

بسرعة واقتضاب:

-ولمه؟

بورغيم

ببساطة:

-لأنني قد حصلت على عمل كبير .. عمل جيد .. عمل يجب أن أبدأه في الحال.

الميرز

دونما اهتمام:

-حقاً؟

وشبك أصابع كفيه:

-كم أنا مسرور بذلك!

ريتا

مهنئة:

-مبارك! مبارك! .. تهانئي يا سيد (بورغيم)!

بورغيم

مخدراً:

-شششششش .. ليس من عمل أتحدث عنه بحرية، على الأقل الآن .. لكني لا أستطيع منع نفسي من الكلام .. إنه عمل عظيم لتعبيد طريق يمتد شمالاً ويخترق الجبال وكل هذه العقبات الهائلة التي تقف أمامه.

ويستريح قليلاً:

-آه .. يا له من عالم عظيم، مجيد، ويا له من شيء رائع .. أن تكون بناء طرق!

ريتا

تبتسم وتنظر إليه بإعجاب:

-أهو موضوع تعبيد الطريق وحده هو ما جعلك تأتي اليوم بهذه الروح العالية؟

بورغيم

وعيناه تبرقان:

-كلا .. ليس بسبب هذا فقط .. بل بسبب كل المباهج والتألق الذي أفعم حياتي وأراه أمامي.

ريتا

على نفس الحال:

-آه .. نعم .. ربما كان هناك شيء أكثر روعه؟

بورغيم

يغمز لـ(آستا):

-من يدري؟ .. عندما تأتي الفرصة السعيدة فأنها تبدأ كتدفق المياه من ينبوع الربيع

ويلتفت لـ(آستا) بالكامل:

-آنسة (الميرز)، هل يمكننا –أنت وأنا-أن نتمشى قليلاً، كما نفعل دائماً؟

آستا

بسرعة:

-كلا .. كلا .. ليس الآن .. ليس اليوم.

بورغيم

برجاء:

-أوه .. هيا .. قليلاً فقط .. جولة صغيرة! .. إن لدي الكثير الذي يجب أن أتحدث عنه معك قبل أن أرحل.

ريتا

بلهجة ذات مغزى:

-أعتقد أنه شيء يمكنك أن تتحدث عنه بحرية الآن؟

بورغيم

يبتسم متوددا في حياء:

-حسناً! .. هذا يتوقف على ..

ريتا

تلمس ركبة (آستا):

-.. إنك بالكاد تستطيعين الهمس .. كما تعرفين.

وتتنهد:

-(آستا) .. يجب أن تذهبي معه ..

آستا

في شيء من الارتباك المشوب بالخجل:

-ولكن يا (ريتا) ..!

بورغيم

متوسلاً إذ يشعر بترددها:

-آنسة (آستا) .. تذكري أن هذه سوف تكون آخر تمشية لنا حتى وقت طويل قادم ..

آستا

تلتقط مظلتها وقبعتها:

-أوه .. حسناً .. فلنذهب إلى الحديقة .. ثم في جولة صغيرة ..

بورغيم

بانفعال وامتنان:

-أوه .. أشكرك كثيراً!

الميرز

بشيء من الجفاء:

-كما أرجو أن تلقيا نظرة على (يولف) أثناء ذلك.

بورغيم

بحرارة:

-نعم .. (يولف) .. بالطبع! .. إلى أين ذهب (يولف) اليوم؟ .. لقد أحضرت شيئاً من أجله.

الميرز

مغمغماً:

-إنه بالجوار في مكان ما يلعب ..

بورغيم

مندهشاً وعلى وجهه ابتسامة:

-أحقاً تقول؟ .. إذاً، فقد بدأ يلعب الآن! .. عادة يجلس في الدار ليقرأ ..

الميرز

بهدوء محايد:

-لقد كان هذا عهداً مضى .. أنه يتحول الآن إلى فتى نشيط منطلق.

بورغيم

بحنان

-عندك حق .. بالخارج حيث الهواء النقي .. يا للطفل المسكين! .. يا إلهي الرحيم .. ألا يستطيع المرء أن يفعل شيئاً أفضل من اللعب في هذا العالم البائس .. الحياة بأكملها تبدو كاللعبة بالنسبة لي! .. هيا .. هيا يا آنسة (آستا).

[يخرج (بورغيم) و(آستا) عبر الشرفة دفعها يهبطان إلى الحديقة]

ريتا

بعد لحظة من الصمت:

-لا أعرف ماذا أقول؟ .. لقد اعتدت التفكير في هذا الأمر .. إلا أن (آستا) بدا وأنها تتصرف معه بشكل غير طبيعي بالمرة في الآونة الأخيرة .. لقد صار من المستحيل فهمها.

الميرز

يضم شفتيه متسائلاً:

-هل أصبحت هكذا بينما أنا خارج البلاد؟

ريتا

تومىء برأسها إيجاباً:

-نعم .. لقد استمر هذا أسبوعاً أو أسبوعين.

الميرز

بشيء من التهكم:

-وهل تعتقدي أنها لم تعد تعيره اهتماماً أكثر عن ذي قبل؟

ريتا

لا تنتبه إلى السخرية في كلماته:

-ليس بمنتهى الجدية .. ليس من صميم قلبها أو بتوقير! .. كلا .. لا أعتقد هذا

وتنظر إليه بدهشة:

-وهل يضايقك لو كانت كذلك حقاً؟

الميرز

هز كتفيه قائلاً:

-ليس بالضبط .. ولكني لا أنكر أنني أعتقد أنه سوف يكون مزعجاً.

ريتا

بدهشة

-مزعجاً؟!

الميرز

في برود:

-نعم .. لأنك يجب أن تتذكري أنني المسئول عن (آستا) ... عن سعادة حياتها بالكامل.

ريتا

بدهشة أكبر:

-مسئول عن ماذا؟! .. بالله عليك! .. لقد كبرت (آستا) وصارت امرأة ناضجة! .. إنها الآن تعرف كيف تختار ما يناسب طبيعة حياتها .. ينبغي عليك أن تؤمن بهذا.

الميرز

ببطء ووضوح:

-نعم، إننا نتمنى أن تكون كذلك حقاً ..

ريتا

بلهجة غامضة:

-أنا .. عن نفسي .. لا أرى أي شيء سيء بخصوص (بورغيم).

الميرز

يغمغم:

-ولا أنا يا عزيزتي .. ولكن مع ذلك ..

ريتا

تقاطعه:

-ويمكنني القول أنني أرغب في مشاهدة مناقشة حادة بينهما!

الميرز

منزعجاً:

-ولمه؟

ريتا

بانفعال متزايد:

-لأنها بحاجة إلى أن تستمع إليه وأن تذهب معه بعيداً .. بعيداً جداً وتترك هذا المكان هنا.

الميرز

ينظر إليها بدهشة:

-ماذا؟ .. هل تودين حقاً التخلص من (آستا)؟

ريتا

دون أن يفارقها انفعالها:

-نعم يا (الفريد) .. نعم ..!

الميرز

بدهشة أكبر:

-ولكن، بالله عليك، لماذا؟

ريتا

تحيط عنقه بذراعيها في عاطفة قوية:

-لماذا؟ .. لأنني في النهاية يجب أن استحوذ عليك بالكامل لنفسي! .. ولكن .. كلا ..

وتنفجر في نوبة بكاء صار:

-آه يا (الفريد) .. لن أدعك تذهب!

الميرز

يحرر نفسه برقة:

-ولكن يا عزيزتي (ريتا) .. كوني متفهمة!

ريتا

بحدة بين بكائها:

-إنني لا أبالي شعره واحدة أن أكون متفهمة. إنني فقط أهتم بك! .. أنني وحدك في العالم بأكمله ..

وتلقى بنفسها مرة أخرى على عنقه:

-أنت .. أنت .. أنت!

الميرز

يحاول التحرر:

-دعيني أذهب .. دعيني .. إنك تخنقيني!

ريتا

تدعه:

-أتمنى من الله لو استطعت!

وتنظر إليه بعينين تلمعان:

-لو أنك فقط تعرف إلى أي حد كرهتك؟

الميرز

مذهولاً:

-كرهتيني ..!

ريتا

تواصل بنفس اللهجة:

-نعم .. عندما جلست هناك بمفردك وبقيت طويلاً .. طويلاً!

تنتحب:

-وكانت ليال طويلة .. طويلة .. أوه يا (الفريد) إنني أكره عملك .. كم أكرهه!

الميرز

محاولاً أن يبدو هادئاً:

-ولكن .. لقد انتهى كل هذا الآن ..

ريتا

تضحك بمرارة:

-آه .. حقاً! .. لقد ابتلعك الآن شيء أسوأ!

الميرز

مصدوماً:

-أسوأ! .. هل تسمين الطفل شيء أسوأ؟!

ريتا

بانفعال جارف:

-نعم .. اسمية كذلك .. اسمية شيء سيء .. بالنسبة للعلاقة القائمة بيننا نحن الاثنين .. لأن الطفل .. لأن الطفل يعتبر كيان إنساني رخيص.

باستثارة أكبر

-ولكني لن أقف مكتوفة الأيدي يا (الفريد)! .. لن أبقى صامته .. إنني أحذرك!

الميرز

ينظر إليها بثبات ويتحدث بصوت خفيض:

-أحياناً كثيرة أشعر بأنني أخاف منك يا (ريتا)!

ريتا

بحدة:

-إنني أخاف من نفسي أحياناً .. كل هذا بسببك .. أنت من زكيت نار الشر بداخلي.

الميرز

مشفقاً:

-يا إلهي .. باسم الله العلي القدير .. هل فعلت ذلك حقاً؟

ريتا

بحرارة:

-نعم فعلت .. ولازلت .. عندما مزقت أكثر الروابط المقدسة بيننا.

الميرز

بتأثر

-ولكن .. مهلاً يا (ريتا) .. فكري قليلاً .. إنه طفلك .. طفلنا الوحيد .. هذا هو الطفل الذي نتحدث عنه الآن!

ريتا

بشيء من التحدي:

-إنني أمتلك نصف هذا الطفل.

وبلهجة مختلفة تماماً:

-لكني أمتلكك بالكامل .. أنت ملكي! .. وسائل حقي كاملة في الحصول عليك!

الميرز

يهز كتفيه:

-أوه يا عزيزتي (ريتا) .. لا داعي للقتال للحصول على شيء ما .. الأشياء التي تريديها سوف تناليها بمنتهى الحرية ..

ريتا

تنظر إليه في ارتياب:

-تعنى أنك لن تحاول شيئاً كهذا في المستقبل؟

الميرز

بصدق:

-مطلقاً .. لا أستطيع فعل شيء كهذا .. يجب أن اقسم اهتمامي بينكما .. أنت و(يولف).

ريتا

تسأله في غموض:

-ولكن .. لو لم يولد (يولف) أبداً! .. ماذا إذاً؟

الميرز

بحيرة:

-حسناً .. تكون مسألة أخرى .. وسوف تكوني أنت الوحيدة في دائرة اهتمامي

ريتا

في صوت خافت مرتجف:

-إذاً .. فإنني أتمنى لو لم أنجبه قط!

الميرز

يقف منتتراً في فزع:

-(ريتا)! .. أنك لا تعرفين عما تتحدثين!

ريتا

ترتجف بانفعال:

-لقد جلبته أنا إلى هذا العالم .. محملاً بذلك الألم الذي يفوق كل وصف .. ولكني سئمت كل هذا .. سئمت كل ذلك التظاهر بالمرح وبأن شيئاً لم يحدث.

الميرز

بلهجة دافئة:

-نعم .. نعم .. إنني أعرف هذا تماماً.

ريتا

بثبات:

-ولكن، لابد لهذا من نهاية .. أريد أن أعيش حياتي .. بجانبك .. كل حياتي معك .. لا يمكنني أن أكون مجرد أم (يولف) .. هذا فقط .. لا شيء آخر .. لن أكون مجرد أم (يولف) .. إنني أحذرك! .. لا أستطيع .. يجب أن أكون كل شيء في حياتك ..

الميرز

برقة:

-ولكنك هكذا بالفعل يا (ريتا) .. من خلال طفلك.

ريتا

متهكمة:

-يـا إلهـي .. حديـث راق .. ناعـم! .. لا شيء أكـثر مـن هـذا .. لا شيء غـير هـذا .. هـذا النـوع مـن المعاملـة لا يناسـبني .. كلا يـا (الفريـد) .. ربمـا خلقـت كي أحتمـل هـذا الطفـل ولكـن ليـس لأكـون أمـه .. يجـب أن تشـعر بي كـما أنـا عليـه .. بكيـاني أنـا يـا (الفريـد) ..

الميرز

-لقد اعتدت أن تكوني قريبة جداً بكياتك من (يولف).

ريتا

-لقـد شـعرت بالأسـف الشـديد لأجلـه، لأنـك لم تبـال بمـا حـدث لـه، فقـط جعلتـه يقـرأ ويعمـل، بالـكاد انتبهـت إليـه.

الميرز

يومي ببطء:

-كلا، .. لقد كنت مثل الأعمى .. لم يكن هذا الوقت مناسباً كي ..

ريتا

تنظر إليه:

-لقد أزف الوقت أخيراً، أليس كذلك؟

الميرز:

-نعـم .. أخـيراً .. الآن أدرك أن أعظـم أنجـاز كان يجـب أن أفعلـه هـو أن أكـون أبـاً حقيقيـاً لـ(يولف)!

ريتا:

-وأنا؟ .. ما الذي كان يجب أن تكونه بالنسبة لي؟

الميرز

بحنان:

-أن أكون مغرماً بك .. بعاطفة قوية وعميقة.

[يحاول أن يمسك كفها]

ريتا

تتجنبه:

-إنني لا أبالي بعاطفتك القوية العميقة. إنني أريدك بالكامل، كل ما فيك، وحدك! كما حصلت عليك في أيام الحب الخوالي [ويصبح صوتها جافاً فيه شيء من العدائية] لن أهمل ضمن المخلفات والأوراق الذابلة .. مستحيل يا (الفريد)!

الميرز

بعطف:

-أعتقد أن السعادة كما يجب أن تكون تتمثل في وجود ثلاثتنا معاً .. هنا!

ريتا

بحدة:

-حتى تشعر بالرضا بمنتهي السهولة [وتجلس عند المنضدة جهة اليسار] والآن .. أمضت!

الميرز

يقترب أكثر:

-حسناً؟ .. ماذا؟

ريتا

ترفع عينيها إليه وفيهما نظرة كسيرة:

-عندما تسلمت برقيتك ليلة أمس ..

الميرز:

-ماذا؟

ريتا:

-ارتديت ثوباً أبيض ..

الميرز:

-نعم .. لقد رأيتك ترتديه عندما جئت.

ريتا:

-وتركت شعري ينسدل على كتفي ..

الميرز:

-شعرك الناعم المعطر.

ريتا:

-ينسدل على كتفي ويلتف حول عنقي ..

الميرز:

-لقد رأيته .. لقد رأيته .. كم كنت جميلة يا (ريتا)!

ريتا:

-وكانت هناك غلالة بلون الورد فوق كل مصباح وكنت أنا وأنت فقط، نحن الاثنان .. نحن فقط من ظل مستيقظاً في المنزل بأكمله .. وكانت هناك تلك العطور ودفء المكان.

الميرز:

-نعم .. نعم ..

ريتا

تنظر إليه بحسرة:

-هذا صحيح [تضحك ضحكة رفيعة] .. أمامك الكأس، لكنك لا تقربه - كما تقول القصيدة [تنهض ثم تمشي عبر المكان ثم ترقد على الأريكة كالمنهكة]

الميرز

[يعبر الحجرة حتى يقف أمامها]:

-كانت تملؤني الأفكار .. كنت أرغب في الحديث إليك حول مستقبلنا .. بالخصوص حول (يولف)!

ريتا

تبتسم:

-ولقد فعلت .. يا عزيزي.

الميرز:

-كلا .. لم أفعل .. فقد بدأت تخلعين ملابسك.

ريتا:

-نعم، ولقد تحدثت عن (يولف) طوال الوقت. هل تتذكر؟ لقد سألت عن أحوال الهضم بالنسبة لمعدة (يولف)!

الميرز:

ينظر إليها غير مصدق:

-(ريتا)!

ريتا:

ثم تمددت في فراشك وذهبت في النوم وكلك رضا عن نفسك وعن العالم.

الميرز

يهز رأسه:

_(ريتا)! .. (ريتا)!

ريتا

[تعود بظهرها إلى الوراء وتنظر إليه]

-ماذا يا (الفريد)؟

الميرز:

-ماذا ماذا؟

ريتا:

أمامك الكأس، لكنك لا تقربه

الميرز:

بصوت متحشرج:

-كلا .. لم أقربه.

[يبتعد عنها ويقف عند باب الحديقة. ترقد (ريتا) برهة بلا حراك بعينين مغلقتين]

ريتا

تنهض فجأة:

-ولكن .. هناك شيء واحد سوف أقوله لك يا (الفريد).

الميرز

يستدير نحوها وهو عند الباب:

-ماذا؟

ريتا

-لا ينبغي أن تشعر بالأمان إلى هذا الحد يا عزيزي!

الميرز:

-الأمان؟

ريتا:

-كلا .. لا يجب أن تكون مطمئناً إلى هذا الحد .. لا تثق كثيراً في أنك تملكني؟

الميرز:

يقترب أكثر:

-ماذا تعنين بذلك؟

ريتا

بشفتين مرتجفتين:

-أبداً .. للحظة لم أكن مخلصة لك تماماً يا (الفريد) .. أبداً!

الميرز:

-كلا يا (ريتا) .. أعرف ذلك .. إنني أعرف كل شيء عنك.

ريتا

تبرق عيناها:

-ولكن، لو أنك أهملتني ..

الميرز

-أهملك! .. لا أعرف بالضبط إلام تلمحين!

ريتا:

-آه، إنك لا تعرف حتى ما هي الأشياء التي تجعلني راضية، لو إنني ..

الميرز:

-لو أنك ..؟

ريتا:

-لو إنني اكتشفت في أحد الأيام أنك لم تعد تهتم بي. لم تعد تحبني كما اعتدت.

الميرز:

-ولكن يا عزيزتي، إن التغيير يحدث لكل البشر، ومن الطبيعي أن يعتري حياتنا أيضاً، كما يحدث لكل شخص آخر.

ريتا:

-لن يحدث لي أنا أبداً، ولا أريد أن أسمع عن أي تغيير بالنسبة لك أيضاً. لا يمكنني أن أتحمل هذا يا (الفريد). أعني إنني أتمنى أن احتفظ بك لنفسي فقط! .. أنا وحدي!

الميرز

ينظر إليها مكتئباً:

-إن لديك طبيعة غيور مثيرة للفزع!

ريتا

-لا يمكنني أن أجعل نفسي شخصاً آخر سواي [وبتهديد] لو أنك تشرك نفسك بيني وبين شخص آخر..

الميرز

-حسن، ماذا؟

ريتا:

-إذن .. يجب أن انتقم لنفسي منك! .. منك يا (الفريد)!

الميرز:

-ماذا يا ترى سيحقق مآربك في الانتقام؟

ريتا:

-لا أعرف .. لا .. إنني أعرف.

الميرز:

-حسناً؟

ريتا:

-سوف أذهب وألقي بنفسي ..

الميرز:

-تلقين بنفسك! .. هل تعنين؟

ريتا:

-نعم .. سوف ألقي بنفسي بين ذراعي .. بين ذراعي أول رجل أقابله!

الميرز:

ينظر إليها يلطف ويهز رأسه:

-لن تفعلي هذا أبداً، أميرتي النبيلة، العظيمة، المؤمنة.

ريتا:

تلف ذراعيها حول عنقه:

-أنك لا تعرف ما يمكنني أن أفعله لو .. لو أنك لن تحبني أكثر ..

الميرز:

-لو إنني لن أحبك أكثر؟ .. كيف تجرئين على قول شيء كهذا؟

ريتا

تتركه وتضحك:

-إنني ربما أقوم بإغواء بناء الطرق .. الموجود هنا ..

الميرز

يتنفس الصعداء:

-الحمد لله، .. إنك تمزحين إذن ..

ريتا:

-بل صادقة في كل ما قلته، لأنه يبدو شخصاً وسيماً، معتد بنفسه ..لذا يجب أن آخذه من شخص آخر .. وهذا بالضبط ما فعله (يولف) معي.

الميرز:

-هل تعنين أن (يولف) الصغير-إبننا-فعل هذا؟

ريتا

تشير إليه بإصبعها:

-انظر إلى نفسك وأنت تنطق باسمه .. صوتك أقشعر وارتجف [تطرقع أصابع كفيها مهددة] إنني أتمنى لو ..

الميرز

ينظر إليها بانزعاج:

-ما الذي تتمنيه يا (ريتا)؟

ريتا

تبتعد عنه في غضب:

-كلا .. كلا .. كلا .. لن أخبرك بهذا .. أبداً!

الميرز

يقترب منها:

-(ريتا)! إنني أحذرك .. من أجلك ومن أجلي .. لا تدعي الشيطان يقودك لعل أي شيء سيء.

[بورغيم) و(آستا) يأتيان من الحديقة. وكل منهما تبدو عليه العاطفة القوية والانفعالات الواضحة. كل منهما يبدو محبطاً. (آستا) تظل بالخارج في الشرفة، بينما يدخل (بورغيم) الحجرة]

بورغيم

-لقد قضي الأمر. آنسة (الميرز) وأنا انتهينا للتو من آخر تمشيه لنا معاً.

ريتا

تنظر إليه بشيء من الدهشة:

-أو ليس هناك أية رحلة أخرى بعد هذه التمشية؟

بورغيم:

-بلى. بالنسبة لي على الأقل.

ريتا:

-أنت وحدك؟

بورغيم:

-نعم. أنا وحدي.

ريتا

تنظر باكتئاب إلى الميرز:

-هل سمعت يا (الفريد)؟ [تلتفت إلى (بورغيم)] أقسم أن عين حسود قد أصابتكما.

بورغيم

ينظر إليها:

-عين الحسود؟

ريتا

تهز رأسها أن نعم:

-نعم. عين الحسود؟

بورغيم:

-هل تؤمنين بالحسد يا سيد (الميرز)؟

ريتا:

-نعم .. لقد بدأت أومن أن كل منا يتعرض لنظرة حاسدة من عين طفل!

الميرز

مصدوماً يهمس:

-(ريتا)! .. كيف تجرؤين ..؟

ريتا

بأنفاس ثقيلة:

-إنك أنت من جعلتني شريرة حسود وقبيحة، يا (الفريد)!

[برهة من الصمت، وبعض الأصوات المشوشة تأتي من جانب صنابير المياه]

بورغيم

يذهب إلى الباب الزجاجي:

-ما هذا الصوت يا ترى ..؟

آستا:

عند الباب:

-أنظر إلى هؤلاء الذين يركضون هناك!

الميرز

-ما هذا يا ترى؟ [ينظر خارجاً] أولئك الشياطين الصغار، أظن أنهم المتسببون في هذه الفوضى مرة أخرى.

بورغيم

يصيح:

-هيه؛ أنتم أيها الصبية بأسفل، ما الأمر؟

[عدد منهم يجيبه في صوت واحد]

ريتا

-ماذا يقولون؟

بورغيم:

-يقولون أن طفلاً قد سقط!

الميرز:

-طفل سقط!

آستا

بانفعال شديد:

-طفل صغير! هل قالوا طفل صغير؟

الميرز:

-أوه .. كلهم يعرفون كيف يسبحون، معظمهم يجيد السباحة.

ريتا

تصرخ في رعب:

-أين ذهب (يولف)؟

الميرز:

-اهدئي .. بالله عليك اهدئي .. (يولف) في الحديقة يلعب.

آستا:

-كلا .. لم يكن في الحديقة.

ريتا

تلوح بذراعيها:

-يا إلهي! .. يا إلهي!

بورغيم

ينصت ثم يصيح للفتية بأسفل:

-طفل من هو الذي غرق؟ .. هه ... ماذا تقولون؟

[أصوات مبهمة مختلطة تسمع (بورغيم) و(آستا) يهتفان وينطلقان إلى الحديقة]

الميرز

في صوت متهدج:

-إنه ليس (يولف)، ليس (يولف) يا (ريتا)!

ريتا

في الشرفة، تنصت:

-صه؛ صمتاً. دعني أسمع ماذا يقولون.

[(ريتا) تعود دمعها صرخة تشق سكون الحجرة]

الميرز

يتبعها:

-ماذا قالوا؟

ريتا

تغوص في المقعد إلى جهة اليسار:

-قالوا العكاز يطفو !

الميرز

مصدوماً:

-لا! لا! لا!

ريتا

بصوت متحشرج:

-(يولف)! (يولف)! أوه، ولكن .. لابد أنهم أنقذوه!

الميرز

يتحدث مشدوهاً:

-لابد! يا للحياة الغالية! يا للحياة الغالية!

[يندفع إلى الحديقة]

ممر ضيق، صغير في حديقة (الميرز) يقود إلى الخليج. وهناك أشجار عتيقة شامخة مائلة على يسار المكان .. ومن خلفية المكان شلال يتدفق بين الصخور عند حافة الغابة .. ثمة ممر آخر بالجور مسيج بأشجار صغيرة، وبينهما يمكنك أن ترى مشهداً للخليج. وأمام المشهد نرى قمره قارب يسقط معظمة في الماء. وتحت الأشجار العتيقة، إلى جهة اليسار، كانت هناك منضدة وبضع مقاعد، كلها صنعت من جذوع الشجر المقطوعة. الطقس ثقيل في هذا اليوم، ويطبق على الأنفاس، وتوجد سحب ثائرة سائرة في السماء، تجعل الجو ضبابياً نوعاً ما. (الفريد الميرز) يرتدي ملابسه السابقة، يجلس على أحد المقاعد، ساند زراعية على المنضدة، قبعته أمامه. يحدق إلى مشهد المياه أمام عينيه، بنظرة غير واعية الإحساس فيها. بعد دقيقة تأتي (آستا الميرز) عبر الممر الضيق. وهي تحمل في يدها مظلة مفتوحة.

آستا

تدخل المكان في هدوء تام وتعبر أمامه في رشاقة:

-لا ينبغي أن تجلس هنا في هذا الطقس الرمادي الكئيب يا (الفريد).

الميرز

يهز رأسه في بطء، لكنه لا يجيب:

آستا

تغلق مظلتها:

-لقد كنت أبحث عنك منذ وقت ليس بالقصير.

الميرز

بدون أي تعبير:

-أشكرك.

آستا

تجلب مقعداً وتجلس بجانبه:

-هل كنت تجلس هنا منذ وقت طويل؟ .. الوقت كله؟

الميرز

لا يجيب. بعد دقيقة يقول:

-كلا .. لا يمكنني .. هذا بشع .. بشع لدرجة الاستحالة.

آستا

تضع كفها على ذراعه في حنان:

-أيها المسكين!

الميرز

يحدق في وجهها:

-هل هذا صحيح إذن يا (آستا)؟ .. أو إنني قد جننت؟ .. أو إنني فقط أحلم؟ .. لو كان هذا فقط مجرد حلم! .. تخيلي هذا، .. كم يكون هذا رائعاً لو أستيقظ الآن!

آستا:

-كم أتمنى لو أستطيع أن أوقظك.

الميرز

ينظر بعيداً إلى المياه:

-كم يبدو الخليج مثيراً للشفقة اليوم .. يبدو ثقيلاً ومريضاً .. لونه رمادي مصفر بلون سحاب المطر!

آستا

تتوسل:

-أوه، (الفريد)، أرجوك .. كف عن الجلوس هنا وتأمل الخليج!

الميرز

بدون أن ينصت إليها:

-وعلى السطح -بالطبع- يبقى هامداً .. ولكنه في الأعماق يجري كدوامة قوية!

آستا

في يأس:

-أوه، بحق الله، لا تفكر في الأعماق!

الميرز

ينظر إلى في رقة:

-هـل تعتقديـن أنـه يرقـد فقـط خـارج هـذا المـكان؟ .. يجـب أن تؤمنـي أن الأمـواج تجـري بعيـداً عـن هنـا .. بعيـداً لتصـب في البحـر.

آستا

تخفي وجهها بكيها وتنتحب على المنضدة:

-يا إلهي! .. يا إلهي!

الميرز

بأنفاس ثقيلة:

-ولهذا فإن (يولف) الصغير قد ذهب .. ذهب بعيداً عنا جميعاً الآن!

آستا

تنظر إليه في توسل:

-أرجوك يا (الفريد) .. لا تتحدث بهذه الطريقة ولا عن هذا النوع من الأمور!

الميرز

-ولكـن تسـتطيعين فعـل كل شيء في غضـون ثمـاني وعشريـن سـاعة .. كـم أنـت ماهـرة .. كل شيء تسـتطيعين فعلـه في الخـارج!

آستا

تصيح وهي تسد أذنيها بكفيها:

-(الفريد)!

الميرز

ينقر على المنضدة بأصابعه:

-ولكن .. هل يمكنك أن تجدي المعنى لشيء كهذا؟

آستا

تنظر إليه:

-مثل ماذا؟

الميرز:

-هذا الشيء الذي حدث لـ(ريتا) ولي.

آستا:

-(المعنى)؟ .. أي معنى؟

الميرز

بنفاذ صبر:

-نعـم، المعنـى، لأنـه يجـب أن يكـون هنـاك معنـى لهـذا الحيـاة، البقـاء، المصـير. لا يمكـن أن تكـون بـلا معنـى.

آستا:

-(الفريد)، يا عزيزي، من يمكنه أن يزعم أنه يعرف أي شيء عن هذه الأمور؟

الميرز

يضحك بمرارة:

-ربمـا كان كل شيء وليـد الصدفـة، ويحـدث مـن تلقـاء نفسـه مثـل آلـة تعمـل دون أن يشـغلها العامـل .. ربمـا!

آستا

تفكر:

-أعتقد أن هذا ليس إلا ..

الميرز

بغضب:

-حقـاً؟ يمكنـك توضيـح هـذا لي كأننـي أحمـق لا يعـي شـيئاً [بلطـف]. هـا هـو (يولـف)، بالضبـط حيـث يبـدأ المـرء دخـول منطقـة الوعـي في هـذه الحيـاة مملـوءا بـكل احتـمالات الطفولـة. احتـمالات براقـة، غنيـة، ربمـا. كان سـيملؤني زهـواً وسـعادة .. كل مـا كان يحتاجـه هـو امـرأة عجـوز مخبولـة تـأتي مـن مـكان بعيـد لتعـرض علينـا كلبـاً في حقيبـة!..

آستا:

-ولكننا لا نعرف بالضبط ما الذي قد حدث حقاً.

الميرز:

-بـل نعـرف .. لقـد قـال الصبيـة أنهـم قـد رأوهـا عنـد الشـلال .. وكان هـو يقـف خلفهـا .. يقـف وحيـداً محدقـاً فيهـا .. يتبعهـا كالمسـحور [وبحـسرة] لكنـه لم يسـتطع فسـقط .. هـوى

ورحـل إلى الأبـد!

آستا:

-نعم، نعم، ولكن ..

الميرز:

-لقد سحبته خلفها إلى الأعماق، هذه هي الحقيقة يا (آستا).

آستا:

-ولكن يا عزيزي .. لماذا تفعل شيئاً كهذا؟

الميرز:

-نعـم، نعـم .. هـذا هـو السـؤال! لمـاذا فعلـت هـذا؟ لا يوجـد سـبب حقيقـي وراء هـذا، أو دافـع يمكـن الاسـتناد عليـه .. أعنـي أن (يولـف) لم يتسـبب لهـا في أذى قـط. لم يصـح أبـداً خلفهـا .. لم يحـاول أبـداً ألقـاء الكلـب بالحجـارة. لم يرفـع عينيـه إليهـا أو إلى كلبهـا حتـى الأمـس. إذاً فـلا وجـود دافـع لهـذا إذاً، كل هـذا، بـلا هـدف .. بـلا معنـى .. هـذا هـو قضـاء اللـه وقـدره ..

آستا

-هل تحدثت إلى (ريتا) عن هذه الأشياء؟

الميرز

يهز رأسه:

-أشعر براحة أكثر عندما أتحدث عن أمور كهذه معك. [يتنهد] وعن أي شيء آخر أيضاً.

[(آسـتا) تتنـاول أدوات الحياكـة الخاصـة بهـا، وقطعـة قـماش سـوداء، (المـيرز) ينظـر بعـدم فهـم]

الميرز:

ماذا لديك هنا؟

آستا:

تتناول قبعته:

-شريط أسود صغير

الميرز:

-وأي جدوى من شيء كهذا؟

آستا:

-لقد طلبت مني (ريتا) أن أقوم بهذا الأمر، فهل أفعل؟

الميرز:

-آه، نعم؛ لا عليك.

[تحيك الشريط حول القبعة]

الميرز

[جالساً يتطلع إليها]

-إلى أين ذهبت (ريتا)؟

آستا

-إنها تتمشى قليلاً في الجوار .. في الحديقة على ما أعتقد .. ومعها (بورغيم).

الميرز

بشيء من المفاجأة:

-هه؟ .. هل (بورغيم) موجود هنا اليوم أيضاً؟

آستا:

-نعم .. لقد جاء في قطار الظهيرة.

الميرز:

-لم أتوقع هذا أبداً!

آستا

تحيك:

-لقد كان مغرماً بـ(يولف).

الميرز:

-إن لـ(بورغيم) روحاً عامرة بالإيمان يا (آستا).

آستا

بلهجة دافئة:

-نعم .. وهو مؤمن أيضاً. هذا مؤكد.

الميرز

يثبت عينيه عليها:

-أنت تحبينه، أليس كذلك؟

آستا:

-نعم، أنا مولعة به.

الميرز:

-ولكن-بعيداً عن كل شيء-لا يمكنك خداع نفسك، أعني ..

آستا

تقاطعه:

-(الفريد) يا عزيزي، لا تتحدث على هذا النحو!

الميرز:

-نعم، ولكن فقط أخبريني لماذا لا يمكنك أن ..؟

آستا:

-كلا، كلا! أرجوك كف عن هذا. لا يجب أن تسألني حقاً. أن هذا فظيع بالنسبة لي كما تعلم، والآن، ها هي القبعة قد انتهت.

الميرز:

-أشكرك.

آستا:

-ولكن .. لازال هناك الذراع الأيسر.

الميرز:

-هل يحتاج إلى شريط أسود هو الآخر.

آستا:

-نعم .. إنها العادة.

الميرز:

-حسناً .. إفعلي ما ترينه مناسباً.

[آستا تقترب أكثر وتبدأ في الحياكة]

آستا:

-فلتبق ذراعك ثابتاً، حتى لا أوخزك بالإبرة.

الميرز

بابتسامة باهتة:

-إن هذا مثل الأيام الخوالي.

آستا:

-نعم .. إنها كذلك.

الميرز:

-عندما كنت فتاة صغيرة في هذه الأيام، اعتدت أن تجلسي هنا وتحيكي ملابسي.

آستا:

-كأفضل ما استطعت.

الميرز:

-وأول شيء قمت بحياكته لي .. كان شريط أسود أيضاً.

آستا:

-حقاً؟

الميرز:

- قبعة الجامعة. عندما مات الوالد.

آستا:

-حقاً؟ .. لحظة واحدة .. إنني لا أتذكر هذا.

الميرز

-نعم .. لقد كنت صغيرة جداً في هذه الأيام.

آستا:

-نعم .. كنت صغيرة بالفعل.

الميرز:

-ثم-بعد ذلك بسنتين-عندما فقدنا والدتك؛ قمت بحياكة شريط عريض حول ذراعي مرة أخرى.

آستا:

-اعتقدت إنني أفعل الصواب.

الميرز

يربت على كفها:

-نعم، نعم، لقد كان هو الفعل الصائب يا (آستا) .. وبقينا، أنت وأنا، وحدنا في هذا العالم.

آستا:

-نعم .. نحن الاثنان .. معاً ..

الميرز:

-هل انتهيت؟

آستا:

-نعـم [تضـع أدوات الحياكـة جانبـاً] لقـد كان هـذا وقتـاً طيبـاً بالنسـبة لنـا يـا (الفريـد)، عندمـا قـال الجميـع أننـا وحدنـا!

الميرز:

-نعم .. لقد كان كذلك .. وكان وقتاً عصيباً عندما بدأنا العمل.

آستا:

-عندما بدأت أنت العمل.

الميرز

بحيوية أكثر:

-وأنت أيضاً .. لقد عملت بجد وعلى طريقتك [يبتسم] كم كنت مخلصة أيتها العزيزة.

آستا:

-آه! لا يجب أن تذكرني بتلك الحيلة البلهاء بشأن الاسم.

الميرز:

-نعم .. لو كنت صبياً، لكان اسمك الآن هو (يولف)!

آستا:

-نعـم، لـو كنـت. ولكـن .. عندمـا أصبحـت أنـت طالبـاً [تبتسـم رغـماً عنهـا] أتخيـل كـم كنـت تبـدو كالطفـل وقتهـا.

الميرز:

-أنا؟ .. أنا كنت أبدو كالطفل؟

آستا:

-نعـم، إننـي أتذكـر هـذا الآن .. أتذكـر كل هـذا جيـداً .. لأنـك كنـت خجـولاً مـن كونـك لا تمتلـك أخـوة .. فقـط أخـت!

الميرز:

-كلا .. لم يكن أنا .. بل أنت، أنت تعرفين هذا .. أنت كنت خجولة جداً.

آستا:

-حسناً .. نعم .. ربما كنت أنا كذلك أيضاً، نوعاً ما؛ من ثم شعرت بالمزيد من الأسف لأجلك.

الميرز:

-نعم .. لقد كنت تأسفين من أجلي .. لهذا بحثت عن الملابس التي كنت أرتديها عندما كنت صبياً ..

آستا:

-أفضل ما كنت ترتديه في أيام الآحاد .. هل تذكر القميص الأزرق والبنطلون القصير؟

الميرز

يريح عينيه عليها:

-كما أتذكر عندما كنت تختلسين ملابسي ثم ترتديها!

آستا:

-نعم، لكنى كنت أفعل هذا فقط عندما نكون وحدنا في المنزل.

الميرز:

-وكم كنا فخورين بأنفسنا وجادين في أمور حياتنا وقتها، وكنت أدعوك دائماً (يولف)!

آستا:

-ولكن يا (الفريد) إنك لم تقل شيئاً من هذا لـ(ريتا)، أليس كذلك؟

الميرز:

-أعتقد إنني قد أخبرتها بذلك ذات مرة.

آستا:

-ولكن يا (الفريد) كيف طاوعك قلبك على فعل شيء كهذا.

الميرز:

-حسناً .. كما تعرفين .. أن المرء يقول كل شيء لزوجته .. أكثر أو أقل ..

آستا:

-نعم .. أعتقد أن هذا حقيقي.

الميرز:

كأنه يستيقظ من غفوة، يضع راحته على جبته ويقفز من مكانه:

-يا إلهي .. كيف أجلس ها هنا و..

آستا:

تنهض وتتطلع إليه في أسى:

-ما الخطب؟

الميرز:

-لقد انزلق بعيداً عني .. لقد ذهب بعيداً عن ذهني.

آستا:

-(يولف)!

الميرز:

-ها أنا أعيد إحياء ذكريات قديمة .. ولم يكن هو جزء منها.

آستا:

-بل يا (الفريد)، لقد كان (يولف) في نهاية كل هذه السلسلة من الذكريات.

الميرز:

-لم يكن كذلك، لقد انزلق بعيداً عن ذهني. لم أره أمامي للحظة، بينما كنا نجلس ونتكلم، نسيته تماماً وقتها.

آستا:

-ولكن .. يجب أن تروح قليلاً على قلبك من أحزانه.

الميرز:

-كلا، كلا، كلا! هذا ما لا يجب أن يكون! لم يعد لدي عمل أقوم به، لم يعد لدي الحق في ذلك، ولا قلباً له [يسير بعيداً إلى جهة اليمين، منزعجاً تماماً] لدي عمل واحد أكرس له ما بقى من حياتي، أن أفكر فيه وهو يرقد بعيداً في الأعماق.

آستا

تتبعه هاتفة:

-(الفريد)! (الفريد)! .. لا تذهب إلى الخليج!

الميرز

-يجب أن أذهب إليه .. دعيني أخرج .. سوف أحضر قارباً.

آستا

تقوده إلى المنضدة:

-يجب أن تعطي عقلك القليل من الراحة .. تعال هنا وأجلس ..

الميرز

يأتي ويجلس إلى المنضدة:

-حسناً .. حسناً .. كما تشائين.

آستا:

-كلا .. لا تجلس هناك .. بل هنا.

الميرز:

-حسناً يا (آستا) .. دعيني وشأني الآن.

آستا:

-كلا .. سوف تجلس هنا، وتنظر إلى هناك .. [تدفعه دفعاً ليجلس على مقعد بعيداً عن الجانب الأيمن] ها هو أفضل مكان .. وهنا ستكون في أفضل حال [تجلس هي في مكانه السابق] والآن يمكننا أن نتحدث قليلاً.

الميرز

يتنهد بحرارة:

-من المريح نفسياً أن أتذكر الأحزان للحظة!

آستا:

-هذا مؤكد .. ويجب عليك أن تفعله.

الميرز:

-ولكن ألا تعتقدين إنني أضعف من أن أحتمل شيئاً فظيعاً كهذا، لا طاقة لدي لاحتماله؟

آستا:

-نعم .. لا أعتقد .. ولكنه من المستحيل أن يستمر هذا الأمر في التفاقم بداخلك على هذا النحو.

الميرز:

-نعم .. كان هذا مستحيلاً .. قبل أن تأتي إلى هنا، كنت أجلس في هذا المكان أعذّب نفسي بالكلمات والذكريات و...

آستا:

-حقاً؟

الميرز:

-و.. هل تصدقين هذا يا (آستا)؟ ..

آستا:

-حسناً؟

الميرز:

-في غمرة التعاسة وجدتني .. وجدتني أتساءل ما الذي سوف نعده على الغداء اليوم.

آستا

بلطف:

-حسناً، حسناً .. لا غرابة في ذلك .. أنك تجد لنفسك متنفساً وسط احزانك

الميرز:

-نعم .. كما تعلمين .. ثمة متنفس في هذه التعاسة .. [يمسك يدها عبر المنضدة] كم إنني سعيد إنني لدي أختاً مثلك .. كم أنا سعيد بهذا .. سعيد .. سعيد .. في غمرة تعاستي!

آستا

تنظر إليه بحنان:

-أولاً وقبل أي شيء يجب أن تكون سعيداً لأن لديك (ريتا).

الميرز:

-نعم .. نعم .. هذا مفهوم دون حاجة إلى قوله .. ولكن .. أنا و(ريتا) لا ننتمي إلى نفس العائلة .. ليست كأختي.

آستا

باهتمام:

-هل تظن هذا حقاً يا (الفريد)؟

الميرز

-بالطبع، إن عائلتنا شيء مختلف [بشيء من الدعابة] والآن، كان لدينا جميعاً أسماء تبدأ بحروف متحركة. هل تذكرين كيف اعتدنا أن نتحدث عن هذه المفارقة؟ وكل علاقاتنا وأقاربنا .. كلهم كانوا من الفقراء. وكلنا كان لديه ذات العينان.

آستا:

-هل تعتقد أن لدى أيضاً ..؟

الميرز:

-كلاً .. لقد كنت تشبهين أمك تماماً. وليس بك أي شيء منا. ولا حتى والدنا ولكن كلنا متشابهين!

آستا:

-كلنا متشابهين؟

الميرز:

-حسناً .. أنا على يقين من ذلك .. كلنا متشابهين، .. حياتنا معاً جعلتنا متماثلين .. أعني في العقل.

آستا

[تنفعل أكثر]

-أوه، لم يكن يجب أن تقول هذا أبداً يا (الفريد)، لقد أخذت انطباعاً فحسب .. أعني أن كل شيء عندي ينتمي إليك .. كل شيء .. كل شيء صالح في هذا العالم.

الميرز

يهز رأسه:

-ليس بك أي شيء مني يا (آستا) .. بل العكس ..

آستا

-بل كل شيء .. يجب أن تدرك هذا بنفسك .. وما من جزاء أو تضحية تفيك حقك.

الميرز

مقاطعاً:

-ماذا! تضحية! لا تقولي أشياء كهذه. لقد كنت أحبك يا (آستا)، منذ أن كنت طفلة صغيرة [يصمت لحظة] وبالرغم من ذلك، فأنا أعتقد دائماً أننا قد عاملناك بشكل خاطئ.

آستا

بدهشة:

-خاطئ! .. أنت؟

الميرز:

-لا أعنيني أنا بالتحديد. بل ..

آستا

منقطعة الأنفاس:

-بل ..؟

الميرز:

-أعنى الوالد.

آستا:

تنهض تلقائياً:

-والدنا! [تجلس مرة أخرى] ما الذي تعنيه بهذا يا (الفريد)؟

الميرز:

-لم يكن والدنا لطيفاً معك أبداً.

آستا

بتوسل:

-أرجوك .. لا تقل هذا.

الميرز:

-نعم ..لأنها الحقيقة .. لم يكن يحبك .. ليس كما يبدو دائماً.

آستا

بانفعال:

-ربما ليس مثلك .. ولكن .. يمكن فهم شيء كهذا

الميرز

يستطرد:

-وقد كان قاسياً حتى على أمك، أيضاً .. خاصة في الأعوام الأخيرة.

آستا

برقة:

-تذكر أن أمنا كانت أصغر منه بكثير .. بكثير.

الميرز:

-هل تعتقد من أنهما لم يحسنا التعامل بينهما أبداً؟

آستا:

-ربما

الميرز:

-نعم .. ولكن .. كلنا متشابهين .. الوالد، الذي كان لطيف العشر، دمث الأخلاق، رقيق الحاشية بالنسبة للجميع .. وودوداً لكل الناس ..

آستا

بهدوء:

-ولكن أمنا لم تكن دائماً هكذا، أيضاً.

الميرز:

-لم تكن كذلك؟

آستا:

-ربما.

الميرز:

-بالنسبة لوالدنا، هل تعنين هذا؟

آستا:

-نعم.

الميرز:

-لم ألحظ هذا.

آستا:

-تنهض مكافحة دموعها.

-عزيزي (الفريد)، دعهما يرقدان في سلام .. لقد رحلا عنا.

[ثم تتجه إلى اليمين]

الميرز

ينهض واقفاً:

-نعم .. فلندعهما يرقدان في سلام. [يفرك كفيه] ولكن هذان اللذان قد رحلا لم يتركانا في سلام يا (آستا). لا بالليل ولا بالنهار.

آستا

تنظر إليه في حنان جاف:

-ولكن الوقت كفيل بأن يجعل كل شيء أقل مرارة.

الميرز

ينظر إليها رغماً عنه:

-نعم، ألا تعتقدين هذا أنت أيضاً؟ لكني فقط أحاول العبور خلال تلك الأيام الخوالي المريعة [يتحشرج صوته] كلا .. لا أستطيع أن أرى.

آستا

تضع يديها على كتفيه:

-اذهب إلى (ريتا) .. أتوسل إليك.

الميرز

يبتعد منسحباً بانفعال:

-كلا، كلا، كلا- لا تتحدثي إلى عن هذا! لأنني لا أستطيع [بهدوء] دعيني هنا معك.

آستا:

-حسناً، لن أدعك تذهب!

الميرز:

يتناول يدها ويحتضنها بسرعة:

-أشكرك من أجل ذلك! [للحظة ينظر خارجاً إلى الخليج] إلى أين ذهب ولدي الصغير (يولف) الآن؟ [يبتسم بحزن إليها] هل يمكنك أن تخبريني أيتها الكبيرة الذكية؟ .. [يهز رأسه] لا أحد في هذا العالم بأكمله يستطيع أن يخبرني بهذا. أنا وحدي أعرف الحقيقة الوحيدة المرعبة؛ إنني لم أحصل عليه أبداً.

آستا

تنظر إلى جهة اليسار وتسحب يدها:

-لقد عادوا.

[السيد (المرز) و(بورغيم) يدخلان، يأتيان عبر الممر في الحديقة، هي في المقدمة وهو يتبعها. هي ترتدي ملابس سوداء. وعلى رأسها وشاحاً أسود. هو يتأبط مظلة تحت ذراعة]

المرز

يذهب لمقابلتها:

-كيف حالك الآن يا (ريتا)؟

ريتا

تعبر أمامه متجاهلة إياه:

-أوه، لا تسألني.

المرز:

-لماذا جئت إلى هنا؟

ريتا:

-فقط لأراك، ماذا تفعل؟

المرز:

-لا شيء. (آستا) جاءت معي.

ريتا:

-نعم، ولكن قبل أن تأتي (آستا)؟ لقد كنت بعيداً عني طوال فترة الصباح.

المرز:

-كنت أجلس ها هنا طوال الوقت، انظر إلى المياه.

ريتا:

-يا إلهي، .. كيف استطعت أن تفعل ذلك؟!

المرز

بنفاذ صبر:

-إنني على أفضل ما يكون بمفردي.

ريتا

تندهش نوعاً ما لهذا:

-لهذا تجلس هنا! في مكان واحد لا يتغير!

المرز:

-لا شيء آخر لدي في هذا العالم كي أفعله.

ريتا:

-لا أتحمل البقاء في أي مكان .. على الأقل هنا .. والخليج بجانبي طوال الوقت

المرز:

-هذا هو بيت القصيد .. الخليج قريب جداً.

ريتا

إلى (بورغيم):

-ألا تعتقد أنه من الأفضل أن يأتي معنا؟

بورغيم

إلى (المرز):

-بالتأكيد سيكون هذا أفضل كثيراً.

المرز:

-كلا، كلا .. دعوني أبقى حيث أنا.

ريتا

-إذن .. سأبقى معك يا (الفريد).

المرز:

-حسن جداً .. تبقين هنا معي .. وأنت أيضاً تبقين يا (آستا).

آستا

تهمس لـ(بورغيم):

-فلنتركهما وحدهما.

بورغيم

يغمز بعينيه علامة الفهم:

-آنسة (المرز)، هل نذهب في تمشية قصيرة لمرة أخيرة؟

آستا

تلتقط مظلتها:

-نعم .. بالطبع .. بكل سرور .. فلنذهب إلى مكان أبعد.

[(بورغيم) و(آستا) يخرجان معاً ويختفيان خلف قمره القارب. (المرز) يتحرك قليلاً في المكان جيئة وذهاباً ثم يجلس على صخرة تحت شجره في مقدمة المشهد إلى جهة اليسار]

ريتا

تقترب أكثر وتقف على مقربة منه ثم تقف أمامه ويداها تتدليان أمامها:

-هل يمكنك أن تطرح هذه الفكرة جانباً يا (الفريد) ..؟ فكره أننا فقدنا (يولف).

المرز

ينظر إلى الخلفية بسجن:

-يبدو أننا قد أعتدنا بالفعل على هذه الفكرة

ريتا:

-لا أستطيع، لا أستطيع. وهذا المشهد المخيف الذي سيصاحبني طوال أيام حياتي.

المرز

يرفع بصرة إليها:

-أي مشهد؟ .. ما الذي رأيتيه؟

ريتا:

-لم أشاهد أي شيء بنفسي، لقد سمعتهم فقط يصفونه .. أوه ..

المرز:

-من الأجدر بك أن تخبرني بكل شيء حالاً.

ريتا:

-لقد صحبت (بورغيم) معي إلى النافورة ..

المرز:

-ولمه فعلت ذلك؟

ريتا:

-لأسأل الصبية عما حدث وكيف حدث.

المرز:

-إننا نعرف عن هذا الأمر ما فيه الكفاية.

ريتا:

-لقد اكتشفنا ما هو الأكثر من هذا

المرز:

-حسناً؟

ريتا:

-إن هذا غير حقيقي، الصبية يقولون، أن التيار قد جرفه بعيداً في لحظة.

المرز:

-هل يقولون هذا الآن؟

ريتا:

-نعم، قالوا أنهم قد رأوه راقداً عند القاع المنخفض لمنطقة المياه الصافية.

المرز:

يجز على أسنانه مغتاظاً:

-ولم يحاولوا إنقاذه!

ريتا:

-ربما لم يستطع احدهم أن يفعل.

المرز:

-كلهم يستطيعون السباحة. هل قالوا كيف كان راقداً عندما رأوه؟

ريتا:

-نعم. قالوا أنهم رأوه راقداً على ظهره وعيناه مفتوحتان على أقصى اتساعهما.

المرز:

-عيناه مفتوحتان. لكنه مستقر تماماً.

ريتا:

-نعم. ساكن تماماً. ثم جاء شيء ما وحمله بعيداً. يقولون أنها موجه تحتية.

المرز

يهز رأسه ببطء :

-إذن .. كان هذا آخر ما شاهدوه عليه.

ريتا

تختنق بالدموع:

-نعم.

المرز

بصوت لا نغمة له:

-ولن يراه أحد بعد ذلك أبداً .. أبداً!

ريتا

تنتحب:

-ليلاً ونهاراً سيكون أمامي، حيث يرقد بعيداً هناك.

المرز:

-بعينتين مفتوحتين على أقصى اتساعهما.

ريتا

ترتعش:

-نعم، بالعينين المفتوحتين على أقصى اتساع. إنني أراهما .. إنني أراهما أمامي.

المرز

ينهض ببطء، ينظر إليها بهدوء، ولكن بشيء من الوعيد:

-هل كانت عين الحسود يا (ريتا)؟

ريتا

يشحب وجهها:

-حسود؟!

المرز

يقترب منها أكثر:

-هل كانت عين الحسد هي التي تحدق فينا؟ .. تحت هناك .. من الأعماق؟

ريتا

تنتفض عائدة بظهرها إلى الوراء في حركة عصبية:

-..(الفريد)؟!

المرز

يتبعها:

-أجيبي عن هذا السؤال! هل كانت عين الحسد هي عين الطفل؟

ريتا

تصرخ:

-(الفريد)! (الفريد)!

المرز

-ها نحن يا (ريتا) قد حصلنا على أقصى ما تتمنيه.

ريتا

-أنا؟ .. ما الذي تمنيته؟

المرز

-ألا يكون (يولف) هنا.

ريتا

-أقسم بالله إنني لم أتمن شيئاً كهذا .. كل ما أردته هو ألا يقف (يولف) عائقاً بيننا .. هذا ما تمنيته.

المرز:

-حسناً .. لن يكون عائقاً بيننا في المستقبل.

ريتا

في صوت خفيض، تنظر أمامها:

-نعم .. ربما .. في المستقبل [تبكي] يا إلهي، هذا المنظر المخيف!

المرز

يهز رأسه:

-عين الطفل الشريرة.

ريتا

تعود بظهرها إلى الوراء في رعب:

-دعني وشأني يا (الفريد)! إنني أخاف منك! لم أرك كهذا من قبل أبداً!

المرز

ينظر إليها بقسوة وببرود:

-الحزن يجعل الناس أشرار وقبحاء.

ريتا

خائفة:

-إنني أشعر بهذا، أنا نفسي.

[(المرز) يذهب إلى أقصى اليمين وينظر خارجاً إلى الخليج. (ريتا) تجلس إزاء المنضدة. كانت هناك استراحة قصيرة]

المرز

يلتفت إليها برأسه:

-أنك لم تحبيه أبداً بحق .. أبداً!

ريتا

ببرود وبشكل آلي:

-لم يدعني (يولف) أن آخذه إلى قلبي أبداً.

المرز:

-لأنك لم ترغبي في هذا قط!

ريتا:

-آه نعم، لقد أردت هذا .. كثيراً جداً .. ولكن كان شخص ما يقف في الطريق. منذ البداية!

المرز

يستدير بكامل جسده نحوها:

-أنا .. أنا كنت أقف في هذا الطريق بينك وبين الطفل.

ريتا:

-كلا .. ليس منذ البداية.

المرز

يقترب أكثر:

-من إذن؟

ريتا:

-عمته!

المرز:

-(آستا)؟!

ريتا:

-نعم (آستا) وقفت وحجبت الطريق عني.

المرز:

-كيف يمكنك أن تقولي شيء كهذا يا (ريتا)؟

ريتا:

-نعم .. (آستا) .. لقد أخذته إلى قلبها .. لقد حدث هذا منذ .. منذ السقوط المريع.

المرز:

-لو أنها قد فعلت هذا، فبدافع الحب.

ريتا

بغضب:

-بالضبط! إنني لا أستطيع أن أتحمل مشاركتي لأي شيء مع أي شخص آخر! ليس عندما يكون هذا الشيء هو الحب!

المرز

بهدوء:

-نحن الاثنان .. يجب أن نتشارك في حبه فيما بيننا .. الحب الحقيقي .. والعطف و...

ريتا

تنظر إليه في اشمئزاز:

-حقاً؟ .. نحن الاثنان؟ .. لم يكن بداخلك أي ذره حب حقيقي نحو ..!

المرز

ينظر إليها مذهولاً:

-أنا لم ..!

ريتا

-كلا .. لم تحبه مطلقاً .. في البداية كنت غارقاً في ذلك الكتاب .. عن المسئولية.

المرز

بثبات:

-نعـم. كنـت. ولكنـك تعرفـين جيـداً إننـي قـد ضحيـت بهـذا الـشيء العزيـز إلى قلبـي مـن أجـل (يولـف).

ريتا:

-ليس لأنك تحبه!

المرز:

-لماذا إذن في رأيك؟

ريتا:

-لأنـك قـد ضقـت ذرعـاً بعـدم الثقـة في نفسـك .. لأنـك قـد بـدأت تتسـاءل عـما إذا كان ثمـة هـدف عظيـم تعيـش مـن أجلـه.

المرز

في حيرة:

-هل لاحظت حقاً شيء كهذا عليّ؟

ريتا:

-أوه .. نعـم .. بدرجـات مختلفـة .. وأنـت لذلـك كنـت راغبـاً في شيء جديـد يـرضي رغبتـك هـذه .. وبالطبـع أنـا لم أعـد أكفـي لأداء هـذا الغـرض.

المرز:

-هذا هو قانون التغيير يا (ريتا).

ريتا:

-هـذا هـو السـبب أنـك كنـت ترغـب في صنـع (الطفـل المعجـزة) مـن (يولـف) الصغـير

المســكين.

المرز:

-لم أكن راغباً في هذا. كنت آمل أن أجعل منه مخلوقاً سعيداً. هذا هو كل ما أردته.

ريتا:

-ولكـن ليـس لأنـك تحبـه. إنـك تنظـر إلى نفسـك .. حسـناً، أنظـر بداخـل نفسـك [بـشيء مـن الخجـل في تعبيرهـا] واكتشـف كل تلـك الأكاذيـب بداخلهـا .. وخلفهـا.

المرز

يتجنب عيناها:

-هناك شيء لا تريدين ذكره.

ريتا:

-وأنت أيضاً.

المرز

ينظر إليها بشفقه:

-لو كان ما تفكرين فيه، إذن لقد أضعنا طفلنا ولم يحبه أي منا ذرة واحدة أبدا.

ريتا:

-كلا .. كلا .. لم يكن حباً كاملاً.

المرز

-وهنا نحن أولاء .. نجلس ها هنا نتجرع كأس الأحزان حتى الثمالة.

ريتا

بمرارة

-نعم، أليس من الغريب أن نفكر في هذا؟ نقاسي الأحزان هنا على صبي صغير غريب.

المرز

معترضاً:

-كلا، لا تطلقين عليه اسم (غريب)!

ريتا

تهز رأسها في تعاسة:

-لم يكن لدينا هذا الطفل أبداً يا (الفريد). لم يكن لدي .. ولم يكن لديك أيضاً!

المرز

يفرك كفيه:

-والآن قد فات الأوان! .. فات الأوان!

ريتا:

-وكم تلون كل شيء بصبغة الأحزان.

المرز

يهتف فجأة:

-أنت هو المذنب الوحيد هنا!

ريتا

تنهض:

-أنا!

المرز:

-نعـم، أنـت! .. إنهـا غلطتـك أن صـار مـا كانـه! إنهـا غلطتـك أنـه لم يسـتطع إنقـاذ نفسـه في الميـاه!

ريتا

في اعتراض:

-(الفريد)! لا ينبغي أن تلقي باللوم عليّ!

المرز

يقترب أكثر وأكثر:

-بـل إننـي اتهمـك بإهـمال ابنـك وتـرك هـذا الطفـل الضئيـل راقـداً عـلى المنضـدة ليعتنـي بنفسـه.

ريتا:

-كان يرقـد في غايـة الراحـة والاسـتمتاع عـلى الوسـائد. وكان ينـام بنعومـة كالملائكـة. كـما أنـك قـد وعـدت بالاعتنـاء بـه!

المرز:

-نعم، لقد فعلت [يخفت صوته] لكنك قد جئت و.. و.. وجذبتني نحوك.

ريتا

بشجاعة:

-بل قل أنك قد نسيت الطفل وأي شيء آخر.

المرز

يتهدج صوته من فرط الاكتئاب:

-نعم، هذا صحيح [في صوت خفيض] لقد نسيت الطفل .. بين ذراعيك!

ريتا

بغضب:

-(الفريد)! .. ماذا تعني بالله عليك؟

المرز

بهدوء، موجهاً قبضته نحوها:

-وفي هذه اللحظة أرسلت (يولف) الصغير إلى الموت.

ريتا

بتوحش:

-وكلك فعلت أنت! أنت أيضاً! لو أن هذا صحيح.

المرز:

-حقاً! .. نعم .. ضعيني في حسبانك أيضاً لو كان هذا يروق لك .. أننا مخطئان .. نحن الاثنين .. وعلى أية حال لقد كان هناك عقاباً لموت (يولف).

ريتا:

-عقاب؟

المرز

بثبات أكثر:

-نعم. حكماً وقع عليك وعليّ. وها نحن في حيث نستحق أن نكون ..، لقد سمحنا لأنفسنا أن نهرب منه عندما كان حياً .. كان جبناً مشيناً، نشعر به سراً .. وبيننا وبين أنفسنا، كنا لا نتجمل رؤية ذلك الشيء الذي اعتاد الاعتماد عليه.

ريتا

في صوت خافت، هو للهمس أقرب:

-العكاز!

المرز:

-نعم، هو ذلك، وكل ما ندعوه الآن بالأحزان والمعاناة ليس إلا لحظة إفاقة من غفلتنا

.. لا شيء آخـر.

ريتا

تنظر إليه رغماً عنها وقد أسقط في يدها:

-أعتقـد أن هـذا سـوف يقودنـا إلى الهذيـان ... إلى الجنـون .. كلانـا .. لأن الوقـت قـد فـات ولم يعـد بإمكاننـا إصـلاح مـا قـد تكـسر.

المرز

يتحكم في نفسه من خلال مزاج أكثر هدوءاً:

-لقـد حلمـت بـ(يولـف) الليلـة الماضيـة. تخيلـت إننـي أراه قادمـاً مـن عنـد النافـورة. قـادراً عـلى التواثـب مثـل بقيـة الأولاد. مـن ثـم لا شيء قـد حـدث لـه. لا شيء أو آخـر .. تخيلـت أن حقيقـة القلـب المحطـم هـي مجـرد حلـم آخـر، كـما أننـي أشـكر وابـارك.. [يرتجـف] ..

ريتا

تنظر إليه:

-من؟

المرز

يبعد نظره عنها:

-من من؟

ريتا

-من الذي تشكره وتباركه؟

المرز

يتجنب سؤالها:

-كنت أرقد مستغرقاً في أحلامي، كما تعرفين ..

ريتا:

-من هذا الذي لم تؤمن به في قرار نفسك؟

المرز:

-لقد هام فوقى هكذا .. بنعومة .. ببساطة .. كنت نائماً بالطبع ..

ريتا

بإصرار:

-لا يجب أن تبتعد عن دائرة اهتمامي وإيماني بك يا (الفريد).

المرز:

-هل كان هذا هو فعل الصواب، لو تركتك تدخلين حياتي من خلال خيالات خاوية؟

ريتا

-إنه جيد بما يكفي بالنسبة لي. لربما وجدت مكاناً أمارس وجودي فيه على الأقل. أما الآن فأنا لا أعرف أين أنا؟

المرز

ينظر إليها بلطف:

-لو أنك قد عقد عزمك على خيار ما .. الآن .. لو أنك تستطيعين الذهاب وراء (يولف) لأسفل هناك، أين هو الآن ..؟

ريتا:

-ماذا؟ وماذا بعد؟

المرز

-لو كنت واثقة تماماً أنك سوف تعثرين عليه ثانية، .. تعرفينه ..، تفهمينه ..

ريتا:

-نعم، نعم، وماذا بعد؟

المرز:

-فهل تذهبين بكامل إرادتك الحرة إليه؟ هل تذهبين بكامل إرادتك الحرة تاركة كل شيء هنا؟ تتركين الحياة بأكملها على سطح الأرض؟ هل تفعلين ذلك يا (ريتا)؟

ريتا

في صوت خافت:

-الآن، حالاً؟

المرز:

-نعم؛ الآن؛ اليوم. هذه الساعة بالذات. أجيبي عن هذا السؤال. هل تفعلين؟

ريتا

بتردد:

-أوه، لا أعرف يا (الفريد)، .. لا، أعتقد إنني أرغب في البقاء ها هنا مزيداً من القوت معك.

المرز:

-من أجلي أنا؟

ريتا:

-نعم، فقط من أجلك.

المرز:

-ماذا بعد ..؟ هل تفعلين .. ؟ أجيبي!

ريتا:

-يا إلهي، كيف أجيب عن شيء كهذا؟ لا أستطيع أن أذهب بعيداً عنك .. أبداً .. أبداً!

المرز:

-ولكن الآن، لو ذهبت إلى (يولف)؟ .. لو أنك واثقة من أنك سوف تجدينا معاً أنا وهو .. فهل تأتين؟

ريتا:

-لكم أرغب في هذا .. بالطبع .. بالطبع.

المرز:

-حسناً؟

ريتا:

تتأوه بنعومة:

-لا يمكنني فعل هذا! .. أشعر بأنه فوق استطاعتي .. لا .. لا .. لا أستطيع فعل هذا.. ليس حتى من أجل كل أمجاد السماوات.

المرز:

-ولا أنا أستطيع.

ريتا

-لا. هذه هي الحقيقة يا (الفريد)، أليس كذلك؟ أنت لا تستطيع فعل هذا أيضاً، أليس كذلك ؟

المرز:

-لا .. لأننا هنا على سح الأرض .. مخلوقات تنتمي إليها ويجب أن تعود لها.

ريتا:

-نعم، هنا ذلك النوع من السعادة الذي يمكننا فهمه.

المرز

بكآبة:

-آه، السعادة .. السعادة .. يا عزيزتي ..

ريتا:

-أعتقد أنك تعني تلك السعادة .. التي لن تعثر عليها أبداً مرة أخرى [تنظر إليه بتساؤل] ولكن .. فلنفترض أن ...؟ [بانفعال] كلا .. كلا، لا أجرؤ على قول هذا، ولا حتى في التفكير فيه.

المرز:

-نعم .. قوليها .. قوليها يا (ريتا).

ريتا

بتردد:

-هل نحاول أن ..؟ .. هل من الممكن بالنسبة لنا أن ننساه؟

المرز:

-ننسى (يولف)؟

ريتا:

-ننسى الألم والتعاسة .. هذا ما أعنيه.

المرز:

-هل تريدين حقاً فعل هذا؟

ريتا:

-نعم، لو أننا نستطيع فعل هذا حقاً [يتهدج صوتها] لأن .. لأنني لابد أن يأتي عليّ وقت ما قد لا أتحمل فيه كل هذا! .. رباه .. هل يمكننا أن نجد ما يساعدنا على السلوان؟

المرز

يهز رأسه:

-وماذا عساه يمكن أن يكون هذا الشيء؟

ريتا:

-ألا يمكن أن نجرب السفر .. بعيداً؟

المرز:

-بعيداً عن الوطن؟ .. صدقيني .. لن تجدي مكاناً أفضل من هنا .. أبداً.

ريتا:

-حسناً، إذن، ماذا لو أحطنا أنفسنا بالقوم هنا في الدار ..؟ .. أن نترك أبواب المنزل مفتوحة للجميع .. أن نترك لأنفسنا العنان أن نمارس شيئاً لعله قادر على دفن أحزاننا.

المرز:

-هذا النوع من الحياة لا يناسبني .. كلا .. لعله من الأفضل أن أبدأ في عملي مرة أخرى.

ريتا:

-عملك؟ .. لعلك لا تعني ذلك الشيء الذي وقف حاجزاً بيننا؟

المرز

ببطء وهو ينظر إليها مباشرة:

-لابد من وجود حاجز ما بيننا في المستقبل.

ريتا:

-ولماذا؟

المرز:

-من يعلم حقيقة عين الصبي المفتحة؟ .. لعلها ترمقنا ليلاً نهاراً ..!

ريتا

ترتجف:

-(الفريد) .. يا لها من فكرة مفزعة!

المرز:

-إن حبنا هو لهب يخبو .. الآن يجب أن ينطفئ!

ريتا

تتجه إليه:

-ينطفئ!

المرز:

في لهجة قاسية:

-لقد انطفأ .. بداخل واحد منا.

ريتا

كما لو أنها استحالت إلى صنم من حجارة:

-وأنت تجرؤ على قول هذا لي!

المرز

بدقة أكثر:

-لقد مات يا (ريتا)، وما اشعر به الآن وسط كل هذه الآلام والإحساس بالذنب هو نوع من الصحوة ..

ريتا

بعنف:

-لا يعنيني هذا الهراء!

المرز:

-(ريتا)!

ريتا:

-إنني إنسانة يا (الفريد)، أحد الحيوانات ذات الدم الحار! .. لن أقبع كالكلب في ركن بعيد وفي عروقي تجري دماء سمكة، وأغلق على نفسي الباب لأغرق في بحر الأحزان والتعاسة! .. أغلق على نفسي الباب مع شخص لم يعد ملكي أنا .. أنا .. أنا ..

المرز:

-لابد أن ينتهي الأمر على هذا النحو يوماً ما.

ريتا:

-ينتهي على هذا النحو! .. وماذا عن العاطفة الملتهبة التي كانت بيننا في البداية؟

المرز:

-لم أشاطرك أي عاطفة من البداية!

ريتا:

-ماذا كان شعورك نحوي إذن .. منذ بادئ الأمر ..؟

المرز:

-الازدراء!

ريتا:

-الآن يمكنني أن أفهم. ولكن كيف استطعت أن أفوز بك رغم كل شيء؟

المرز

بهدوء:

-لقد كان جمالك لا يقاوم يا (ريتا).

ريتا:

ترمقه في حيرة:

-هل كان هذا هو كل شيء؟ أخبرني يا (الفريد)، هل هذا هو كل شيء؟

المرز

متماسكاً:

-كلا .. كان هناك شيء آخر إلى جانب هذا.

ريتا

تتنهد:

-يمكنني أن أخمن ما هو هذا الشيء! لقد كان (الذهب والغابات الخضراء)، كما أسميته، ألم يكن كذلك يا (الفريد)؟

المرز:

-نعم.

ريتا

تنظر إليه بلوم:

-كيف أمكنك فعل هذا؟!

المرز:

كنت أفكر في (آستا).

ريتا

بغضب:

-(آستا)! نعم! [ثم بمرارة] إذن فقد كانت (آستا)، في الواقع، هي من جمعتنا معاً.

المرز:

-إنها لا تعرف أي شيء عن هذا. إنها لا تتوقعه حتى، حتى اليوم.

ريتا

تردد:

-إذن فقد كانت (آستا)! [تبتسم] أولاً .. ربما (يولف) ..(يولف) الصغير ، كما تعلم.

المرز:

-(يولف) ..؟

ريتا:

-ألم تكن معتاداً على مناداتها بـ(يولف)؟ أعتقد أنك قد قلت هذا ذات مرة .. في لحظة خاصة للبوح بالأسرار [تقترب أكثر] هل تذكر هذا يا (الفريد)؟ هذه اللحظة ذات الجمال الذي لا يقاوم!

المرز

يتضاءل من الرعب:

-إنني لا أذكر أي شيء! .. لا أذكر أي شيء! .. أي شيء!

ريتا

تتبعه:

-حقاً لا تتذكر؟ .. أنها تلك الساعة التي كان فيها صغيرك (يولف) الآخر مصاباً بالكساح.

المرز

في صوت لا نغمة فيه، مستنداً على المنضدة:

-هل هو عقاب؟

ريتا

متوعدة:

-نعم، هو عقاب.

المرز

ينظر إليها وفي عينيه نظرة حائرة دائخة، لكنه يلتزم الصمت:

[(آستا) و(بورغيم) يعودان. وهي تحمل في يدها بعضاً من زنابق المياه]

ريتا

في ثبات:

-حسناً يا (آستا)، هل تحدثتما في أمور عديدة مع السيد (بورغيم)؟

آستا:

-نعم .. نوعاً ما [تضع مظلتها على المنضدة والزهور على أحد المقاعد.]

بورغيم:

-في الواقع لقد كانت الآنسة (المرز) ذات صحبه ممتعة وحديثاً شيقاً للغاية.

ريتا:

-حقاً؟ .. حسناً .. لقد كنا-أنا و(الفريد)-أيضاً نتحدث في بعض الأمور بخصوص..

آستا

تنظر إليها منقطعة الأنفاس:

-بخصوص ماذا؟

ريتا:

-بخصوص ما سوف نفعله في بقية أيام حياتنا. [تصمت لحظة] ولكن .. لم لا تجعل الأمر بخصوصنا نحن الأربعة. لابد أن نستمتع بصحبة الناس في المستقبل. (الفريد) وأنا لا يمكننا أن نبقى بمفردنا.

المرز

-نعم .. لم لا [يستدير] ولكن-قبل كل شيء-لي معك كلمة يا (آستا)

ريتا

تنظر إليه

-هل يتوجب عليك فعل هذا؟ .. حسناً، تعال معي إذن يا سيد (بورغيم).

[(ريتا) و(بروغيم) يخرجان عبر الممر الخشبي]

آستا

بانزعاج:

-(الفريد)! .. ما الخطب؟

المرز

بوجوم:

-الحقيقة أن .. إنني لم أعد أتحمل البقاء هنا أكثر.

آستا

-هنا! مع (ريتا)؟ هل هذا هو ما تعنيه؟

المرز:

-نعم .. أنا و(ريتا) .. صار من المستحيل أن نحيا معاً.

آستا

تهزه من يده:

-ولكن يا (الفريد) .. أرجوك .. لا تقل أشياء مريعة كهذا!

المرز:

-إنها الحقيقة .. أن كل منا يجعل الآخر سيئاً وقبيحاً.

آستا

تنفعل بحدة:

-إنني لم أحلم بشيء كهذا أبداً .. أبداً!

المرز:

-ولا أنا يا (آستا) .. لم يحدث لي شيء كهذا أبداً .. حتى اليوم!

آستا:

-والآن، أنت تريد أن ..! ..(الفريد)! .. ما الذي تريده حقاً؟

المرز:

-أريد أن أذهب بعيداً عن كل شيء هنا .. أن ابتعد عن كل هذا.

آستا:

-وتبقي وحيداً في هذا العالم؟

المرز

يهز رأسه:

-نعم .. كما كنت من قبل.

آستا:

-ولكنك لم تكن وحيداً من قبل!

المرز:

-بل كنت وكذلك .. بشكل أو بآخر.

آستا:

-كنت من قبل كذلك .. ولكنني الآن معك.

المرز

يحاول الإمساك بيدها:

-نعم يا (آستا) .. أنه أنت من أود العودة إلى الوطن من أجله.

آستا

تتجنبه:

-أنا؟ .. كلا .. كلا يا (الفريد) .. أن ما تقوله مستحيل ..

المرز

ينظر إليها بأس:

-هل يظل (بورغيم) واقفاً في الطريق ..؟

آستا

بسرعة:

-لا، لا؛ انه ليس كذلك! .. أنك مخطئ تماماً!

المرز:

-عظيم! .. إذن سوف أتي إليك يا أختي العزيزة .. لابد أن أعود إليك .. أن أعود إلى الوطن من أجلك، بعد أن استعيد صفاء ذهني وروحي من حياتي مع ..

آستا

تصدم:

-(الفريد).. إنها خطيئة في حق (ريتا)!

المرز:

-لقد أخطأت في حقها .. ولكن ليس في هذا ..آه، فكري في هذا يا (آستا)! كيف كانت حياتنا معاً؟ حياتك وحياتي! ألم تكن مثل يوماً مقدساً جميلاً مستمراً من بدايتها إلى نهايتها؟

آستا

-نعم، لقد كانت كذلك، ولكن وقتاً كهذا لا يمكن أن نحياه ثانية.

المرز

بمرارة:

-هل تعنين أن هذا الزواج قد دمرني تماماً؟

آستا

في وداعة:

-كلا، لم أكن أعني هذا!

المرز:

-حسناً، سوف نحيا نحن الاثنين حياتنا القديمة معاً .. مرة أخرى:

آستا

في حسم:

-لا يمكننا فعل هذا يا (الفريد).

المرز

-بل يمكننا .. حب الأخ لأخته و..

آستا

تقاطعه منقطعة الأنفاس:

-ماذا؟

المرز:

العلاقة الوحيدة التي لا يستطيع القانون تغييرها.

بستا

في صوت خافت وهي ترتجف:

-ولكن ماذا لو أن هذه العلاقة لم تكن ..

المرز:

-لم تكن ماذا؟

آستا:

-.. لم تكن علاقتنا نحن؟

المرز

ينظر إليها مندهشاً:

-ليست علاقتنا نحن؟ .. عزيزي .. ماذا تعنين بهذا بالله عليك؟

آستا:

-ربما كان من الأفضل أن أخبرك بالأمر دفعة واحدة.

المرز:

-نعم، نعم، أخبريني!

آستا:

-الخطابات المكتوبة لأمي .. تلك الموجودة في الحقيبة ..

المرز:

-نعم .. ماذا عنها؟

آستا:

-يجب أن تأخذها وتقرأها .. عندما أذهب ..

المرز:

-ولماذا يتوجب عليّ فعل هذا؟

آستا

رغماً عنها:

-لأنك عندئذ سوف تدرك أن ..

المرز:

-أن ماذا؟

آستا:

-أنه ليس لدي أي حق في .. في اسم والدك ..

المرز

ينهار:

-(آستا)! ما هذا الذي تقولينه؟!

آستا

-اقرأ الخطابات. وسوف تعرف، وتفهم وربما غفرت لأمي، أيضاً ..

المرز

يمسك رأسه بكفيه:

-أنا لا أصدق هذا .. لا أتحمل فكره أن .. أنت يا (آستا) .. إذن أنت لست ..

آستا

-أنت لست شقيقي يا (الفريد).

المرز

ينظر إليها في لمحة خاطفة:

-حسناً .. ولكن ما الذي تغير في علاقتنا بعد هذا؟ .. في الواقع لا شيء...

آستا

تهز رأسها:

-كلا شيء تغير يا (الفريد). علاقتنا ليست علاقة شقيق وشقيقته.

المرز:

-كلا .. لكننا كنا كذلك دائماً.. كنا كذلك دائماً.

آستا:

-لا تنسي .. أنها علاقة بإمكان القانون تغييرها .. كما قلت أنت منذ دقيقة مضت.

المرز

ينظر إليها في حيرة:

-هل تعنين بهذا أن ..؟

آستا:

بـدون كلـمات أخـرى يـا عزيـزي (الفريـد) [تتنـاول الزهـور مـن عـلى المقعـد] هـل تـرى هـذه الزنابق؟

المرز

يهز رأسه ببطء علامة الإيجاب:

-إنها من النوع الذي يتمدد تحت .. في الأعماق.

آستا:

-لقـد التقطتهـم بمجـرد أن وجدتهـم يطفـون عنـد الخليـج [تقبـض عليهـم] هـل تأخذهـم يـا (الفريـد)؟

المرز

يأخذهم منها:

-أشكرك.

آستا

تمتلئ عيناها بالدموع:

-إنها تحية أخيرة لك من .. من (يولف) الصغير.

المرز

ينظر إليها:

-من (يولف) الموجود هناك؟ .. أم منك؟

آستا

بهدوء:

-منا نحن الاثنين [تلتقط مظلتها] ولكن ها تعال معي إلى (ريتا).

المرز

[ينظـر إليهـا وهـي تذهـب عـبر الممـر الخشـبي. يتنـاول قبعتـه مـن عـلى المنضـدة ويغمغـم في حـزن]

-(آستا) ... (يولف) ..(يولف) الصغير ..!

[يتبعها عبر الممر الخشبي]

عتبة صخرية نما عليها العشب بغزارة في حديقة (المرز). درجات هابطة وصاعدة في الخلفية، تنحني وتقود إلى جهة اليسار. منظر واسع للخليج بأسفل المكان. شريط من القضبان بجانبه سارية علم ولكن بدون راية. في المقدمة إلى جهة اليمين هناك منزل صيفي، غطته النباتات المتسلقة والأزهار البرية. طاولة مخصصة للجلوس أمامه. كانت أمسية في نهايات الصيف ذات ماء صافية. ظل قادم. (آستا) تجلس وتضع كفيها في حجرها. ترتدي معطفها وقبعتها. بعض أغراضها بجانبها وشالاً مطرزاً على كتفيه. تحت إبطه كان يحمل علماً مطوياً.

بورغيم

عندما يقع بصره على (آستا):

-إذن فأنت جالسة ها هنا؟

آستا:

-كنت أنظر إلى هذا المكان للمرة الأخيرة.

بورغيم:

-بالضبط كما فكرت أنا أيضاً أن انظر إليه.

آستا:

-هل كنت تبحث عني؟

بورغيم:

-نعم .. لقد كانت لدي رغبة قوية أن أقول لك (وداعاً) .. بالنسبة للوقت الحاضر لا المرة السابقة.

آستا

تبتسم:

-إنك لا تستسلم أبداً.

بورغيم:

-هكذا يجب أن يكون بناء الطرق.

آستا.

-هل رأيت (الفريد) أو (ريتا)؟

بورغيم:

-نعم. لقد رأيتهما.

آستا:

-معاً؟

بورغيم:

-كلا .. كلا منهما في مكان مختلف

آستا:

-ما الذي تزمع فعله بالعلم؟

بورغيم:

-لقد طلبت مني السيدة (المرز) أن أحضر هذا العلم إلى هنا.

آستا:

-الآن؟

بورغيم:

-نعم، يجب أن يخفق في وجه الهواء ليلاً نهاراً، هكذا أخبرتني.

آستا

تتنهد:

-يا لـ(ريتا) المسكينة ويا لـ(الفريد) المسكين ..

بورغيم

منشغلاً في العلم:

-هل لديك الشجاعة الكافية لمغادرتهما؟ إنني أسأل لأنني أراك في ثياب السفر.

آستا

في صوت خافت:

-يجب أن أذهب.

بورغيم:

-آه .. حسناً .. ما دام ينبغي عليك فعل هذا .. إذن ..

آستا:

-وبالطبع سوف تذهب الليلة أنت أيضاً.

بورغيم:

-نعم. يجب أن أذهب أنا أيضاً. سوف استقل القطار، فماذا عنك!

آستا:

-سوف استقل القارب البخاري.

بورغيم

يغمز لها بعينه:

-كل في طريقة إذن.

آستا:

-نعـم [تجلـس وتراقبـه إذ هـو يرفـع الرايـة حتـى منتصـف السـارية. وعندمـا انتهـى اتجـه إليهـا]

بورغيم:

-آنسة (آستا) .. انك لا يمكن أن تتخيلي مدى حزني على (يولف) الصغير.

آستا

تنظر إليه:

-إنني واثقة من هذا:

بورغيم

-ولقد كان هذا وقتاً عصيباً بالنسبة لي، لأنني لم اعتد أن أكون حزيناً على هذا النحو.

آستا

تحول بصرها إلى العلم:

-سوف ينتهي كل شيء مع مرور الوقت.. كل أحزاننا.

بورغيم:

-كلها؟ هل تعتقدين هذا؟

آستا:

-مثل الجو العاصف. عندما تبعد عنه مسافة طويلة، فسوف ..

بورغيم:

-ينبغي أن ابتعد عن هنا مسافة طويلة.

آستا:

-عندما تشعر بعظمة الانتهاء من هذا الطريق الطويل.

بورغيم:

-ولكن .. لن يساعدني أحد في هذا.

آستا:

-آه .. هذا جزء من روعة العمل.

بورغيم:

يهز رأسه:

-لا أحد .. لا أحد يشاركني متعة هذا .. المتعة هي الأهم.

آستا:

-وماذا عن الجهد والمعاناة؟

بورغيم:

-تباً! .. يمكن للمرء أن يحصل على المزيد من هذا وحده.

آستا:

-ولكن المتعة .. يجب أن تشارك شخص ما فيها .. هل هذا هو ما تعنيه؟

بورغيم:

-نعم، .. وأي سعادة يمكن أن تكون في حصول المرء على شيء من المتعة؟

آستا:

-آه .. حسناً .. أعتقد إنني لا أفهم إلام ترمي؟

بورغيم:

-أعني أن المرء يمكنه أن يشعر بالسعادة بداخله لوقت ما ولكن لا يستمر هذا طويلاً .. لابد من وجود اثنان.

آستا:

-اثنان دائماً؟ اثنان لا أكثر؟ لماذا ليس العديد من السعداء؟

بورغيم:

-آه .. هذا نوع مختلف يا آنسه (آستا)، ألا يمكنك، بعد كل شيء، مشاركة متعتك وسعادتك .. أحزانك وآلامك .. ومعاناتك مع شخص ما .. شخص واحد فقط؟

آستا:

-لقد حاولت هذا ذات مرة.

بورغيم:

-حقاً!

آستا:

-نعم .. طوال ذلك الوقت الذي عشته مع أخي .. أنا و(الفريد) معاً

بورغيم:

-آه .. أخوك! .. نعم .. هذا أمر مختلف تماماً .. أعتقد أن الوصف الأدق لهذا هو السلام النفسي والإحساس بالرضا .. وليس السعادة.

آستا:

-لقد كان هذا بديعاً أياً كان اسمه.

بورغيم:

-حسناً .. والآن .. اسمعي .. ماذا لو لم يكن لديك أخ! .. ماذا سوف يكون الحال عندئذ؟

آستا

تكاد تنهض عن مقعدها، لكنها تظل جالسة:

-إذن ما كنا سنلتقي أبداً .. وما كنا سنعيش معاً منذ كنت طفلة وحتى الآن.

بورغيم

بعد دقيقة:

-هل يكون هذا بديعاً إذن؟

آستا:

-صدقني .. إن حياتي مع (الفريد) كانت في غاية الروعة.

بورغيم:

-حسناً .. ماذا كانت تلك الأشياء المثيرة للبهجة والسعادة في نفسك في تلك الأيام؟

آستا:

-آه .. نعم .. أنها أشياء كثيرة .. كثيرة جداً.

بورغيم:

-احك لي شيء منها يا آنسة (آستا)؟

آستا:

-كانت أشياء صغيرة في الواقع ...

بورغيم:

-مثل ..؟

آستا:

-مثل ذلك اليوم الذي خاض فيه (الفريد) امتحانه، واستطاع أن ينجح فيه .. وعندما كان يأتيه البريد من آن لآخر أو عندما كان يجلس لكتابة مقال ثم يقرؤه عليّ .. ثم يقرؤه مرة أخرى عندما يعيد طباعته على الورق.

بورغيم:

-نعم .. إنني مؤمن تماماً إنها كانت حياة هانئة حقاً. أخ وأخته يتشاطران السعادة [يهز رأسه] لا أعرف لماذا تركك أخوك إذن يا (آستا)!

آستا

تتحكم في انفعالاتها:

-لقد تزوج (الفريد) كما تعرف.

بورغيم:

-هل كان هذا قاسياً عليك؟

آستا:

-آه .. نعم .. في البداية اعتقدت إنني قد فقدته في لحظة.

بورغيم:

-ولكن-لحسن الحظ لم تفعلي هذا.

آستا:

-كلا.

بورغيم:

-ولكن .. كيف استطاع فعل هذا! أن يتزوج .. أعني .. ألا تكوني أنت الوحيدة بجواره.

آستا

تنظر أمامها مباشرة:

-لقد أطاع قانون المتغيرات على ما أعتقد.

بورغيم:

-قانون المتغيرات؟

آستا:

-(الفريد) يدعوه هكذا.

بورغيم:

-تباً .. يا له من قانون أحمق! إنه هكذا حقاً .. إنني لا أؤمن بشيء كهذا أبداً.

آستا

تنهض:

-ربما آمنت به في وقت ما.

بورغيم:

-لن يحدث هذا أبداً مادمت حياً! [بحماس] ولكن يا آنسة (آستا)، فلنكن عقلانيين .. لمرة واحدة وسط كل هذا .. أعني ..

آستا

تقاطعه:

-آه .. لا .. لا .. دعنا لا نبدأ هذا الأمر ثانية!

بورغيم

يتابع كلامه:

-نعم، يا (آستا) .. لا يمكن أن أدعك تذهبين هكذا بمنتهى البساطة. لقد حصل أخوك على كل شيء أراده على نحو جيد. لقد عاش حياته بشكل رائع بدونك. لم يفتقدك أبداً. ثم ذلك الشيء الذي غير موضع كل شيء ..

آستا:

-ماذا تعني بهذا؟

بورغيم:

-الطفل الذي رحل. ماذا غيره؟

آستا

كمن يحدث نفسه:

-(يولف) الصغير ذهب؛ نعم ..

بورغيم:

-والآن .. ماذا لديك أكثر لفعله ها هنا؟ .. لم يعد الطفل الصغير المسكين موجوداً لتلقي نظره على وجهه من حين لآخر يا (آستا). لم يعد هناك أي واجبات على عاتقك. لا عمل هنا من أي نوع ..

آستا:

-أوه .. أرجوك يا سيد (بورغيم) لا تجعل هذا يبدو قاسياً عليّ!

بورغيم:

-ربما كان يجب أن أكون مجرد شخص أحمق .. أذهب بعيداً ذات يوم ولا أحاول أن أقابلك مرة أخرى .. ربما لوقت طويل .. طويل جداً .. ومن يدري ماذا يمكن أن يحدث أثناء هذا الوقت؟

آستا

تبتسم وعلى وجهها ملامح جادة:

-هل تخشى قانون التغيرات رغم كل شيء؟

بورغيم:

-كلا بالطبع [يضحك بمرارة] فضلاً عن أنه لا يوجد أي شيء يمكن أن يتغير. ليس بدونك .. خاصة وأنك لا تهتمين كثيراً لأمري .. يمكنني أن أفهم هذا.

آستا:

-أنت تعرف إنني أهتم بك كثير.

بورغيم:

-نعم .. ولكن ليس بشكل كافي. ربما بشكل ما ولكنه ليس الشكل الذي أريده [بأستثاره أكبر] يا إلهي الرحيم، (آستا) .. آنسة (آستا) .. إن هذا جنون منك! جنون مطلق! في مكان ما في أحد الأيام القادمة، ربما، فإن السعادة سوف تكون بانتظارنا .. ونحن سوف نجعلها تنتظر للأبد .. ألن تشعري بالندم لهذا؟

آستا

بهدوء:

-لا أعرف. ولكننا يجب أن نتركها تنتظر. فقط الآن حيث كل الاحتمالات ممكنة.

بورغيم

محاولاً التماسك ناظراً إليها:

-سوف أشق طريقي وحدي إذن؟

آستا

بحنان:

-آه .. لو فقط أمكنني أن أشاركك هذا! أن أساعدك في العمل! أقتسم معك المتعة ..

بورغيم:

-سوف تفعلين هذا .. لو أنك تريدين.

آستا:

-نعم. أريد .. ولكن..

بورغيم:

-لكنك لا تجرؤين.

آستا

تخفض بصرها:

-هل ستكون راضياً بالنصف مني؟

بورغيم:

-كلا .. يجب أن تكوني لي بالكامل.

آستا

تنظر إليه وتتكلم بهدوء:

-إذن .. فانا لا أستطيع.

بورغيم:

-إذن .. وداعاً يا آنسة (آستا).

[(بورغيم) على وشك المغادرة. (المرز) يأتي من عند المرتفع إلى جهة اليسار. (بورغيم) يتوقف]

المرز

عند قمة الدرج، يتكلم بهدوء وهو يشير بيده:

-هل (ريتا) موجودة ها هنا؟

بورغيم:

-كلا، لا أحد هنا سوى الآنسة (آستا).

[(المرز) يقترب]

آستا

تذهب إليه:

-هل أذهب وأبحث عنها؟ .. هل احضرها معي؟

المرز

[يضع اقتراحها جانباً]

-لا، لا، لا دعك من هذا [لـ(بورغيم)] هل أنت من نصب العلم هنا؟

بورغيم:

-نعم .. لقد طلبت مني السيدة (المرز) أن أفعل هذا. لهذا جئت إلى هنا.

المرز:

-وسوف ترحل الليلة، أليس كذلك؟

بورغيم:

-نعم .. سوف أرحل الليلة بالتأكيد.

المرز

خاطفاً نظره إلى (آستا):

-ولقد أمنت لنفسك صحبة جيدة على ما أعتقد.

بورغيم

يهز رأسه:

-إنني أسافر وحدي.

المرز

مندهشاً:

-وحدك!

بورغيم:

-وحدي دائماً!

المرز

كمن يحدث نفسه:

-حقاً!!

بورغيم:

-يجب أن أبقى وحدي أيضاً.

المرز:

-إنه من المريع نوعاً أن يكون المرء وحيداً. إن هذا يجعلني أرتعد ..

آستا:

-ولكن يا (الفريد) .. أنت لست وحيداً.

المرز

-وهذا أيضاً يبدو سريعاً نوعاً ما يا (آستا).

آستا

يتألم قلبها وتتزلزل من الأعماق:

-أوه، لا تتحدث على هذا النحو! لا تفكر على هذا النحو!

المرز

دون أن ينصت لما تقوله:

-ولكن مادمت لن تسافري مع ..؟ .. ما دام لن يقيدك أي شيء! لماذا لا تبقين هنا معي .. ومع (ريتا) ..؟

آستا

بصعوبة:

-لا .. لا يمكنني فعل هذا. ببساطة يجب أن أذهب إلى المدينة الآن.

المرز:

-المدينة فقط يا (آستا)؟

آستا:

-نعم.

المرز:

-ويجب أن تعديني أنك سوف تحضرين إلى هنا ثانية عما قريب.

استا

بسرعة:

-كلا .. كلا .. لا يمكنني أن أعد بشيء كهذا .. على الأقل الآن.

المرز

-حسناً .. كما تشائين .. إذن .. سوف نتقابل في المدينة.

آستا

مندهشة:

-ولكن يا (الفريد) .. يجب أن تبقي هنا في المنزل .. مع (ريتا)!

المرز

يلتفت إلى (بورغيم) دون أن يجيب:

-لعله من الأفضل حقاً أن تسافر بدون حصبة من أي نوع!

بورغيم

معترضاً:

-أوه، كيف يمكنك أن تقول شيء كهذا؟!

المرز:

-نعم، لأنك لن تعرف أبداً من سوف تلتقي به في الطريق فيما بعد.

آستا:

رغماً عنها:

-(الفريد)!

المرز:

-الصحبة الجيدة للرحلة. عندما يفوت الأوان. عندما يفوت الأوان.

آستا

تنهار:

-(الفريد)! (الفريد)!

بورغيم

ينقل بصره بينهما:

-ما الذي يعينه هذا؟ .. أنا لا أفهم ..

[(ريتا) تأتي من الخلف من جهة اليسار]

ريتا

فيما يشبه البكاء:

-يا إلهي .. لن تذهبوا جميعاً بعيداً عني.

آستا

تذهب إليها:

-أنت تقولين أنه من الأفضل أن تبقي بمفردك.

ريتا:

-نعـم، لكنـي لا أجـرؤ عـلى هـذا. أن هـذا مظلـم وقبيـح أشـعر كـما لـو أن هنـاك عينـا واسـعة تراقبني.

آستا

بنعومة وبرقة حنون:

-حتى لو كان ما تقولينه صحيحاً لا ينبغي أن تخافي من هذه العين:

ريتا:

-لا أخاف! كيف يمكنك قول هذا!

المرز

بلهفة:

-(آستا)، إنني أتوصل إليك، بكل عزيز لديك .. أن تبقي هنا .. مع (ريتا)!

ريتا:

-نعم! ومع (الفريد) أيضاً! فلتبقي يا (آستا) .. أرجوك!

آستا

مكافحة نفسها:

-أوه .. إنني أرغب في هذا أكثر مما يمكني أن أعبر بالكلمات.

ريتا:

-حسناً .. فلتبقي يا (آستا) إذن! فأنا و(الفريد) لا يمكنني أن حيا كل هذه الأحزان بمفردنا.

المرز

بصوت متهدج:

-الأفضل أن تقولي .. مع الندم والحسرات!

ريتا:

-أيـاً كان مـا تدعوهـا بـه، لا يمكننـا أن نتحملهـا بمفردنـا .. (آسـتا) إننـي أتوسـل إليـك! أبقـي هنـا وسـاعدينا .. خـذي مـكان (يولـف) بيننـا ..

آستا

ترتجف فجأة:

-مكان (يولف)؟

ريتا:

-نعم .. ألا ترحب بهذا يا (الفريد)؟

المرز:

-لو أنها تريده وتستطيع القيام به.

ريتا:

-لقد اعتدت أن تناديها بـ (يولف) الصغير من قبل [تفرك كفيها] في المستقبل سوف تكونين (يولف) بالنسبة لنا يا (آستا)! (يولف) .. تماماً كما كنت من قبل.

المرز

محاولاً التحكم في عواطفه:

-ابقي وشاركينا حياتنا يا (آستا) .. مع (ريتا) .. معي .. معي .. مع أخوك!

آستا

وصلت إلى قرارها، تسحب كفها:

-كلا .. لا أستطيع [تلتفت إلى (بورغيم)] سيد (بورغيم)، في أي وقت سوف يغادر القارب البخاري؟

بورغيم:

-حالاً.

آستا:

-إذن ينبغي أن أرحل الآن .. فهل تأتي معي؟

بورغيم

بإحساس مفاجئ بالسعادة:

-أنا؟ نعم، نعم!

آستا:

-هيا إذن.

ريتا

ببطء:

-آه .. هذا هو الأمر إذن .. حسناً .. أنت لا تستطيعين البقاء معنا.

آستا

تمرر أناملها على عنقها:

-أشكرك على كل شيء يا (ريتا)! [تربت على كتف (الفريد)] (الفريد) .. مع السلامة! ..

ألـف ألـف مـع السـلامة!

المرز

بصوت خافت ملهوف:

-ما هذا يا (آستا)؟ .. إنه يبدو كالطيران.

آستا

في هدوء تام:

-نعم، يا (الفريد) .. هو طيران.

المرز:

-طيران .. مني!

آستا

تهمس:

-طيران منك .. ومن نفسي.

المرز:

يتقوض ظهره:

-آه ..!

[(آستا) تذهب بسرعة لأسفل عبر الممر إلى خلفية المشهد. (بورغيم) يلوح بقبعته ويتبعها (ريتا) تميل ناحية مدخل المنزل الصيفي. (المرز) في حالة انهيار عقلي تام، يذهب ناحية القضبان ويتوقف هناك، وينظر لأسفل .. فترة صمت]

المرز:

يلتفت ويتحدث بصوت متحشرج:

-ها هو القارب البخاري قد جاء .. أنظري يا (ريتا).

ريتا:

لا أجرؤ على النظر إليه.

المرز:

-لا تجرؤين؟

ريتا:

-لا ...لأن له عيناً حمراء .. وعين خضراء أيضاً ... عينان تومضان بريقاً مرعباً.

المرز:

-لماذا؟ .. إنها مجرد أضواء كما تعلمين.

ريتا:

-في المستقبل سوف تكون عيون .. بالنسبة لي .. سوف تحدق فيّ من خلال الظلام وفي غبشة الظلام.

المرز:

-لقد اقترب الآن.

ريتا:

-أين سيرسو الليلة إذن؟

المرز

يقترب:

-عند الشلال، كالعادة يا عزيزتي ..

ريتا

تقف منتصبة:

-كيف يمكنه أن يرسو هناك؟

المرز

-لابد من هذا.

ريتا

-ولكن .. (يولف) هناك! .. كيف يجرؤ هؤلاء القوم على وضع القارب هناك؟!

المرز:

-نعم .. إن الحياة لا ترحم يا (ريتا).

ريتا:

-إن البشر لا قلوب لهم .. إنهم بلا تفكير .. ولا مراعاة .. لا بالنسبة للحي ولا للميت.

المرز:

-إنك محقة تماماً .. إن الحياة تيسير في طريقها. بالضبط كما لو أن شيئاً لم يحدث.

ريتا

تنظر أمامها مباشرة:

-لم يحدث للآخرين أي شيء .. ما حدث قد حدث لنا نحن فقط.

المرز

تستيقظ أحزانه:

-نعـم يـا (ريتـا) .. لا جـدوى مـن هـذا .. الألم والدمـع .. لقـد ذهـب الآن .. ولم يـترك خلفـه أي أثـر.

ريتا:

-العكاز وحده هو ما تم إنقاذه!

المرز

بغضب:

-اهدئي! لا تجعليني أسمع هذه الكلمة!

ريتا

تنتحب:

-لا يمكنني أن أتحمل فكرة أننا لن نراه ثانية.

المرز

ببرود ومرارة:

-بل يمكنك .. لأنه عندما كان موجوداً ما كنت ترفعين عينيك إليه في اليوم أبداً.

ريتا:

-كلا .. لأنني كنت أعرف أن باستطاعتي أن أراه في أي وقت أريد.

المرز

-نعم .. هذا هو ما فعلنا .. بدرنا الوقت القصير الذي كان منه (يولف) ملكاً لنا.

ريتا

تنحت قليلاً ثم قالت:

-اسمع يا (الفريد) ...أجراس!

المرز

ينظر خارجاً:

-إن القارب البخاري هو الذي قرع أجراسه .. يفعلون هذا عند الرسو.

ريتا:

-كلا .. ليـس هـذا الجـرس الـذي أعنيـه .. لقـد كنـت أسـمعه يـدق طـوال اليـوم في أذني .. والآن يـدق ثانية!

المرز

يذهب إليها:

-إنك مخطئة يا (ريتا).

ريتا:

-كلا .. إنني أسمعه بوضوح .. إنه جرس رنّان .. بطيء .. بطئ .. مع نفس الكلمات.

المرز:

-الكلمات؟ .. أية كلمات؟

ريتا

تهز رأسها ببطء كمن يدندن:

-العكاز ..يـ .. طفو .. العـ .. كاز .. يطـ .. فو .. بالتأكيد يمكنك سماع هذا أيضاً.

المرز

يهز رأسه:

-إنني لا أسمع أي شيء .. ولا يوجد أي شيء يمكن سماعه أيضاً!

ريتا:

-نعم .. يمكنك أن تقول ما تشاء .. لكني أسمعه بوضوح.

المرز

ينظر إلى الخارج عبر القضبان:

-إنهم في عرض البحر الآن يا (ريتا) .. القارب الآن يعبر إلى المدينة.

ريتا:

-تعتقد أنك لا تسمع هذا .. العكـ..از ... يـ..طفو .. العكـ..كـ..از ...يـ..طـ..فو

المرز

يسير بضع خطوات

-لا يمكنـك أن تسـمعي شـيئاً لا وجـود لـه .. إننـي أقـول أن (آسـتا) و(بورغيـم) الآن في عـرض البحـر في طريقهـما إلى المدينـة .. (آسـتا) ذهبـت.

ريتا

تنظر إليه:

-إذن هل افترض أنك أيضاً سوف تذهب يا (الفريد)؟

المرز

بسرعة:

-ماذا تعنين بهذا؟

ريتا:

-أنك سوف تتبع أختك.

المرز:

-هل قالت (آستا) أي شيء؟

ريتا::

-لا .. ولكنك قلت أنه من أجل (آستا) .. جئنا معاً ...

المرز:

-نعم .. ولكنك أنت .. أنت من ضممتني مرة أخرى .. بحياتنا معاً.

ريتا:

-آه .. لا .. إنني لم أعد في هكذا مجال في عينيك.

المرز

-قانون المتغيرات يمكنه أن يجمعنا معاً مرة أخرى .. وللأبد.

ريتا

تومئ ببطء:

-ثمة تغيير يحدث بداخلي الآن .. إنني أجده كسكرات الموت.

المرز:

-سكرات الموت؟

ريتا:

-نعم .. وشيء كلحظة الميلاد أيضاً:

المرز

-إنها الصحوة .. الصحوة على حياة أعلى.

ريتا

تنظر أمامها كالمغيبة:

-نعم .. مع فقدان كل شيء .. كل سعادة الحياة ..

المرز:

-هذا الفقد .. يعادل ما سوف تحصلين عليه.

ريتا

بغضب:

-آه .. كلمات! يا إلهي الرحيم .. أننا مخلوقات الأرض رغم كل شيء

المرز

-ولدينا شيء من البحر والسماء أيضاً يا (ريتا)

ريتا

-ربما .. ولكن .. لست أنا.

المرز

-بل لديك .. ولكنك لا تدركين قيمة نفسك.

ريتا

تقترب خطوة:

-اسمع يا (الفريد) .. ألا تفكر في عودتك لعملك مرة أخرى؟

المرز:

-العمل الذي اعتدت أن تكرهيه؟

ريتا:

-من السهل إرضائي الآن .. أعتقد إنني أريد أن أشاركك في الكتاب.

المرز:

-لماذا؟

ريتا:

-ببساطة لأبقيك هنا معي .. قريباً من يدي.

المرز:

-لكني لن أساعدك في هذا إلا بقدر بسيط.

ريتا:

-ولكني أستطيع أن أساعدك.

المرز:

-في عملي! هل تعنين هذا؟

ريتا

-كلا .. لتحيا حياتك.

المرز

يهز رأسه:

-لا أعتقد أن ثمة حياة لدىّ لأحياها.

ريتا:

-حسناً .. لتتحمل حياتك إذن ..

المرز

ينظر أمامه في حيرة:

-أرى أنه من الأفضل لكلينا أن ننفصل.

ريتا

تنظر إليه متسائلة:

-إلى أين سوف تذهب إذن؟ .. ربما إلى (آستا) في نهاية المطاف؟

المرز:

-كلا .. ليس إلى (آستا) مرة أخرى .. أبداً.

ريتا:

-إلى أين، إذن؟

المرز:

-فوق .. إلى العزلة.

ريتا:

-فوق .. بين المرتفعات؟ أليس هذا ما تعنيه؟

المرز:

-نعم.

ريتا:

-ولكن هذا وهم قائل يا (الفريد)! .. لا يمكنك أن تعيش هناك.

المرز:

-سوف أبقى هناك .. إلى الأبد.

ريتا:

-لماذا؟ أخبرني لماذا؟

المرز:

-اجلسي .. سوف أخبرك بشيء ما.

ريتا:

-شيء قد حدث لك هناك بأعلى؟

المرز:

-نعم.

ريتا:

-ولم تقله لـ(آستا) أولا من قبل؟

المرز:

-نعم.

ريتا:

-لماذا أنت هادئ هكذا ..؟

المرز:

-اجلسي هناك وسوف أخبرك بكل شيء.

ريتا

-نعم .. نعم .. أخبرني .. [تجلس على مقعد أمام المنزل الصيفي]

المرز:

-كنت وحيداً هناك بأعلى. في منتصف المرتفعات ثم وصلت إلى بحيرة جبلية عظيمة. بحيرة كان يجب أن أعبرها. لكني لم أستطع. فلم يكن هناك قارب .. ولم يكن هناك بشر.

ريتا:

-حسناً؟ وماذا بعد؟

المرز:

-شققت طريقي بين الوادي الجانبي والجبال. وهناك اعتقدت إنني صعدت إلى قمم جبلية ثم هبطت مرة أخرى إلى الجانب الأخر للبحيرة.

ريتا:

-آه ... (الفريد)! .. أعتقد أنك قد فقدت قدرتك على الاحتمال.

المرز:

-نعم .. لقد ارتكبت خطأً في الاتجاه. فلم يكن هناك ممر أو طريق. كنت أسير طوال اليوم، وطوال الليلة التالية أيضاً. وفي النهاية اعتقدت إنني لن أعود إلى البشر مرة أخرى.

ريتا:

-لن تعود إلى الوطن؟ إلينا؟ آه، إذن، أنا متأكدة أن تفكيرك فينا هو ما أعادك إلينا؟

المرز:

-كلا ..

ريتا:

-كلا؟!

المرز:

-كلا .. لقد كان كل شيء غريباً تماماً .. كان يبدو كما لو أنك أنت و(يولف) قد ذهبتما بعيداً، و(آستا) كذلك.

ريتا:

-إذن ما الذي كنت تفكر فيه إذن؟

المرز:

-لم أفكر .. كنت أسير .. أسحب نفسي بين الصخور والشقوق مستمتعاً بالسلام ولكني حياً والموت يحدق بي من كل جانب.

ريتا

تقفز من مكانها كالملدوغة:

-لا تستعمل كلمات مرعبه كهذه .. أرجوك!

المرز:

-هذا هو ما كنت أشعر به. لا خوف على الإطلاق. لقد بدأ الأمر كما لو إنني والموت قد صرنا رفيقي رحله سفر.. لقد كان هذا منطقياً للغاية .. الأمر بأكمله كان من الممكن تفسيره على نحو غاية في البساطة .. أن أحداً من أهلي لم يعش قط حتى يصبح عجوزاً.

ريتا:

-أوه .. لا تتكلم عن أشياء كهذا يا (الفريد)! .. لقد اجتزت كل هذا في النهاية على أية حال.

المرز:

-نعم .. كل شيء على نحو مفاجئ .. على الضفة الأخرى للبحيرة.

ريتا:

-لقد كانت ليلة رعب عشتها يا (الفريد) .. ولكن .. لقد انتهى كل شيء الآن. لا يجب أن تتذكرها.

المرز:

-في تلك الليلة صعدت إلى قمم المرتفعات إلى حيث العزلة المطلقة. ثم أخذت طريقي لأعود لـ(يولف).

ريتا:

-متأخراً جداً.

المرز:

-نعم .. وبعدها .. جاء رفيق رحلتي وأخذه .. لقد كان الرعب من نصيبه إذن .. في كل شيء .. كل شيء .. لدرجة أننا لن نجرؤ على الرحيل .. لقد ارتبطنا بالأرض بشكل مخيف يا (ريتا) .. كلانا.

ريتا

بشيء من السعادة:

-نعم، إننا كذلك [نقترب] دعنا نكمل حياتنا معاً كأفضل ما نستطيع.

المرز

يسقط كتفاه:

-نعيش حياتنا، نعم! ولكن لا شيء لنملؤها به .. كل تلك العزلة والفراغ.

ريتا

في تعاسة:

-أوه .. أجلاً أو عاجلاً، سوف تتركني يا (الفريد)! اشعر بهذا! وأستطيع أن أرى بداخلك أيضاً! سوف ترحل وتتركني!

المرز:

-مع رفيق رحلة سفري، هل تعنين هذا؟

ريتا:

-كلا .. عنيت الأسوأ من هذا. سوف تتركني إلى المدينة. لأنك تعتقد أن ذلك الفراغ لا

يوجـد إلا هنـا .. معـي .. أجبنـي! .. أليـس هـذا مـا تفكـر فيـه؟

المرز

ينظر إليها بثبات:

-فلنفترض أن هذا هو ما أفكر فيه، ماذا ..؟

[صـوت وحركـة كـما لـو أنهـما صـادران عـن شـخص غاضـب؛ أصـوات مرتفعـة تسـمع مـن أسـفل (المـرز). يذهـب إلى القضبـان ..]

ريتا:

-ما عساه يكون هذا؟

[تمر برأسها للأمام]

-سوف ترى .. لقد عثروا عليه!

المرز:

-لن يعثروا عليه أبداً.

ريتا:

-ما هذا إذن؟

المرز

يعود:

-مجرد مشاجرة .. كالعادة!

ريتا:

-مشاجرة بأسفل.

المرز:

-نعـم .. الآن يعـود الرجـال إلى ديارهـم سـكارى .. كـما هـم دائمـاً .. يحدقـون بالصبيـة الذيـن يلعبـون .. يتعاركـون معهـم .. ثـم تبـدأ النسـوة في الصيـاح مـن النوافـذ تناديهـم ..

ريتا:

-أليس من الأفضل أن نرسل واحداً لمساعدتهم هناك؟

المرز

بقسوة وغضب:

-نساعدهم؟ ... ولماذا لم يساعد و(يولف)؟ .. دعيهم يرحلون .. تماماً كما رحل (يولف).

ريتا:

-.. لا ينبغي أن نتكلم على هذا النحو يا (الفريد)! .. لا يجب أن تفكر على هذا النحو!

المرز:

-إنني لا أستطيع أن أفكر على أي نحو آخر .. هؤلاء الحمقى بأسفل يجب أن يتمزقوا أرباً!

ريتا:

-ولكن .. ما الذي سوف يحل بأولئك القوم المساكين؟

المرز:

-يجب أن يذهبوا إلى مكان آخر.

ريتا:

-والأطفال؟

المرز:

-لن يكون الأمر مختلفاً عندما تأتي النهاية.

ريتا

بهدوء:

-إنك ترغم نفسك على أن تكون قاسياً يا (الفريد).

المرز

بانفعال:

-إن لدى الحق لاإكون قاسياً في الأيام القادمة .. إنه واجبي أيضاً!

ريتا:

-واجبك!

المرز:

-واجب نحو (يولف) .. يجب أن يأخذ بثأره .. فكري في هذا يا (ريتا) .. إذ ينتهي كل شيء .. إذ يدك المكان كله دكاً فيصبح في مستوى الأرض .. ذلك عندما أذهب ...

ريتا

تنظر إليه متسائلة:

-إلى أين سوف تذهب؟

المرز:

-نعم .. سوف أرحل .. وعندها سوف تجدين شيء ما تملأين به حياتك.

ريتا

بثبات ووضوح:

-إنك على حق ... يجب على أن أفعل .. ولكن هل يمكنك أن تخمن ما الذي من الممكن أن افعله .. عندما ترحل؟

المرز:

-ماذا؟

ريتا:

ببطء وبلهجة تقرير:

-في اللحظة التي تغادرني فيها .. سوف أهبط إلى أسفل وأجلب كل هؤلاء الأطفال المساكين إلى دارنا .. كل هؤلاء الصبية الصغار المعدمين ..

المرز:

-وما الذي سوف تفعلينه معهم هنا؟

ريتا:

-سوف أجعل منهم أبنائي!

المرز:

-حقاً؟

ريتا:

-نعم .. حقاً .. يوم ترحل عن هنا .. يجب أن يأتوا إلى هنا .. كلهم .. سوف يكونون أبنائي!

المرز

مصدوماً:

-في مكان (يولف) الصغير ..؟!

ريتا:

-نعم .. في مكان صغيرنا (يولف)! .. سوف ينامون في حجرة (يولف) .. سوف يقرؤون كتبه .. سوف يلعبون بألعابه .. سوف يجلسون على مائدته وعلى مقعده.

المرز:

-إن هذا كله جنون مطبق! .. لا أعرف شخصاً في العالم يمكن أن يفكر في شيء كهذا إلا أنت!

ريتا:

-لهذا ينبغي أن أتعلم كيف أفعل هذا ... وأعود نفسي عليه .. وأدرب نفسي عليه.

المرز:

-لو أن هذا حماساً حقيقياً .. كل ما تقولينه .. إذن .. لابد أن ثمة تغيير قد حل بك.

ريتا:

-نعم .. هو كذلك .. يا (الفريد) .. لقد تركت بداخلي مكاناً خالياً .. وينبغي أن أحاول ملئه بشأن ما .. شيء ما مثل الحب.

المرز

يقف ويفكر قليلاً ثم ينظر إليها:

-في الحقيقة .. إننا لم نفعل الكثير من أجل هؤلاء المساكين بأسفل.

ريتا:

-إننا لم نفعل أي شيء من أجلهم.

المرز:

-كان من الصعب أن نفكر ..

ريتا:

-..لا أفكر نحوهم أبداً بشيء من العطف ..

المرز

-نحن من حصل على الذهب والغابات الخضراء ، ..

ريتا

-كانت أيادينا مكتوفة عن كل شيء .. وقلوبنا كانت مغلقة أمامهم ..

المرز

يومئ برأسه:

-إذن .. لقد كان من الطبيعي تماماً، بعد كل شيء، أنهم لم يخاطروا بأرواحهم لإنقاذ (يولف).

ريتا

بنعومة:

-فكر يا (الفريد) .. هل جرؤنا بالفعل على أن نواجه هذا؟

المرز

رافضاً الفكرة:

-ليس لدى أدنى شك في هذا يا (ريتا)!

ريتا:

-آه .. إننا مخلوقات الأرض يا عزيزي.

المرز:

-ما الذي تعتقدين أنك قادرة على فعله إزاء كل هؤلاء الأطفال بالضبط؟

ريتا:

-سوف أجرب أفضل ما لدىّ، لأرى إذا كان من الممكن أن يعبروا ممر حياتهم بسلاسة .. وبشرف!

المرز

-إذا استطعت فعل هذا حقاً، إذن .. لم يولد (يولف) عبثاً.

ريتا:

-ولم يؤخذ منا عبثاً. أيضاً!

المرز

ناظراً إليها بثبات:

-كوني واضحة إزاء أمر واحد يا (ريتا) .. ليس الحب هو ما يدفعك إلى هذا.

ريتا:

-لا .. ليس الحب .. على الأقل، ليس الآن.

المرز:

-حسناً .. ماذا إذن على وجه التحديد؟

ريتا

تتجنب السؤال بشكل ما:

-لقد اعتدت أن تتحدث إلى (آستا) عن (مسئولية الإنسان) ..

المرز:

-عن الكتاب الذي تكرهينه.

ريتا:

-لازلت أكره الكتاب. لكني جلست وسمعت ما تقوله. والآن سوف أجرب أن أفعل كل هذا .. بطريقتي!

المرز

يهز رأسه:

-إنه ليس من أجل الكتاب .. فلم ينته بعد و..

ريتا:

-لا .. إن لدي سبباً آخر أيضاً.

المرز:

-ماذا إذن؟

ريتا

بنعومة وبابتسامة حزينة:

-أريد أن أعيش في سلام مع العينان المفتوحتان على أقصى اتساعهما.

المرز

يتأثر بشدة، ويثبت عينيه عليها:

-ربما .. ربما انضممت إليك .. وعاونتك يا (ريتا)!

ريتا:

-حقاً؟!

المرز:

-نعم .. لو عرفت حقاً إنني أستطيع.

ريتا

بتردد:

-ولكن هذا يعني أنك سوف تبقي هنا!

المرز

برقة

-دعينا نرى إن كان هذا سوف ينجح.

ريتا:

-حسناً .. فلنر يا (الفريد)!

[كلاهما يلتزم الصمت .. (المرز) يذهب إلى سارية العلم ويرفع الراية إلى القمة. (ريتا) تقف عند المنزل الصيفي وتراقبه في هدوء]

المرز

يعود مرة أخرى:

-سوف يكون أمامنا يوم من العمل الشاق يا (ريتا).

ريتا:

-سوف ترى .. أن راحة يوم (السبت) سوف تفيدنا من آن لآخر.

المرز

بهدوء:

-وسوف نعرف أيضاً أن الأرواح معنا!

ريتا

تهمس:

-الأرواح؟!

المرز

يستطرد:

-..نعم .. سوف تكون بجانبنا .. أرواح الذين فقدناهم.

ريتا

تومئ ببطء:

-صغيرنا (يولف) ...ولـ(يولف) الكبير أيضاً.

المرز

يحدق أمامه:

-لما حدث هذا .. مرة أو مرتين خلال حياتنا .. سوف نرى لمحة أو طيفاً منهما.

ريتا

-وأين ينبغي أن نرى هذا يا (الفريد) ..؟

المرز

ينظر إلى عينيها مباشرة:

-أعلى.

ريتا

تومئ برأسها موافقة:

-نعم، نعم .. إلى أعلى.

المرز:

-إلى أعلى .. إلى قمم الجبال .. إلى النحو .. وإلى البقاء المطلق العظيم!

ريتا

تحتضن كفه بين كفيها:

-شكراً!

تمت بحمد الله

الفهرس

قصص من جابرييل جارثيا ماركيز..... ٥
أشباح منتصف النهار..... ٧
عينا كلب أزرق..... ١١
الإبحار في النور..... ١٩
سيادة النائب..... ٢٣
رجل طاعن بأجنحة عملاقة..... ٢٩
قصص من إدجار آلان بو..... ٣٥
من نظرة عين..... ٣٧
سقوط دار أوشر..... ٥٩
القط الأسود..... ٦٣
قصص من جورجي لويس بورخيس..... ٧١
وردة صفراء..... ٧٣
ذلك العلم الذي لا يرحم..... ٧٤
الجحيم..... ٧٥
لغز..... ٧٦
مفارقة..... ٧٧
رؤيا..... ٨٠
سور الكتب..... ٨٢
المرآة والقناع..... ٨٤
مسرحية يولف الصغير ل هنريك إبسن..... ٨٩
المؤلف..... ٩١